mngool.com

إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار
في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي
المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماما للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني: الاملاء عن اشكالات الاحياء للإمام الغزالي: ردّ به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الاحياء.

الثالث: عوارف المعارف: للعارف بالله تعالى الامام السهروردي

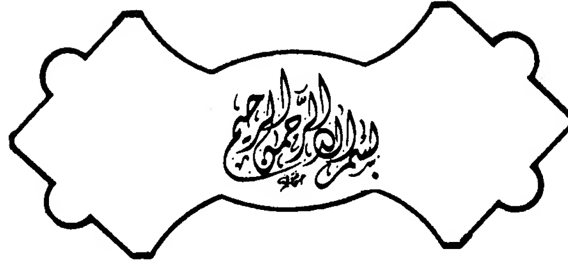
صحح بإشراف

الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان
دبلوم في الدراسات العربية والإسلامية

الجزء الثالث

دار القلم
ص.ب: ٣٨٧٤
بيروت - لبنان


الطبعة الثالثة
مصححة ومنقحة
وحقوق الصف والاخراج
ملك لدار القلم للطباعة
والنشر والتوزيع لصاحبها
احمد اكرم الطباع
بيروت - لبنان
ص.ب : ٣٨٧٤



كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر، وتدهش في مبادىء إشراق أنواره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكنونات الضمائر، المستغني في تدبير مملكته عن المشاور والموازر، مقلب القلوب وغفار الذنوب، وستار العيوب، ومفرّج الكروب.

والصلاة على سيد المرسلين، وجامع شمل الدين، وقاطع دابر الملحدين. وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم كثيراً .

أما بعد: فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدّته وذخره، وإنما استعدّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه؛ فالقلب هو العالم بالله. وهو المتقرب إلى الله؛ وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة: فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرّد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره؛ وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا جهل قلبه فهو بغيره أجهل، إذا أكثر الخلق جاهلون قلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين أصبعين مع أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين. ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين.

وإذ فرغنا من الشطر الأوّل من هذا الكتاب من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات ـ وهو العلم الظاهر، ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من الصفات المهلكات

والمنجيات ـ وهو العلم الباطن؛ فلا بدّ أن نقدّم عليه كتابين: كتابا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه، وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات.

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الإفهام، فإنّ التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام.

بيان معنى النفس، والروح، والقلب، والعقل، وما هو المراد بهذه الأسامي.

اعلم أنّ هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب. ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة. ونحن نشرح في معنى الأسامي ما يتعلق بغرضنا:

اللفظ الأوّل: لفظ القلب، وهو يطلق لمعنيين (أحدهما) اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية. وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت. ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك؛ بإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين. (والمعنى الثاني) هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب. ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته؛ فإنّ تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة. أو تعلق المتمكن بالمكان، وشرح ذلك ما نتوقاه لمعنيين: (أحداهما) أنه متعلق بعلوم المكاشفة، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة (والثاني) أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ؛[1] فليس لغيره أن يتكلم فيه، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الروح، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين: (أحدهما) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى: وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه من غرضنا، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا. (المعنى الثاني) هو اللطيفة العامة المدركة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

---

(١) حديث: أنه ﷺ لم يتكلم في الروح. متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح. وفيه: فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم، فعلمت أنه يوحي إليه... الحديث، وقد تقدم.

اللفظ الثالث: النفس، وهو أيضا مشترك بين معان، ويتعلق بغرضنا منه معنيان: (أحدهما) أنه يراد به المعنى الجامع لقوّة الغضب والشهوة في الإنسان عليهما سيأتي شرحه، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوّف؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك[1]». (المعنى الثاني) هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله تعالى في مثلها: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ والنفس المعنى الأوّل لا يتصوّر رجوعها إلى الله تعالى؛ فإنها مبعدة عن الله، وهي من حزب الشيطان. وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوّامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه. قال الله تعالى: ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوّامة ﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمّارة بالسوء. قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء: هي النفس بالمعنى الأوّل، فإذن النفس بالمعنى الأوّل مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

اللفظ الرابع: العقل، وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان: (أحدهما) أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب. (والثاني) أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة. ونحن نعلم أنّ كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه، والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقوله ﷺ: «أوّل ما خلق الله العقل[2]»: فإنّ العلم عرض لا يتصوّر أن يكون أوّل مخلوق، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الخطاب معه. وفي الخبر: أنه قال له تعالى أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر. . . الحديث.

فإذن قد انكشف لك أنّ معاني هذه الأسماء موجودة: وهي القلب الجسماني، والروح الجسماني، والنفس الشهوانية، والعلوم. فهذه أربعة معان يطلق عليه الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها، فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها؛ فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل، وهذا خاطر الروح، وهذا خاطر القلب، وهذا خاطر النفس، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدّمنا شرح هذه الأسامي، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأوّل بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها، ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش، والصدر بالكرسي فقال: القلب هو العرش والصدر هو الكرسي، ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه،

---

(١) حديث «أعدي عدوك نفسك التي بين جنبيك» أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

(٢) حديث «أول ما خلق الله تعالى» وفي الخبر أنه قال له: أقبل فاقبل وقال أدبر فأدبر. . . الحديث» تقدم في العلم.

فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضاً إلا من بعض الوجوه، وشرح ذلك أيضاً لا يليق بغرضنا فلنجاوزه.

بيان جنود القلب

قال الله تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ فالله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو. ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب، فهو الذي يتعلق بغرضنا. وله جندان: جند يرى بالأبصار، وجند لا يرى إلا بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان، فهذا معنى الجند: فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة، فإنّ جميعها خادمة للقلب ومسخرة له، فهو المتصرف فيها والمردد لها، وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمرّدا، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحرّكت، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم، وكذا سائر الأعضاء. وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافاً، بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإنما يفترقان في شيء: وهو أنّ الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها، والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه، فلأجله خلقت القلوب. قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وإنما مركبه البدن وزاده العلم. وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزوّد منه هو العمل الصالح، وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا، فإنّ المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهي منزل من منازل الهدى، وإنما سميت دنيا: لأنها أدنى المنزلتين، فاضطر إلى أن يتزوّد من هذا العالم، فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة، وظاهر، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهو اليد والرجل للذين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها، ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه الغذاء وإلفه، فافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق: وظاهر، وهو العين والأذن والأنف وغيرها. وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة. وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به.

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف: صنف باعث ومستحث: إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة، وإما إلى دفع الضارّ المنافي كالغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة. والثاني: هو المحرّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة: وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار والثالث: هو المدرك المتعرّف للأشياء كالجواسيس: وهي قوّة البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وهي مبثوثة في أعضاء معينة، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود، فإنّ قوّة البطش إنما هي بالأصابع، وقوّة البصر إنما هي بالعين، وكذا سائر القوى، ولسنا نتكلم

في الجنود الظاهرة أعني الأعضاء فإنها من عالم الملك والشهادة، وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها. وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس: أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل باطنة: وهي تجاويف الدماغ، وهي أيضا خمسة، فإنّ الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ، ولولا خلق الله قوّة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه؛ فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأماكنها أيضا باطنه، فهذه هي أقسام جنود القلب، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول. ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء، ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم.

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

أعلم أن جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاماً، فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد، وللقلب جند آخر: وهو العلم والحكمة والتفكر، كما سيأتي شرحه، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان. فإن ترك الإستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا، وذلك حالة أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة، وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة:

المثال الأول: أن نقول: مثل نفس الإنسان في بدنه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك في مدينته ومملكته فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل. والشهوة كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة. والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنياً في تدبيراته بوزيره مستشيراً له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث، مستدلاً بإشارته في أن الصواب في نقيض رأيه، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره، حتى يكون العبد مسوساً لا سائساً ، ومأموراً مدبرا لا أميراً مدبراً، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل، وأدبت بحمية الغضب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ وقال تعالى: ﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى: ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى.

المثال الثاني: أعلم أن البدن كالمدينة والعقل ـ أعني المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدوّ ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن هو جاهد عدوّه وهزمه وقهره على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى: ﴿ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة: يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك[1] كما ورد في الخبر. وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[2]».

المثال الثالث: مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلماً كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه.

بيان خاصية قلب الإنسان

أعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضاً، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الإدراك الباطن.

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى. وهو راجع إلى علم وإرادة:

أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم منه على كل شخص. ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس. وإذا فهمت في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر.

وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة. فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها. والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض والعاقل يجد في نفسه زاجراً عنها، وليس ذلك زاجراً الشهوة. ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرّك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعاً على التحقيق.

---

(١) حديث. يقال يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة... الخبر، لم أجد له أصلا.
(٢) حديث. «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

فإذن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبي في أوّل الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ. وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي.

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان؛ إحداهما: أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد.

الثانية: أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشراً للكتابة بقدرته عليها. وهذه هي غاية درجة الإنسانية. ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول. وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء، فدرجات الترقي فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها. وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف، بكشف إلهي في أسرع وقت، وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنزل. فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها[١]» والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة ـ كما سيأتي بيانه ـ وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ: «ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له»؟ وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشدّ شوقاً[٢]» وبقوله تعالى: ﴿من تقرّب إلي شبراً تقرّبت إليه ذراعا[٣]﴾ كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم ـ تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً ـ ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فإنّ القلوب كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[٤]» ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة.

---

(١) حديث «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات. . . الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم.

(٢) حديث «يقول الله عزّ وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي. . . الحديث» لم أجد له أصلاً إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسناداً.

(٣) حديث «يقول الله من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم. . . الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام.

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فبه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال. فالبدن مركب للنفس، والنفس محل للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق. وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكرّ والفرّ وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصية. فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار. وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقها في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقرّبين من ربّ العالمين. والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث يحس ويتحرّك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء.

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة، فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾.

ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمراً كثور، وإما شرهاً كخنزير. وإما ضريا ككلب أو سنور، أو حقوداً كجمل. أو متكبراً كنمر، أو ذاروغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد.

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى -كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر- فمن استعمله فيه فقد فاز، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب. وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده، والدار الآخرة مستقرّة، والدنيا منزله، والبدن مركبه، والأعضاء خدمه. فيستقرّ هو -أعني المدرك من الإنسان- في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك، ويجري القوّة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده، ويجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ خازنه، ويجري اللسان مجرى ترجمانه، ويجري الأعضاء المتحركة مجرى كتابه، ويجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع؛ فيوكل العين بعالم الألوان، والسمع بعالم الأصوات، والشم بعالم الروائح. وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد، ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة، ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصدده، وقمع عدوّه الذي هو مبتلى به، ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موفقاً سعيداً شاكراً نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة، أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره، ووطنه ومستقرّه الآخرة؛ كان مخذولاً شقيا كافراً بنعمة الله تعالى مضيعاً لجنود الله تعالى ناصراً لأعداء الله مخذلاً لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد. نعوذ بالله من ذلك.

وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت؛ الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك[1] فإذا طاب الملك طابت جنوده، فقالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول. وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب: إن لله تعالى

---

(١) حديث عائشة: الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان. . . الحديث. أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي.والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبي ذر: وأما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعي القلب ولا يصح منها شيء.

في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها: ثم فسره فقال: أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين وأرقها على الإخوان، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ أشدآء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال أبي بن كعب رضي الله عنه: معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى: ﴿ كظلمات في بحر لجي ﴾ مثل قلب المنافق. وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ في لوحٍ محفوظ ﴾ وهو قلب المؤمن. وقال سهل: مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي فهذه أمثلة القلب.

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي: الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره. ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ فإنه يدعي لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء، والاستعلاء، والتخصص، والاستبداد بالأمور كلها، والتفرّد بالرياسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها؛ بل يدعي لنفسه العلم، والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب إلى العلم، ويحزن إذا نسب إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك. ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة ـ أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ـ وكل ذلك مجموع في القلب. فكأن المجموع في إهاب الإنسان: خنزير وكلب وشيطان وحكيم.

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه.

والكلب هو الغضب فإنّ السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه. فالخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر والسبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء.

والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه.

والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتلسيط الكلب عليه اذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير.

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة، ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرة وراكعاً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره. فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته، أو

رأى نفسه ماثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فإنه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتها فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبداً والقاهر مقهوراً، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والإستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا مهلكا للقلب ومميتا له، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها. وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها. وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها. ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية: لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب، ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والإحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها:

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب. أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونوراً وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظا من قلبه[١]» وبقوله ﷺ: «من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ[٢]» وهذا القلب هو الذي يستقرّ فيه الذكر قال الله تعالى: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾.

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال عز وجل: ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى: ﴿ واتقوا الله واسمعوا ـ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾.

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك: ﴿ يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة،

قال ميمون بن مهران: إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكته سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل، وإن

(١) حديث: إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً من قلبه. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد.

(٢) حديث: من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ. لم أجد له أصلاً.

عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبي ﷺ: «قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس[1]» فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب، ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه، ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح، فإنها لا تخلو عن كدورة. وقد قال ﷺ: «القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلبٌ مصفح فيه إيمان ونفاق[2]» فمثل الإيمان فيه كمثل يمدها الماء الطيب. ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها؟ وفي رواية: ذهبت به. قال الله تعالى: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا. فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات؛ فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها، وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة فهي ثلاثة أمور. فكذلك ههنا ثلاثة أمور:القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه.

فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء. والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة.

وكما أن القبض مثلاً يستدعي (قابضاً) كاليد (ومقبوضاً) كالسيف، ووصولاً بين السيف واليد ـ بحصول السيف في اليد ـ ويسمى (قبضاً) فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علماً، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلاً، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلا لعدم وقوع السيف في اليد، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب، فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها، فتمثيله بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له. وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علماً .

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور (أحدها) نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل. (والثاني) لخنثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل. (والثالث) لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة. (والرابع) لحجاب مرسل بين المرآة والصورة. (والخامس) للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها.

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها، وإنما خلت القلوب عن العلوم

---

(١) حديث «قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر. . . الحديث» أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه.

(٢) حديث «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهو. . . الحديث» أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري. وقد تقدم.

التي خلت عنها هذه الأسباب الخمسة (أولها) نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي لـه المعلومات لنقصانه. (والثاني) لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً[1]» أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد بها نوراً. فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وقال ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم[2]».

الثالث أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب؛ بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جليه الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيق؟.

الرابع: الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهذا أيضاً حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق.

الخامس: الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من أزدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى. ثم كما أن من أراد أن يستنتج لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص. فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم. ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة

---

(١) حديث «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» لم أر له أصلاً.

(٢) حديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم.

المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يعز على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات. فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور. وإلا فكل فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف. وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿إنا عُرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى. وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها. ولذلك قال ﷺ: «كل مولودٍ يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه[1]» وقول رسول الله ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[2]» إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوت.

وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله، يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء؟ قال في قلوب عباده المؤمنين[3]» وفي الخبر «قال الله تعالى: ﴿لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع[4]﴾ وفي الخبر «إنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال: «كل مؤمن مخموم القلب» فقيل: وما مخموم القلب؟ فقال: «هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد[5]» ولذلك قال عمر رضي الله عنه: رأى قلبي ربي. إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة، وأما عالم الملكوت، وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له. وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعةً واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله. وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعني إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾.

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب (المرتبة الأولى) إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض.

---

(۱) حديث «كل مولود يولد على الفطرة... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(۲) حديث: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم... الحديث. تقدم.

(۳) حديث ابن عمر: أين الله؟ قال: في قلوب عباده المؤمنين. لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي ﷺ قال «إن الله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين... الحديث» فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث.

(٤) حديث «قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع» لم أر له أصلاً وفي حديث أبي عتبة قبلة عند الطبراني بعد قوله «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه الينها وأرقها».

(٥) حديث: قيل من خير الناس؟ قال «كل مؤمن مخموم القلب... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح.

(والثانية) إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام (والثالثة) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين.

ونبين لك هذه المراتب بمثال: وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات.

الأولى: أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع، وهذا الإيمان بمجرد التقليد، وهو مثل العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من القربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين، إذا الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات، فقلوب اليهود والنصارى أيضاً مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقي إليهم كلمة الحق.

الرتبة الثانية: أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع، فإنك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص؛ وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضاً ممكن أن يتطرق إليه، إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعاً ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضاً.

الرتبة الثالثة: أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ. نعم وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف.

أما درجات الكشف فمثاله أن يبصر زيداً في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية فيتمثل في صورته ما يستيقن معه أنه هو؛ ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته. ومثلُ هذا متصوَّر في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية.

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيداً وعمراً وبكراً غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة. فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب.

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية. والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة. والمتكسبة إلى دنيوية وأخروية.

أما العقلية: فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع؛ وهي تنقسم إلى ضرورية: لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً معاً، فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها

ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له؟ أعني أنه لا يدري له سببا قريبا، وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه. وإلى علوم مكتسبة: وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلاً.

قال علي رضي الله عنه:

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

هو المراد بقوله ﷺ لعلي: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل[1]» والثاني هو المراد بقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك[2]». إذ لا يمكن التقرب الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة. ولكن مثل عليّ رضي الله عنه هو الذي يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين، فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوّة البصر في العين، وقوة الأبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جنَّ عليه الليل، والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوّة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان الأشياء. وتأخر العلوم عن عين العقل في مدّة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات. والقلم الذي سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس. وإنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم. والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نقش العلوم في قلوب البشر قال الله تعالى: ﴿ الذي علم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه، فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض؛ فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه مناسبة بينهما في الشرف؛ فإن البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة، وهي كالفارس والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لانسبة لأحد الضررين إلى الآخر. ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ سمي إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض﴾ وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان، ولذلك سمي ضد إدراكه عمى فقال تعالى: ﴿ فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ وقال تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ فهذا بيان العلم العقلي.

أما العلوم الدينية: فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم معانيهما بعد السماع، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض، فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها، كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء، إذ مجرد العقل لا يهتدي إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل. فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن

---

(١) حديث «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم في العلم.
(٢) حديث «إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك» أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف.

أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء. وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما. فيظن أنه تناقض في الدين، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين. وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضاً في الدين وهيهات. وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم: ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم لا ترد إلى مواضعها؟ فقالوا له: تلك الأواني في مواضعها! وإنما أنت لست تهتدي للطريق لعماك فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية.

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية. فالدنيوية: كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات. والأخروية: كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ـ كما فصلناه في كتاب العلم ـ وهما علمان متنافيان ـ أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ـ ولذلك ضرب عليّ رضي الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال: هما ككفتي الميزان، وكالمشرق والمغرب، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالاً في أمور الآخرة. والأكياسُ في دقائق علوم الآخرة جهالاً في أكثر علوم الدنيا، لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين جميعاً في الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني. ولذلك قال ﷺ: «إن أكثر أهل الجنة البله[1]» أي البله في أمور الدنيا.

وقال الحسن في بعض مواعظه: لقد أدركنا أقواما ما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين. فمهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم، فلا يغرّنك جحودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب، فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى: ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وقال عز وجل: ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عبادة في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها. فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها.

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم، والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية ـ وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال ـ تختلف الحال في حصولها

(١) حديث «أكثر أهل الجنة البله» أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدي أنه منكر.

فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم. فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً. ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب. والأول: يسمي إلهاماً ونفثاً في الروع والثاني: يسمى وحيا وتختص به الأنبياء. والأول يختص به الأولياء والأصفياء. والذي قبله ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال ـ يختص به العلماء. وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة ـ التي سبق ذكرها ـ فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضي الله به إلى يوم القيامة. وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة تقابلها، والحجاب بين المرآتين تارةً يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه. وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل. وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء، وينكشف أيضاً في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حد ما. ودوامه في غاية الندور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية. فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة.

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له. وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه: الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا

الحدّ واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت؛ ثم يعود وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل في حال فثباته أبعد منه، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله ﷺ: «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها[1]» وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[2]» وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض. وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه. وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيداً جداً؛ فكذلك هذا. وقالوا: لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة.

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس، لأن القلب أيضاً خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركاً بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس. ونحن نقرب ذلك إلى الإفهام الضعيفة بمثالين:

أحدهما: أنه لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر. فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار. وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علماء، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره

---

(١) حديث «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها» أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود.
(٢) حديث «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر.

ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

فإن قلت: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟ فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين. فكما أن المهندس يصوّر أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة، والعالم الذي خرج إلى الوجود تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها، ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال. والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم في نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه. والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ.

فكأن للعالم أربع درجات في الوجود: وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي ـ أعني وجود صورته في الخيال ـ ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي ـ أعني وجود صورته في القلب.

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية. والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض؛ وهذا اللطف من الحكمة الإلهية، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها، ثم يسري من وجودها في الحس وجود إلى الخيال، ثم منه وجود في القلب فإنك أبداً لا تدرك إلا ما هو واصل إليك، فلو لم يجعل للعالم كله مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك، فسبحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها.

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول: القلب قد يتصوّر أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارةً من اللوح المحفوظ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارةً من النظر إليها وتارةً من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها. فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض. ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس؛ فإذن للقلب بابان: باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة. وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة. فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك. وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علماً يقينيا بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس. وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال ﷺ: «سبق المفرّدون» قيل ومن هم المفردون يا رسول الله؟ قال: «المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً» ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى فقال: «ثم أقبل بوجهي عليهم أترى من واجهته بوجهي يعلم أحداً أي شيء

أريد أن أعطيه» ثم قال تعالى: ﴿ أول ما أعطيهم أن أقذف النور في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم[1]» ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمي الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصي في علم المعاملة. فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين.

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العملين، أعني عمل العلماء وعمل الأولياء: فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط، فقد حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ؟ فقيل: وكيف فرغتم من غير صبغ! فقالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحي وصفاؤه لا يتكدّر وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله: التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى.

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال. فصاحب الدرهم غني وصاحب الخزائن المترعة غني، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى: ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقد روى في الخبر: «إن بعضهم يعطي نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطي نورا على إبهام قدميه فيضيء مرة وينطفىء أخرى فإذا أضاء قدّم قدميه فمشى وإذا طفىء قام، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه، والذي أعطي نوراً على إبهام قدميه يحبو حبواً على وجهه ويديه ورجليه يجر يداً ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص[2]» الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح. فهذا أيضا يضاهي قول القائل: لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح؛ فإنما آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع، وإيمان الصديقين نوره

---

(١) حديث «سبق المفردون» قيل ومن هم؟ قال: «المستهترون بذكر الله... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مقتصراً على أول الحديث وقال فيه: وما المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» ورواه الحاكم بلفظ «قال الذين يستهترون بذكر الله» وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب «يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافاً» ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلاهما ضعيف.

(٢) حديث «إن بعضهم يعطي نوراً مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطي نوره على إبهام قدمه... الحديث» أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين.

كنور القمر والنجوم، وإيمان الأنبياء كالشمس. وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع اقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين. ولذلك جاء في الخبر: «أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة[1]» كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير مع الإيمان لا تمنع دخول النار، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولاً وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها. وكذلك قوله ﷺ: «ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن[2]» إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام. وقد قال تعالى: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد. وقال عز وجل: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم. ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرةٍ وكشفٌ.

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾ فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وقال ﷺ: «أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب[3]» وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي[4]» وفي رواية «كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الذي يملك عشرة دراهم إلى الغني الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غني ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك: ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾.

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات:

أما الشواهد: فقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام. وقال ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار[5]» وقال الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ من الإشكالات والشبه ﴿ويرزقه من

---

(١) حديث «يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان. . . الحديث» متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله «ربع مثقال».

(٢) حديث «ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن». أخرجه الطبراني من حديث سلمان بلفظ «الإنسان» ولأحمد من حديث ابن عمر «لا نعلم شيئاً خيراً من مائة مثله إلا الرجل المؤمن» وإسنادهما حسن.

(٣) حديث «أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب» تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلاً.

(٤) حديث «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية.

(٥) حديث «من عمل بما علم. . . الحديث» تقدم في العلم دون قوله «ووفقه فيما يعمل» فلم أرها.

حيث لا يحتسب﴾ يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة. وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات، ولذلك كان ﷺ يكثر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً واجعل في قلبي نوراً وفي قبري نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً حتى قال في شعري وفي بشري وفي لحمي ودمي وعظمي[١]» وسئل ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ ما هذا الشرح؟ فقال: «هو التوسعة إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح[٢]» وقال ﷺ لأبن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[٣]» وقال علي رضي الله عنه: ما عندنا شيء أسره النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهما في كتابه وليس هذا بالتعلم[٤]؟ وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ إنه الفهم في كتاب الله وقال تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ خص ما انكشف باسم الفهم. وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم. قوال بعض السلف: ظن المؤمن كهانة.

وقال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى[٥]» وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ وقوله تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ وروي الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع[٦]» وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً. وقد قال ﷺ: «إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم[٧]» وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث﴾ يعني الصديقين والمحدث هو الملهم، والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة.

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف: وذلك علم من غير تعلم. وقال الله تعالى: ﴿وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ خصصها بهم وقال تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء؟ بلا حفظ ولا درس. وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنِّيا بل اللدنى الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر.

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته: إنما هما أخواك وأختاك، وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت. وقال عمر رضي الله عنه في أثناء

---

(١) حديث «اللهم أعطني نورا وزدني نورا. . . الحديث» متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٢) حديث: سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للإسلام. . . الحديث. وفي المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم.

(٣) حديث «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله «وعلمه التأويل» فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم في العلم.

(٤) حديث علي: ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله ﷺ إلا أن يؤتى الله عبداً فهما في كتابه. تقدم في آداب تلاوة القرآن.

(٥) حديث «اتقوا فراسة المؤمن. . . الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

(٦) حديث «العلم علمان. . . الحديث» تقدم في العلم.

(٧) حديث «إن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر» ورواه مسلم من حديث عائشة.

خطبته: يا سارية الجبل؛ إذ انكشف له أن العدّو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريقي فنظرت إليها شزراً وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت: أوحي بعد النبي؟ فقال. لا، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة. وعن أبي سعيد الخراز قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كل على الناس، فناداني وقال: ﴿ والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ فاستغفرت الله في سري فناداني وقال: ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ ثم غاب عني ولم أره.

وقال زكريا بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي ـ وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به ـ قال: فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل؟ قال: فصاح بي أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فإن الله تعالى ألطافا خفية. وقال أحمد النقيب. دخلت على الشبلي فقال مفتوناً: يا أحمد فقلت: ما الخبر؟ قال: كنت جالساً فجرى بخاطري أنك بخيل، فقلت: ما أنا بخيل، فعاد مني خاطري وقال: بل أنت بخيل، فقلت: ما فتح اليوم علي بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني، قال: فما التتم الخاطر حتى دخل على صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً فقال: اجعلها في مصالحك، قال: وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير، فقال: أعطها المزين، فقلت: إن جملتها كذا وكذا، قال أو ليس قد قلنا لك إنك بخيل؟ قال: فناولتها المزين فقال المزين: قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً ، قال: فرميت بها في دجلة وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل. وقال حمزة بن عبد الله العلوي: دخلت على أبي الخير النيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاماً، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقاً فيه طعام وقال: يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك، وكان أبو الخير النيناني هذا مشهوراً بالكرامات وقال إبراهيم الرقي: قصدته مسلماً عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي! فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدني سبع فعدت إلى أبي الخير وقلت: قصدني سبع، فخرج وصاح به وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني؟ فتنحى الأسد فتطهرت فلما رجعت قال لي: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد.

وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر بل ما حكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه، ومن سماع صوت الهاتف، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه! والثاني: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل باصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبياً بل يسمى ولياً، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان: باب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فإذا أقربهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيل إليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب

تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت. وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب، ولا يليق إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها. فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسألني أملي عليه شيئا من ذكري الخفي عن مشاهدتي من التوحيد وقال: ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى ا لله عز وجل فقلت: ألستما تكتبان الفرائض؟ قال: بلى، قلت: فيكفيكما ذلك. وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون عل الأعمال الظاهرة. وقال بعض العارفين: سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم التفت إلى يمينه فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أطرق إلى صدره وقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاتة فقال: لم يكن عندي في المسألة جواب عتيد، فسألت صاحب الشمال فقال لا أدري! فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري، فنظرت إلى قلبي وسألته فحدثني بما أجبتك فإذا هو أعلم منهما. وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام: «إن في أمتي محدثين وإن عمر منهم».

وفي الأثر: إن الله تعالى يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه. وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه: القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأي باب فتح له عمل فيه؟ فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا. ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة. وقال بعض العلماء: يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق. وقال آخر: لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره.

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله **أيضاً** مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه. وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال؛ أما من الظاهر فالحواس الخمس، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان؛ فإنه إذا أدرك بالحواس **شيئاً** حصل منه أثر في **القلب، وكذلك** إذا هاجت الشهوة **مثلاً** بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر. والمقصود أن القلب في التغير والتأثر **دائماً** من هذه الأسباب. وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر؛ وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار، والأذكار، وأعني به إدراكاته **علوماً** إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب **غافلاً** عنها. والخواطر هي المحركات للإرادات فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء. والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة. فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى **إلهاماً** والخاطر المذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى **وسواساً** ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر

حادثة، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث. ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب. فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة.

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء؛ والتخويف عند الهم بالخير والفقر. فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ومن كل شيءخلقنا زوجين﴾ فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها. فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك. وقد قال ﷺ: «في القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدوّ بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ـ ثم تلا قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم بالفقر ويأمركم بالفحشاء﴾[1] الآية. وقال الحسن إنما هما همان يجولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدوّ، فرحم الله عبداً وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده.

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[2]» فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله في التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك. والله تعالى يفعل ما يفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلاً. والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عشّ الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطا ن ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله شيطان» قالوا وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير[2]» وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحدّ الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدرّع بها لا يأمر إلا بالخير. ومهما غلب ،على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس. ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم. والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثاني اختلاساً. وأكثر القلوب قد

---

(١) حديث «في القلب لمتان لمة من الملك إيعاذ بالخير. . . الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود.
(٢) حديث «قلب المؤمن بين أصبعين. . . الحديث» تقدم.

فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة. ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى. ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة. وقال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه. يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان. وقال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك قال عمرو ابن العاص للنبي ﷺ: يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال: «ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً» قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[٢]».

وفي الخبر «إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه[٣]» ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال. ولا يعالج الشيء إلا بضدّه وضدّ جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوّة، وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة. قال الله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى: ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ قال: هو منبسط على القلب؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه. فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار، ولتضادهما قال الله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسيَ الله تعالى التقم قلبه[٤]» وقال ابن وضاح في حديث ذكره: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال: بأبي وجه من لا يفلح[٥].

وكما أنّ الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال ﷺ: «إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع[٦]». وذلك لأنّ الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات. ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم﴾ وقال ﷺ: «إنّ الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتترك دينك ودين آبائك، فعصاه وأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر أتدع أرضك وسمائك؟ فعصاه وهاجر،

---

(١) حديث «ما منكم من أحد إلا وله شيطان... الحديث» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث ابن أبي العاص: إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي... الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص.

(٣) حديث: إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان... الحديث» أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث.

(٤) حديث أنس «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلي الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه.

(٥) حديث ابن وضاح «إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال: «بأبي وجه من لا يفلح» لم أجد له أصلاً.

(٦) حديث «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» تقدم.

ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك، فعصاه وجاهد[1]» وقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» فذكر رسول الله ﷺ معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة. فإذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصوّر أن ينفك عنه آدمي وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته، ولذلك قال عليه السلام: «ما من أحد إلا وله شيطان[2]».

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم. وإن كان جسماً فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة. بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة، وعلم أنّ الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدوّ فقد عرف العدوّ لا محالة فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى: ﴿إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وقال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾ فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدوّ عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه. نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين. فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ـ نعوذ بالله منه ـ وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات فلا يحتاج في علم المعاملة إلى معرفته. نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعاً أنه داع إلى الشر فلا يخفي كونه وسوسة، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاماً، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان؟ فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الخير، والتمييز في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصوّر الشر بصورة الخير، كما يقول للعالم بطريق الوعظ: أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكي من الغفلة قد أشرفوا على النار؟ أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك، ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة؟ فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم؟ وهو لا يزال يقرّر ذلك في نفسه ويستجرّه بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق. ولا يزال يقرّر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك، فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول، فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إنّ ليؤيد هذا الدين بقوم لأخلاق لهم[3]». و«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[4]». ولذلك روي أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم ﷺ فقال له: «قل لا إله إلا الله. فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك. لأن له أيضاً تحت الخير تلبيسات، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس

---

(١) حديث «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق... الحديث» أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح.

(٢) حديث «ما من أحد إلا له شيطان... الحديث» تقدم.

(٣) حديث «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم» أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد جيد.

(٤) حديث «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم.

لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة.

وسنذكر جملة من مكايد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع. ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتاباً على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لا سيما في المذاهب والاعتقادات، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها. كل ذلك إذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده.

فحق على العبد أن يقف عند كلّ هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾ أي رجعوا إلى نور العلم ﴿ فإذا هم مبصرون﴾ أن ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر. وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى: ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ قيل هي أعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات. وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف عل خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عدواته وطريق الاحتراز عنه. ولا ينجي من كثرة الوسواس إلا سدّ أبواب الخواطر. وأبوابها الحواس الخمس، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا. والخلوة في بيت مظلم تسد باب الحواس. والتجرّد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخيلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بدّ من مجاهدته، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حياً. نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد، ولكن لا يستغني قطا عن الجهاد والمدافعة - ما دام الدم يجري في بدنه. فإذا ما دام حياً فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع وغيرها - كما سيأتي شرحها - ومهما كان الباب مفتوحاً والعدوّ غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة.

قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان؟ فتبسم وقال: لو نام لاسترحنا. فإذن لا خلاص للمؤمن منه. نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوّته. قال ﷺ: «إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره[1]» وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول. وقال قيس بن الحجاج. قال لي شيطاني، دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور، قلت: ولم ذاك؟ قال: تذيبني بذكر الله تعالى. فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سدّ أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة، أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة، وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا في غرور العلماء والوعاظ والشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة. والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفي بـالتقوى. والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مما يهدي إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خطّ خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان

---

(١) حديث «إن المؤمن ينضي شيطانه... الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة.

يدعو إليه» ثم تلا: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ لتلك الخطوط[1] فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه.

وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة، فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الذي لا يخفي إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه. وذلك كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتوا إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها، فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل حتى واقعها فحملت منه، فوسوس إليه وقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها فأقتلها فإن سألوك فقل ماتت، فقتلها ودفنها، فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها، فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال: ماتت، فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي خنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج وأخلصك منهم قال: بماذا؟ قال: اسجد لي سجدتين؛ فسجد له سجدتين فقال له الشيطان: إني بريء منك. فهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بري ء منك[2]﴾ فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر، وكل ذلك لطاعته له في قلوب الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجرّه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصاً: فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه[3]».

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أنّ مثال القلب مثال حصن والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدوّ إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة؛ فإنّ الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان. ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة، فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي أن يتوب علي، فقال موسى: نعم، فلما صعد موسى الجبل وكلّم ربه عز وجلّ وأراد النزول قال له ربه: أد الأمانة، فقال موسى: يا رب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه، فأوحى الله

---

(١) حديث ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ **خطاً** فقال «هذا سبيل الله... الحديث». أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٢) حديث «كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب... الحديث» بطوله في قوله تعالى ﴿كمثل الشيطان إذا قال للإنسان أكفر﴾ رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن مرد وبه تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسلاً وللحاكم نحوه موقوفاً على علي بن أبي طالب وقال صحيح الإسناد ووصله بطين في مسنده من حديث علي.

(٣) حديث «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» متفق عليه من حديث النعمان ابن بشير «من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه» لفظ البخاري.

تعالى إلى موسى: يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك أُمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك، فغضب واستكبر وقال: لم أسجد له حياً أسجد له ميتاً؟ ثم قال له: يا موسى إن لك علي حقا بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن: اذكرني حين تغضب فإن روحي في قلبك وعيني في عينك وأجري منك مجرى الدم؛ اذكرني إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت في أنفه فما يدري ما يصنع، واذكرني حين تلقي الزحف فإني آتي ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولي، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك. فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا، وامتناعه من السجود لآدم ميتاً هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لآبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم؟ آخذه عند الغضب وعند الهوى، فقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال: الحدّة فإن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة: وقيل: إن الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟.

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه وأصمه إذ قال ﷺ: «حبك للشيء يعمي ويصم[1]» ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكراً أو فاحشاً. فقد روي أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال له نوح: أخرج منها يا عدوّ فإنك لعين، فقال له إبليس: خمس أهلك بهن الناس وسأحدّثك منهن بثلاث ولا أحدّثك باثنتين، فأوحى الله تعالى إلى نوح: أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدّثك بالاثنتين، فقال له نوح: ما الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك الناس؛ الحرص والحسد، فبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجيماً، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص.

ومن أبوابه العظيمة: الشبع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً؛ فإنّ الشبع يقوّي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان. فقد روي أنّ إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال: فهل فيها من شيء؟ قال. ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال. لا. قال لله على أن لا أملأ بطني من الطعام أبداً، فقال له إبليس: ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً. ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة؛ أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه. الثاني: أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع. والثالث: أنه يثقل عن الطاعة. والرابع: أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة والخامس: أنه إذا تلكم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس. والسادس: أن يهيج فيه الأمراض.

ومن أبوابه: حب التزين من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره، وإذا أوعقه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض

(١) حديث «حبك الشيء يعمي ويصم» أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه.

ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس: لأنه إذا غلب على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك. وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئا أعلمك به فقال: لا حاجة لي به. قال: انظر فإن كان خيراً أخذت وإن كان شراً رددت، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة؟ وانظر كيف تكون إذا غضبت؟ فأني أملكك إذا غضبت.

ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبت في الأمور، وقال ﷺ: «العجلة من الشيطان والتأني من الله تعالى[1]» وقال عز وجل: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ وقال تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ وقال لنبيه ﷺ: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه﴾ وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروّج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري. فقد روي أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا؛ أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها فقال هذا حادث، مكانكم! فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به، فرجع إليهم فقال: إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة.

ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار؛ فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب. فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها ألى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنياً وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري داراً يعمرها وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به. وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواء. قال ثابت البناني لما بعث رسول الله ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ما ندري؟ قال: أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله محمداً ﷺ قال: «فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحي ذلك، فقال له إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا[2]. وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوماً حجراً فمر به إبليس فقال: يا عيسى رغبت في الدنيا؟ فأخذه عيسى ﷺ فرمى به من تحت رأسه وقال: هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجراً يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدّة للشيطان عليه. فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر، يمكن أن يتوسده؟ فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده،

---

(١) حديث «العجلة من الشيطان والتأني من الله» أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة وقال حسن.

(٢) حديث ثابت: لما بعث ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر. . . الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلاً.

ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرّك رغبته إلى النوم. هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد الميثرة والفرش الوطيئة والمنتزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى؟.

ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز. قال خيثمة بن عبد الرحمن: إن الشيطان يقول: ما غلبني ابن غلبة فلن يغلبني على ثلاث، أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، ومنعه من حقه. وقال سفيان: ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء.

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق هي معشش الشياطين. وقال أبو أمامة إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً فاجعل لي بيتا قال الحمام، قال: اجعل لي مجلساً قال الأسواق ومجامع الطرق، قال: اجعل لي طعاماً قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: اجعل لي شراباً قال كل مسكر، قال: اجعل لي حديثاً قال الكذب، قال: اجعل لي مصايد قال النساء[1]».

ومن أبوابه العظيمة التوصل: التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعاً فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقاً لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أوّل عدوّ له إذ موالي أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه، وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأنى لهذا الفضولي أن يدعي ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته؟ وترى فضولياً آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوباً اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ، ونرى الفاسق لابساً الثياب الحرير ومتجملاً بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة، وليت شعري من أخذ ولداً عزيزاً لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم. من الأهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذي يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدوّ الله إبليس وعدوّ أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله ﷺ لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محباً لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محباً لعلي لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه[2] «اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً[3]» وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء.

---

(١) حديث أبي أمامة «إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيًا فاجعل لي بيتاً قال الحمام... الحديث» أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جداً ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً.

(٢) جديث «فاطمة بضعة مني» متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة.

(٣) حديث «إني لا أغني عنك من الله شيئاً» قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان؛ فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذباً؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب، فحبسوا ذلك في صدورهم ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم، وقال الحسن. بلغنا أن ابليس قال: سوّلت لأمة محمد ﷺ المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسوّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء. وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها.

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود. جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع، فأتى رفقة أخرى يتحدّثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون ـ وليس إياهم يريد ـ فقام الذي يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مراد الشيطان منهم.

ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافراً أو مبتدعاً وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشدّ الناس حماقة أقواهم اعتقاداً في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدّهم اتهاماً لنفسه وأكثرهم سؤالاً من العلماء. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه[1]» والنبي ﷺ لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا التعلم للعلماء فالعامي لو يزني ويسرق كان خيراً له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد، والمذاهب لا تحصر وإنما أردنا بما أوردنا المثال.

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾ فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه. وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال ﷺ: «اتقوا مواضع التهم[2]» حتى احترز هو ﷺ من ذلك. روي

---

(١) حديث عائشة «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك؟ فيقول الله... الحديث» أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلي في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث «اتقوا مواضع التهم» لم أجد له أصلاً.

عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد قالت: فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معه فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم إنصرفا فناداهما وقال «إنها صفية بنت حيي» فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً، فقال «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يدخل عليكما[1]» فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما فحرسهما؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله؟ فيقول: مثلي لا يظن به إلا الخير إعجاباً منه بنفسه. فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر. فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق. فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله.

فإن قلت فما العلاج في دفع الشيطان وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره. وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ما سيأتي شرحه ـ نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ خصص بذلك المتقي فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له: إخسأ، فمجرد الصوت يدفعه. فإن كان بين يديك لحم وهو جائع يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويداء القلب. وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوّها بالغفلة عن الذكر، فاذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر.

قال أبو هريرة: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فاذا شيطان الكافر دهين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: مالك مهزول؟ قال: أنا مع رجل إذا أكل سمي الله فأظل جائعا وإذا شرب سمي الله فأظل عطشانا، وإذا لبس سمي الله فأظل عريانا، وإذا أدهن سمي الله فأظل شعثا، فقال: لكني مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه.
وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدوّا بصيراً بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه

(١) حديث «صفية بنت حُيي: أن النبي ﷺ كان معتكفاً فأتيته فتحدثت عنه... الحديث. وفيه «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» متفق عليه.

كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير. قال: فتمثل له إبليس يوماً في طريق المسجد فقال له: يا ابن واسع هل تعرفني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا إبليس، فقال: وما تريد؟ قال: أريد أن لا تعلم أحد هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك، قال: والله لا أمنعها ممن أراد فاصنع ما شئت. وعن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قال: كان شيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب فأتاه جبرائيل عليه السلام فقاله له: قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن. فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه[1] وقال الحسن. نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك فاذا أويت إلى فراشك فاقرأ اية الكرسي[2] وقال ﷺ أتاني الشيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه فوالذي بعثني بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح طريحا في المسجد[3]» وقال ﷺ: «ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير الذي سلكه عمر[4]» وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان ﷺ، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة، ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة، والذكر الدواء والتقوى احتماء وهي تخلي القلب عن الشهوات. فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فيالمعدة الخالية عن الأطعمة. قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ وقال تعالى: ﴿كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه. وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان[5] ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك، فليس الخبر كالعيان، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة؛ فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمرّ بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت؟ فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فرّ من عمر رضي الله عنه. ولذلك قال وهب بن منبه: اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر؛ أي أنت مطيع له. وقال بعضهم: يا عجباً لمن يعصي المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع

---

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى: كان الشيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلاً ولمالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلاً ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى ابن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له: كيف صنع رسول الله ﷺ ليلة كادته الشياطين؟ فذكر نحوه.

(٢) حديث الحسن: نبئت أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلاً.

(٣) حديث «أتاني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلاً هكذا وللبخاري من حديث أبي هريرة «أن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه... الحديث» والنسائي في الكبرى من حديث عائشة: كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه نصرعه فخنقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدي... الحديث» وإسناده جيد.

(٤) حديث «ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجاً غير فجه» متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ «يا ابن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً... الحديث»

(٥) الحديث الوارد بأن الذكر يا عمر يطرد الشيطان. تقدم.

اللعين بعد معرفته بطغيانه. وكما أن الله تعالى قال: ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء.

قيل لابراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى: ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾؟ قال: لأن قلوبكم ميتة، قيل وما الذي أماتها؟ قال: ثمان خصال؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده، وقلتم نحب رسول الله ﷺ ولم تعملوا بسنته، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له، وقال تعالى: ﴿ إن الشيطان لكم عدوّا فاتخذوه عدوّا ﴾ فواطأتموه على المعاصي، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم، فكيف يستجيب لكم؟.

فإن قلت فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدوّ ولا تسأل عن صفته. كل البقل من حيث يـؤتـى ولا تسأل عن المبقلة، ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار: أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطاناً يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار فقد قال مجاهد: لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره: ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزلنبور. فأما ثبر: فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية. وأما الأعور: فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه. وأما مبسوط: فهو صاحب الكذب. وأما داسم: فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم وأما زلنبور: فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلمين. وشيطان الصلاة يسمى خنزب[1] وشيطان الوضوء يسمى الولهان[2] وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة.

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة. وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل به، وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله ﷺ «كل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك؛ للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم رأيتموه على كل سهل و جبل كلٌ باسط يده فاغرفاه، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين[3]».

وقال أيوب بن يونس بن يزيد: بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشؤون معهم. وروى جابر ابن عبد الله: آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال يا رب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تعني عليه لا أقوى عليه، قال: لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك، قال: يا رب زدني، قال: أجزى بالسيئة سيئة بالحسنة عشراً إلى ما أريد، قال: رب زدني، قال؛ باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد الروح، قال إبليس: يا رب هذا العبد الذي كرمته علي إن لا تعني عليه لا أقوى عليه؟ قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد: قال: يا رب زدني، قال: تجري منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتاً، قال: رب زدني، قال:

---

(١) حديث «إن شيطان الصلاة يسمى خنزب» أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث.

(٢) حديث «إن الشيطان الوضوء يسمى الولهان» تقدم وهو عند الترمذي من حديث أبي

(٣) حديث أبي أمامه «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف.

أجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غروراً، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف عليهم الثواب والعقاب. وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم كما قال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله[1]» وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن إبليس تمثل ليحي بن زكريا عليهما السلام وقال: إني أريد أن أنصحك، قال: لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بني آدم قال: هم عندنا ثلاثة أصناف: أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع إلى الإستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء. وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم. وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء.

فإن قلت: فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين؟ فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوّة، فما رأى النبي ﷺ جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين[2] وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالباً[3] فكان يراه في صورة دحية الكلبي[4] وكان رجلاً حسن الوجه. والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين. وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس. ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها، وكانت الجيفة مثال الدنيا. وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية، فإن القلب لا بدّ وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر. وقد بينا أن القلب له وجهان: وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام

---

(١) حديث أبي الدرداء «خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصراً: في الجن فقط ثلاثة أصناف. من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال صحيح الإسناد.

(٢) حديث: أنه ﷺ ما رأى جبريل في صورته إلا مرتين أخرجه الشيخان من حديث عائشة: وسئلت هل رأى محمد ربه؟ وفيه: ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

(٣) حديث: أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالباً أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئلت: فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث...

(٤) حديث: أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد: أن جبريل أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي ﷺ لأم سلمة «من هذا؟» قالت: دحية... الحديث.

والوحي، ووجه إلى عالم الشهادة. فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن تكون الصورة على وفق المعنى، حتى يرى شخصاً جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس. أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها، لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة، فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها، ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها الصدق، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير. وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة. وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم، وتارة بطريق الحقيقة. والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى - هو مثال المعنى لا عين المعنى - إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم.

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسرة العلماء بالشرع. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال «عفي عن أمتي ما حدّثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به[1]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى يقول للحفظة: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً[2]» وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة. وفي لفظ آخر «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت» وفي لفظ آخر، «وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها» وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يغفى عنه وقوله تعالى ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقوله تعالى ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

فنقول. أوّل ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلاً صورة إمرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها. (والثاني) هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس. (والثالث) حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مل لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من

---

(١) حديث «عفى لأمتي عما حدثت به نفوسها» متفق عليه من حديث أبي هريرة «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به انفسها... الحديث».

(٢) حديث أبي هريرة «يقول الله إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه... الحديث» قال المصنف أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه في الذكر.

الإلتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل، ويسمى هذا اعتقاداً وهو يتبع الخاطر والميل. (الرابع) تصميم العز على الإلتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصداً، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر وهو حديث النفس، ثم الميل، ثم الإعتقاد، ثم الهم. فنقول: أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الإختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضاً تحت الإختيار، وهما المرادان بقوله ﷺ «عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها» فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روي عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي ﷺ؛ يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة، قال: «مهلاً إن من سنتي النكاح» قال: نفسي تحدثني أن أجب نفسي، قال: « مهلاً خصاء أمتي دؤب الصيام» قال: نفسي تحدثني أن أترهب، قال: «مهلاً رهبانية أمتي الجهاد والحج» قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال: مهلاً فإني أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه[1]» فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله ﷺ إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل.

وأما الثالث: وهو الإعتقاد وحكم القلب أنه ينبغي أن يفعل فهذا ترددين أن يكون اضطراراً أو اختياراً، والأحوال تختلف فيه فالاختياري منه يؤاخذ به والإضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع وهو الهم بالفعل؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والإمتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوّة عظيمة فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشدّ من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لأنه رجح جدّه في الإمتناع وهمه به على همه بالفعل، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفاً من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفصلاً في لفظ الحديث قال رسول الله ﷺ «قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّائي[2]» وحيث قال: فإن لم يعملها: أراد به تركها لله،

---

(١) حديث: إن عثمان بن مطعون قال يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال «مهلاً إن من سنتي النكاح... الحديث» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلاً نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وللدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله ﷺ فقال: «يا عثمان إني لم أومر بالرهبانية... الحديث» وفيه «من رغب عن سنتي فليس مني» وهو عندكم بلفظ: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا. وللبغوي والطبراني في معجمي الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون: أنه قال يا رسول الله إني رجل تشق عليّ هذه العزوبة في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء فأختصي قال: «لا، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة» ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو «خصاء أمتي الصيام والقيام» وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف: إن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله إئذن لي في الإختصاء، فقال له رسول الله ﷺ «إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف... الحديث» وابن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة «النكاح من سنتي» ولأحمد وأبي يعلي من حديث أنس «لكل نبي» وقال أبو يعلي «لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة «إن سياحة أمتي بالجهاد في سبيل الله» وإسناده جيد.

(٢) حديث: قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر... الحديث. قال المصنف إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة.

فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة؟ وقد قال ﷺ «إنما يحشر الناس على نياتهم[1]» ونحن نعلم أن من عزم ليلاً على أن يصبح ليقتل مسلماً أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة مات مصراً ويحشر على نيته وقدهم بسيئة ولم يعملها.

والدليل القاطع فيه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال«لأنه أراد قتل صاحبه[2]» وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوماً فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم؟ بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة. وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ وقالوا: كلفنا ما لا نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال ﷺ: «لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولو اسمعنا وأطعنا فقالوا اسمعنا وأطعنا[3]» فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به. فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الإلتباس. وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً؟ أي ما يدخل تحت الإختيار. فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذاً به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل. قال رسول الله ﷺ «التقوى ههنا وأشار إلى القلب[4]» وقال الله تعالى ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ وقال ﷺ «الإثم حواز القلوب[5]» وقال «البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك[6]» حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفتي بإيجاب شيء وكان مخطئاً فيه صار مثاباً عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي، فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله. فإن تذكر ثم تركه كان معاقباً عليه. ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية. فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته. وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح.

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟

أعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق:

---

(١) حديث «إنما يحشر الناس في نياتهم» أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله «إنما» وله من حديث أبي هريرة «إنما يبعث الناس على نياتهم» وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة «يبعثهم الله على نياتهم» وله من حديث أم سلمة «يبعثون على نياتهم».

(٢) حديث: «إذا التقى بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» الحديث متفق عليه من حديث أبي بكرة.

(٣) حديث: لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا كلفنا ما لا نطيق. . . الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه

(٤) حديث «التقوى ههنا ـ وأشار إلى القلب» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال ـ إلى صدره ـ.

(٥) حديث «الإثم حواز القلوب» تقدم في العلم.

(٦) حديث «البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك» أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفية «وإن أفتاك الناس وأفتوك» وقد تقدما.

فقالت فرقة: الوسوسة تنقطع بذكر الله عزّ وجلّ لأنه عليه السلام قال: «فإذا ذكر الله خنس[1]» والخنس هو السكوت فكأنه يسكت.

وقالت فرقة: لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعباً بالذكر كان محجوباً عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه.

وقالت فرقة: لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضاً ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف.

وقالت فرقة: ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظة، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا.

وقالت فرقة: الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقاً لا ينقطع، وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال ﷺ «ما من عبد إلا وله أربعة أعين: عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه[2]» وإلى هذا ذهب المحاسبي. والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه.

والوسواس أصناف؛ الأوّل: أن يكون من جهة التلبيس بالحق، فإنّ الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التنعم باللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه: الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشدّ منه، ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدّد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب، إذ لا يستطيع أن يقول هل النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضي إلى النار، فإنّ إيمانه بكتاب الله عزّ وجلّ يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه. وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول: أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى! فيتذكر العبد حينئذٍ أنّ معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به؟ فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله فإن المعرفة والإيمان يدفعه. فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة.

الصنف الثاني. أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها، وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقيناً أنه معصية وإلى ما يظنه بغالب الظن. فإن علمه يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنوناً، فربما يبقى مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة.

الصنف الثالث: أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكر في غير الصلاة مثلاً

---

(١) حديث «وإذا ذكر الله خنس» أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم. . . الحديث» وقد تقدم قريباً.

(٢) حديث «ما من عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ «الآخرة» مكان «دينه» وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروي السماخي الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه.

«فإذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة و يعود، ويندفع ويعود، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصوّر أن يتساوقا جميعاً حتى يكون الفهم مشتملاً على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب. وبعيد جدّاً أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر، ولكنه ليس محالاً إذا قال عليه السلام «من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من أمر الدنيا غفر له ما تقدّم من ذنبه[1]» فلولا أنه متصوّر لما ذكره، إلا أنه لا يتصوّر ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدوّ تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوّه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوّه، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه، ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لا يراه. وأذا تصوّر هذا في خوف من عدوّ وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصوّر من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الأخر، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أنّ لكل مذهب من المذاهب وجهاً في محل مخصوص.

وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمراً طويلاً بعيد جداً، ومحال في الوجودولو تخلص من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله ﷺ. فقد روى: أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمي بذلك الثوب وقال «شغلني عن الصلاة» وقال «اذهبوا به إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته[2]» وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به قال «نظرة إليه ونظرة إليكم[3]» وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب ـ وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به ـ فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا الرمي والمفارقة، فما دام يملك شيئاً وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره، أنه كيف يحفظه؟ وفيماذا ينفقه؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به؟ إلى غير ذلك من الوساوس. فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انعمس في العسل وظن أنّ الذباب لا يقع عليه فهو محال. فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان. وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة. قال حكيم من الحكماء: الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن أبي أمره بالتحرّج والشدّة حتى يحرم ما ليس بحرام، فإن أبي شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم، فإن أبي خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهما إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه، وعند ذلك يشتدّ إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لوجاوزها أفلت منه إلى الجنة.

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثياب

أعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته. فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره: وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره. فتارة يكون متنازعاً بين ملكين، وتارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان ـ لا يكون قط مهملاً ـ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ونقلب

(١) حديث «من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا. . .» تقدم في الصلاة.

(٢) حديث: أنه ﷺ نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة. . . الحديث. تقدم.

(٣) حديث: كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال «نظرة إليكم» أخرجه النسائي من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة.

أفئدتهم وأبصارهم ﴾ ولإطلاع رسول الله ﷺ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول «لا ومقلب القلوب[1]» وكان كثيراً ما يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا أو تخاف يا رسول الله؟ قال «وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء[2]» وفي لفظ آخر «إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه».

وضرب له ﷺ ثلاثة أمثلة: فقال: «مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة[3]» وقال عليه السلام: «مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا[4]» وقال «مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن[5]» وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في تقلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى.

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردّد بينها، ثلاثة: قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستنيراً بضياء العقل معموراً بأنوار المعرفة فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً، فعند ذلك يمدّه بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام، ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفي على هذا النور خافية ولا يروح عليه شيء من مكايد الشيطان، بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات ـ التي سنذكرها ـ من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك. وهو القلب الذي أقبل الله عزّ وجلّ بوجهه عليه، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ وبقوله عزّ وجلّ ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾.

القلب الثاني: القلب المخذول المشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة. ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى، فتستولي النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته. فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار

---

(١) حديث «لا ومقلب القلوب» أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

(٢) حديث «يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك. . .» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله ابن عمرو «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم من حديث النواس بن سمعان «ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» والنسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة.

(٣) حديث «مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة» أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح. قلت رواه البغوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال لا أدري له صحبة أم لا.

(٤) حديث «مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً» أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث المقداد بن الأسود.

(٥) حديث «مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة. . . الحديث» أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن وللبراز نحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف.

الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفىء أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والإستبصار، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمى عن الفهم، وصم عن السمع، وهاجت الشهوة فيه، وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره. وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى ﴿أرأيت من اتخذ إلاهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ وبقوله عزّ وجلّ ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ وبقوله ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتورّع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر، ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفىء منه أنواره فينطفىء نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى في تحصيل مراد الشيطان.

القلب الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر وقلة أكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة عل العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ما هذا التحرّج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروماً شقياً متعوباً يضحك عليك أهل الزمان؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شراً لامتنع منه؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه؛ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم وأتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أنّ عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك؟ أرأيت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفاً من حر الشمس ولا تخالفهم خوفاً من حرّ النار؟ فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضاً عن حزب الله تعالى وأوليائه، ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه، وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن - أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب - أعني التقليب والإنتقال من حزب إلى حزب، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب

إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت، وهي أيضاً إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب سابق القضاء. فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان، فإنه بأنواع الحكم يغري الحمقى بقوله: إنّ الله رحيم فلا تبال، وإنّ الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم، وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غداً ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرور ﴾ يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء - إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه. خلق الجنة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة، وخلق النار وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعاصي. وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ﴿ إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجار لفي جحيم ﴾ ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه ﷺ «هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي[1]» فتعالى الله الملك الحق لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر ولا يجتزىء بالقشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب. وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق.

تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة. ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبدٍ مصطفى.

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب
وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره، وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره، وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره، وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره، الذي كان يلوح أنوار النبوّة من بين أساريره، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمه الكفر ودياجيره، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد: فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين. والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي

---

(1) حديث «قال الله عزّ وجل هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب أنه مضطرب الإسناد.

الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوّت حياة الأبد، واين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وإهمالها هو المراد بقوله ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها. ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالاً له ليقرب من الأفهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق، ثم بيان حقيقة حسن الخلق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة، ثم بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق، ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير، ثم بيان علامات حسن الخلق، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشو، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهي أحد عشر فصلاً يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن[١] وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ثم قال ﷺ «هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو من ظلمك[٢]» وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[٣]» وقال: ﷺ: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق[٤]» وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «حسن الخلق» فأتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «حسن الخلق» ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: «حسن الخلق» ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: «أما تفقه؟ هو أن لا تغضب[٥]» وقيل يا رسول الله ما الشؤم؟ قال: «سوء الخلق»[٦] وقال رجل لرسول الله ﷺ؛ أوصني فقال «إتق الله حيثما كنت» قال زدني قال: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» قال زدني قال: «خالق الناس بخلق

---

(١) حديث عائشة: كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم.

(٢) حديث «تأويل قوله تعالى ﴿خذ العفو﴾ الآية هو أن تصل من قطعك... الحديث» أخرجه ابن مردوية من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان.

(٣) حديث «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصحبة.

(٤) حديث «أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء.

(١) حديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ من بين يديه فقال: ما الدين؟ قال: «حسن الخلق... الحديث» أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلاً.

(٢) حديث: ما الشؤم؟ قال: «سوء الخلق» أخرجه أحمد من حديث عائشة «الشؤم سوء الخلق» ولأبي داود من حديث رافع بن مكيث «سوء الخلق شؤم» وكلاهما لا يصح.

حسن[1]» وسئل عليه السلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: «خلق حسن» وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار[2]» وقال الفضيل قيل لرسول الله ﷺ؛ إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال: «لا خير فيها هي من أهل النار» وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قوّني فقواه بحسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوّني فقوّاه بالبخل وسوء الخلق[3]» وقال ﷺ: «إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما[4]» وقال عليه السلام؛ «حسن الخلق خلق الله الأعظم[5]» وقيل: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «أحسنهم خلق[6]» وقال ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق[7]» وقال أيضاً ﷺ: «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل [8]» وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك[9]» وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً[10] وعن أبي مسعود البدري قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: ﴿ اللهم حسنت خلقي فحسن خلقي[11] ﴾ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء فيقول: ﴿ اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق[12]﴾وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ.قال: «كرم المؤمن دينه، وحسبه حسن خلقه، ومروءته عقله[13]» وعن أسامة بن شريك قال: شهدت الأعاريب يسألون النبي ﷺ يقولون ما خير ما أعطي العبد؟ قال: «خلق حسن[14]» وقال ﷺ: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً[15]» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من لم تكن فـيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكفُّ به السفيه أو

---

(١) حديث: قال رجل أوصني. قال: «اتق الله حيثما كنت... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح.
(٢) حديث: «ما حسن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه النار» تقدم في آداب الصحبة.
(٣) حديث أبي الدرداء «أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق... الحديث» لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود والترمذي من حديث أبي الدرداء «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق» وقال غريب وقال في بعض طرقه حسن صحيح.
(٤) حديث: «إن الله استخلص هذا الدين لنفسه... الحديث» أخرجه الدارقطني في كتاب المستجاد، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لينّ.
(٥) حديث: «حسن الخلق خلق الله الأعظم» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف.
(٦) حديث: قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضلهم إيماناً؟ قال: «أحسنهم خلقاً» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ «أكمل المؤمنين» والطبراني من حديث أبي أمامة «أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً».
(٧) حديث: «إنكم لن تعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق» أخرجه النزار وأبو يعلي والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات.
العمل كما يفسد الخل العسل» أخرجه ابن حيان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضعفهما ابن جرير.
(٩) حديث: «إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك» أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب وفيه ضعف.
(١٠) حديث البراء: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن.
(١١) حديث أبي مسعود البدري «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله، هكذا رواه ابن حيان في صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة.
(١٢) أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين.
(١٣) حديث أبي هريرة أخرجه ابن حيان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقي. قلت فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه. قال البيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفاً على عمر وقال إسناد صحيح.
(١٤) حديث أسامة بن شريك: شهدت الأعاريب يسألون رسول الله ﷺ ما خير ما أعطى العبد؟ قال «خلق حسن» أخرجه ابن ماجه وتقدم في آداب الصحبة.
(١٥) حديث: «إن أحبكم أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة «إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً» وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر «إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً» وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة.

خلق يعيش به بين الناس[1]» وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة ﴿ اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت[2] ﴾ وقال أنس: بينما نحن مع رسول الله ﷺ يوماً إذ قال: «إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد[3]» وقال عليه السلام: «من سعادة المرء حسن الخلق[4]» وقال ﷺ: «اليمن حسن الخلق[5]» وقال عليه السلام لأبي ذرّ: «يا أبا ذرّ لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق[6]» وعن أنس قال: قالت أم حبيبة لرسول الله ﷺ: أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون؟ قال: «لأحسنهما خلقاً كان عندها في الدنيا، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة[7]» وقال ﷺ: «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته[8]» وفي رواية «درجة الظمآن في الهواجر» وقال عبد الرحمن بن سمرة: كنا عند النبي ﷺ فقال: «إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى[9]» وقال أنس: قال النبي ﷺ: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة[10]» وروي: أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي ﷺ وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك فقال عمر رضي الله عنه: مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال: «عجبت لهؤلاء اللاتي كنّ عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب» فقال عمر: أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوّات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «إيهاً يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك[11]» وقال ﷺ: «سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح[12]» وقال عليه السلام: «إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم[13]».

الآثار: قال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت أي الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين، قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال. قال: فإذا كانت ثلاثا؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإذا كانت أربعاً؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمساً؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق

---

(1) حديث ابن عباس «ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله... الحديث» أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة.

(2) حديث «اللهم أهدني لأحسن الأخلاق... الحديث» أخرجه مسلم من حديث علي.

(3) حديث أنس: إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد» أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف ورواه الطبراني والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضاً.

(4) حديث «من سعادة المرء حسن الخلق» أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف.

(5) حديث «اليمن حسن الخلق» أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف.

(6) حديث «يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق» أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر.

(7) حديث أنس: قالت أم حبيبة يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرايطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف.

(8) حديث «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه... الحديث» أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة.

(9) حديث عبد الرحمن بن سمرة «إني رأيت البارحة عجباً... الحديث» أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

(10) حديث «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة... الحديث» أخرجه الطبراني والخرايطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد.

(11) حديث: إن عمر استأذن على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه... الحديث. متفق عليه.

(12) حديث «سوء الخلق ذنب لا يغفر... الحديث». أخرجه الطبراني في الصغير من حديث عائشة: ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه. وإسناد ضعيف.

(13) حديث: إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل «درك جهنم» أخرجه الطبراني والخرايطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بحديثين.

والسخاء، قال: فإذا كانت ستاً؟ قال: يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي ولله ولي ومن الشيطان بري، وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد. وقال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وقال وهب ابن منبه: مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طيناً. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبني عابد سيء الخلق. وصحب ابن المبارك رجلاً سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخلقه معه لم يفارقه، وقال الجنيد: أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال الكناني التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. وقال عمر رضي الله عنه: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وقال يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات. وسئل ابن عباس: ما الكرم؟ فقال: هو ما بين الله في كتابه العزيز ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ قيل فما الحسب؟ قال: أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً. وقال: لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق. وقال عطاء ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كما له إلا المصطفى ﷺ، فأقرب الخلق إلى الله عزّ وجلّ السالكون آثاره بحسن الخلق.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

أعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والإستيعاب، وذلك كقول الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى. وقال الواسطي: هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدّة معرفته بالله تعالى. وقال شاه الكرماني: هو كف الأذى واحتمال المؤن. وقال بعضهم: هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً. وقال الواسطي مرة: هو إرضاء الخلق في السراء والضراء. وقال أبو عثمان: هو الرضا عن الله تعالى. وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: أدناه الإحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والإستغفار له والشفقة عليه، وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس. وقال علّي رضي الله عنه. حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال. وقال الحسين بن منصور: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق. وقال أبو سعيد الخراز: هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى: فهذا وأمثاله كثير، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه، ثم ليس هو محيطاً بجميع الثمرات أيضاً. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة.

فنقول: الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخلق والخلق - أي حسن الباطن والظاهر - فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركب من جيد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة. ولكل واحد منها هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر. ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى ﴿أني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها

الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً. وإنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم.

فههنا أربعة أمور؛ أحدها: فعل الجميل والقبيح. والثاني: القدرة عليهما. والثالث: المعرفة بهما. والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين؛ إما الحسن وإما القبيح.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوّة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدّين واحد. وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة. وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق. فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو؛ قوّة العلم، وقوّة الغضب وقوّة الشهوة، وقوّة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوّة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الإعتقادات، بين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة ـ وهي التي قال الله فيها ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾.

وأما قوّة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمة؛ وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوّة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

فالعقل مثاله مثال الناصح المشير. وقوّة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل. والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروّضاً مؤدباً وتارة يكون جموحاً. فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض. وحسن القوّة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة. وحسن قوّة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة.

فإن مالت قوّة الغضب عن الإعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبناً وخوراً. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمى جموداً.

والمحمود هو الوسط وهو الفضلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفاً زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الإستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة، ويسمى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الإختيارية. ونعني بالعدل حالة للنفس وقوّة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها في الإسترسال والإنقباض على حسب مقتضاها. ونعني بالشجاعة كون قوّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها. ونعني بالعفة تأدّب قوّة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها.

إذ من اعتدال قوّة العقل: يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها: تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء. ومن تفريطها؛ يصدر البله والغمارة والحمق والجنون ـ وأعني بالغمارة قلة التجربة في الامور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء. والفرق بني الحمق والجنون: أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً.

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والإحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها وهو التهوّر: فيصدر منه الصلف والبذخ والإستشاطة والتكبر والعجب. وأما تفريطها: فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والإنقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة: فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقله الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرض والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة: وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمال الإعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال. ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد، فينبغي أن يبعد، كما أن الأوّل قريب من الملك المقرّب فينبغي أن يقتدي به ويتقرّب إليه فإن رسول الله ﷺ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال[1].

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

---

(١) حديث «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» تقدم في آداب الصحبة.

ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوّة اليقين وهو ثمرة العقل. ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة. والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوّة الغضب على شرط العقل وحدّ الإعتدال. فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى أن للشدّة موضعاً وللرحمة موضعاً، فليس الكمال في الشدّة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال. فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

أعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والإشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصوّر تغييرها فإن الطباع لا تتغير.

واستدل فيه بأمرين؛ أحدهما: ان الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر. فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى. والثاني: أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب. وقد جرّبنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة. فإن المطلوب هو قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: «حسنوا أخلاقكم[1]» وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الإستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والإنقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمى واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وسائر أجزاء الحيوانات. وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فأن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالإختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعها وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستها وقودهما بالرياضةوالمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى. نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان.

أحدهما: قوة الغريزةفي أصل الجبلة وامتداد مدّة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجوداً، إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

---

(١) حديث «حسنوا أخلاقكم» أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ «يا معاذ حسن خلقك للناس» منقطع ورجاله ثقات

والسبب الثاني: أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً والناس فيه على أربع مراتب؛ ﴿ الأولى ﴾ وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الإعتقادات ولم تستتم شهوته أيضاً باتباع اللذات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان: ﴿ والثانية ﴾ أن يكون قد عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعوّد العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أوّلاً من كثرة الإعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الإعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم: ﴿ والثالثة ﴾ أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال. ﴿ والرابعة ﴾ أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلال النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب. وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب. والأول: من هؤلاء جاهل فقط. والثاني: جاهل وضال والثالث: جاهل وضال وفاسق. والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير.

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به: وهو قولهم إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الإعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهوّر وعن الجبن جميعاً. وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال ﷺ: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر[1]». وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق[2] وقال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حدّ الإعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الإنبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿ والذين

---

(١) حديث «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر» أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة «إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر».

(٢) حديث: أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان الغضب لا يخرجه عن الحق» أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال: لأن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ولهما من حديث أبي سعيد الخدري: وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه. ولهما من حديث عائشة: وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسلم: ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه... الحديث.

إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ وقال تعالى؛ ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الإعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى؛ ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وقال في الغضب: ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال ﷺ: «خير الأمور أوساطها[1]» وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى؛ ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليمًا منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن التهوّر. والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأساً، ويذم إمساك المال رأساً، ولا يرخص له في شيء لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذراً في استبقاء بخله وغضبه وظن أنه القدر المرخص فيه. فإذا قصد الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سورته بحيث يعود إلى الإعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود. فلا يكشف هذا السر للمريد فإنه موضع غرور الحمقى إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق.

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوّة العقل وكمال الحكمة. وإلى اعتدال قوّة الغضب والشهوة، و كونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً. وهذا الإعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما؛ بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالماً بغير ومؤدباً بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالإكتساب فرب صبي خلق صادق اللهجة سخياً جرياً، وربما يخلق بخلافه، فيحصل ذلك فيه بالإعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلم.

والوجه الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً فالسخى هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس، ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم

(١) حديث «خير الأمور أوساطها» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا.

تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة[١]» ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به. نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وقال ﷺ: «أعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير[٢]» ثم لا يكن في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر. وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل ﷺ عن السعادة فقال: «طول العمر في طاعة الله تعالى[٣]» ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة. وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات. وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عزّ وجلّ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملها إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين. ومصير العبادات لذيذة فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك؛ فإننا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة. وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحسُّ بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوّته في الصبر على ذلك، حتى يرى ذلك فخراً لنفسه، ويقطع الواحد منهم إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالاً وشجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره، بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالإناث في نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنثه يتباهى به مع المخنثين، حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء. فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف. فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضي طبع القلب فإنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عزّ وجلّ ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه

(١) حديث «وجعلت قرة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي من حديث أنس وقد تقدم.
(٢) حديث «أعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» أخرجه الطبراني.
(٣) حديث: سئل عن السعادة فقال «طول العمر في عبادة الله» رواه القضاعي في مسند الشهاب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف وللترمذي من حديث أبي بكرة وصححه: أي الناس خير؟ قال «من طال عمره وحسن عمله».

معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض.

فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن أكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعني النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قدر يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور، ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية - حتى يصير كاتباً بالطبع - فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق يواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الإبتداء تكلفاً، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع.

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس. وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليمًا متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له، فلا علاج له إلا ذلك وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم. وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها، ثم تتداعى قليلاً قليلاً حتى تأنس النفس بالكسل وتجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه. وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة. وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدريج - مثل نمو البدن وارتفاع القامة - فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال، ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي، فله ثواب لا محالة. فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية. وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه. فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها. وهو المعني بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ الآية ولذلك قال رضي الله تعالى عنه: «إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل العبد الإيمان أبيض القلب كله. وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كله.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الافعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً. فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلمًا فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عزّ وجلّ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره - وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الإعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الإعتدال سقم ومرض فيها. كما أن الإعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الإعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالاً. فنقول:

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الإعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ـ أي بالإعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ـ وكما أن البدن في الإبتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشؤ والتربية بالغذاء؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوّة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهي تلكفاً. وكما أنه لا بد من الإحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد. وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ـ ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ـ فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها.

فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته. فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمعصية فيأمره أولاً بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه: فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونه والكبر وعزّة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال، فإن عزّة النفس والرياسه لا تنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعزّ نفسه، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة، وإن أرى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرحاً به ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة. فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات

النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعد الإنسان نفسه أو يعبد صنماً فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله، ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطاهراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه.

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة؛ فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البون بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم. كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاه أخف منه، وكذلك سائر الصفات. وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهيء الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعوَّد الصبر وينكسر شرهه. وكذلك إذا رآه شاباً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء. ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته... فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع. وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق، ويلزمه خدمة من سآء خلقه حتى يمرن نفسه على الإحتمال معه.

كما حكي عن بعضهم أنه كان يعوّد نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل. وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج. وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة. وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طموع. وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر؛ إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة بالجود والرياء والبذل.

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب. وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض - فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب - وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى: ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً. فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه - كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة - وإذا لم يخوّف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية.

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

أعلم أنّ كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الإضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش. ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار. وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه

والإستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة. وخاصية النفس التي للآدمي، ما يتميز بها عن البهائم، فإنه لم يتميز عنها بالقوّة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه. وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عزّ وجلّ الذي جعلها أشياء. فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عزّ وجلّ فكأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم ﴾ إلى قوله: ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، كما أنّ كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة. فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أنّ القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أنّ من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه. وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دون مخالفة الشهوات وهو نزع الروح. فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه. فلهذا صارالداء عضالاً والمرض مزمناً واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها، وأقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات. فهذه علامات أصول الأمراض.

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عزّ وجلّ وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذراً فيكون التبذير أيضاً داء، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء، بل المطلوب الإعتدال بين الحرارة والبرودة. وكذلك المطلوب الإعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين، إن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عنك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الإلتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجح عندك كالبذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليمًا عن هذا المقام خاصة. ويجب أن يكون سليمًا عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحدّ من السيف فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم - أعني الوسط - حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقاً بالجانب الذي مال إليه ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتيار على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى: ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضياً. ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه. ولأجل عسر الإستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله: ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

فقد روي أنّ بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال: قد قلت يا رسول الله شيبتني هود، فلم قلت ذلك؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ فالإستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الإستقامة إن لم يقدر على حقيقتها. فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليعدّدها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب. فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

أعلم أنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيـوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته. وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه. وهذا قد عزّ في الزمان وجوده.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله أمرأ أهدى إلي عيوبي. وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفى فألح عليه فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل، قال: وهل بلغك غير هذا؟ قال: لا، فقال: أما هذان فقد كفيتهما. وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى علي شيئاً من آثار النفاق؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه!

فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، إلا أن هذا أيضاً قد عزّ فقل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب. فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك.

ولهذا كان داودالطائي قد اعتزل الناس فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟ فكانت شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أنّ أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان فإنّ الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوماً فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبداً وآلافاً من السنين. ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له: وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الإنتفاع بنصحه، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب. وأصل كل ذلك ضعف الإيمان. فنسأل الله عزّ وجلّ أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا. ولعل

انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدوّ وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بدّ وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع: أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى. فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته. وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشتغلاً بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لهم، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده.

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

أعلم أن ماذكرناه إن تأملته بعين الإعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد، فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فمن صدّق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عزّ وجلّ ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى.

والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر. قال الله تعالى: ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى ﴾ وقال تعالى: ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قيل نزع منها محبة الشهوات. وقال ﷺ «المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه[1]» فبين أن النفس عدوّ منازع يجب عليه مجاهدتها.

ويروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة. وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد «مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: «جهاد النفس[2]» وقال ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجلّ[3]» وقال ﷺ: «كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذن تخاصمك

---

(١) حديث «المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده ومنافق يبغضه... الحديث» أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث «مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أخرجه البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح عجائب القلب

(٣) حديث «المجاهد من جاهد نفسه» أخرجه الترمذي في أثناء حديث وصححه ابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد.

يوم القيامة فيلعن بعضك بعضاً إلا أن يغفر الله تعالى ويستر[1]» وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد علي من نفسي مرة لي ومرة عليّ وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأني بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين! وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة. والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى، البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والإنتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان وكالملك المتنزه في البستان. وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

قال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها؛ محصوراً في سجن هواها، مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد. وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم. وقال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات. وقال وهيب بن الورد: ما زاد على الخبز فهو شهوة. وقال أيضاً: من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل.

ويروي أن أمرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام ـ بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابيه الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثنى عشر ألفاً من عظماء مملكته ـ سبحان من جعل الملوك عبيد بالمعصية وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له. إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً. فقال يوسف ـ كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

وقال الجنيد: أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أطق الجلوس، فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال: يا أبا القاسم إلى الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ قال: بلى سألت الله عزّ وجلّ أن يحرك لي قلبك فقلت: قد فعل فما حاجتك؟ قال: فمتى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها، فأقبل على نفسه فقال: إسمعي فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيدها قد سمعتيه، ثم انصرف وما عرفته وقال يزيد الرقاشي: إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت، قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال علي رضي الله عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا. وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: إصبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي.

---

(١) حديث «كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله. . . الحديث» لم أجده بهذا السياق.

فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب. وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه. وحاصل الرياضة وسرها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فيكون مقتصراً من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له في الآخرة بحال، ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع إليه، ولا قوّة على ذلك إلا بالله، ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط. فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة:

رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين. ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة.

الثاني: رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس، حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين.

والثالث: رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه.

والرابع: رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه. اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ.

وربما يقول القائل إن التنعم بالمباح مباح فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عزّ وجلّ؟ وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة. والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو سبب البعد ـ وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا ـ وقد قال إبراهيم الخواص كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رمانا فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها، فرأيت رجلاً مطروحاً وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، فقلت: كيف عرفتني؟ فقال: من عرف الله عزّ وجلّ لم يخف عليه شيء فقلت: أرى لك حالاً مع الله عزّ وجلّ فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير؟ فقال: وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلوسألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا، فتركته ومضيت. وقال السري: أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعتها.

فإذن لا يمكن اصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة. ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل، وكذلك سائر الشهوات، لأن الذي يشتهي به الحلال هو بعينهٰ الذي يشتهي الحرام، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعوّدها الإقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته. فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه،وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره. وذلك الفرح بالدنيا سم

قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب. قال الله تعالى: ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى: ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ وقال تعالى: ﴿ أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة.

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر. فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر، ففطموها عن ملاذها وعوّدوها الصبر عن شهواتها ـ حلالها وحرامها ـ وعلموا أن حلالها وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب، فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب. فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عزّ وجلّ والإشتغال بطاعته. وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والإستيحاش إلى الإنقياد والتأديب؛ فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جوّ الهواء، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الإسترسال، ثم يرفق. باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه. فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أوّلاً ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثم عودت الثناء والذكر والدعاء ثانياً في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عزّ وجلّ عوضاً عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية، كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلاً عن اللبن، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوم ا فيوماً وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفاً، ثم يصير له طبعاً. فلو رد بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه، فيهجر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام. وكذلك الدابة في الإبتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً، وتمنع عن السرج الذي ألفته بالسلاسل والقيود أولاً، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد. فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب، وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت، إذ قيل له أحبب ما أحببت فإنك مفارقه. فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه. وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أياماً قلائل فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة. وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهراً ليتنعم به سنة أو دهراً. وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا. فلا بد من الصبر والمجاهدة. فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى كما قاله علي رضي الله عنه.

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله. والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعزّ في القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة فينبغي أن يترك أوّلاً ما به فرحه، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها، وذلك مهلك في حقه. ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه. وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر، فإن لكل وسوسة سبباً ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة. وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت.

بيان علامات حسن الخلق

أعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق. فإن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق. وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق. فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون الذي هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ وقال عزّ وجلّ؛ ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلى قوله: ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وقال عزّ وجلّ: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ وقال تعالى: ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ إلى آخر السورة. من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1]» وقال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه[2]» وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره[3]» وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت[4]» وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً[5]» وقال ﷺ: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة[6]» قال: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن[7]» وقال: «لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه[8]» وقال عليه السلام: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً[9]» وقال ﷺ: «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عزّ وجلّ فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه[10]».

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً رضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً، لا لعاناً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً ولا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً يحب في الله ويبغض في الله ويرضي في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق.

وسئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق فقال: «إن المؤمن همته في الصلاة والصيام والعبادة، والمنافق همته في الطعام والشراب كالبهيمة[11]» وقال حاتم الأصم: المؤمن مشغول بالفكر والعبر، والمنافق

---

(١) حديث «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه» أخرجه الشيخان من حديث أنس «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

(٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة.

(٣) حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله.

(٤) حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه أيضاً من حديثهما وهو بعض الذي قبله.

(٥) حديث «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» تقدم غير مرة.

(٦) حديث «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ «إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق

(٧) حديث «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة.

(٨) حديث «لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه» أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلاً وقد تقدم.

(٩) حديث «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» أخرجه الطبراني والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث عمر وإسناده ضعيف.

(١٠) حديث «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله... الحديث» تقدم في آداب الصحبة.

(١١) حديث: سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال: «إن المؤمن همه في الصلاة والصيام... الحديث» لم أجد له أصلاً

مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله، والمنافق راج كل أحد إلا الله، والمؤمن آمن من كل أحد لا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة، والمنافق يحب الخلطة والملأ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد «والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد.

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى فقد روى أن رسول الله ﷺ كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية، قال أنس رضي الله عنه: حتى نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البرد من شدّة جذبه، فقال: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر بإعطائه[1] ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه قال؛ «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[2]» قيل إنّ هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ويحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فقال الجندي: إنما أردت العمران؟ فقال: هو المقبرة، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا، هذا إبراهيم بن أدهم! فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعلّ يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لم قلت له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني: عبد من أنت بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأني عبد الله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أنني أوجر على ما نالني منه فلم أرد يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر. ودعى أبو عثمان الحيرى إلى دعوة ـ وكان الداعي قد أراد تجربته ـ فلما بلغ منزلّه قال له: ليس لي وجه، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ إرجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: إرجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك! فقال: إنّ الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا زجر انزجر. وروي عنه أيضاً أنه اجتاز يوم في سكة فطرحت عليه اجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً فقيل ألا زبرتهم فقال إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب وروي أنّ علي ابن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل إلى السواد ـ إذ كانت أمه سوداء ـ وكان نيسابور حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي. فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومضى في بعض حوائجه، فتقدّم رجل رستاقي إلى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام. فقال له: قم واحمل إلي الماء فقام علي بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به، فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاقي وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما، فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب قال: لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء. وروي أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطة فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يخبره بذلك

---

(١) حديث: كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية... الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

(٢) حديث «اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل ابن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه ﷺ عن نبي من الأنبياء ضربه قومه.

ولا يردّها عليه، فاتفق يوماً أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسي فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطة فكان درهماً زائفاً، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره ذلك فقال: بئس ما عملت هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغرَّ بها مسلمًا. وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه، وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والإستغفار له والشفقه عليه، وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم! فقال: من قيس بن عاصم، قيل ما وبلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وقيل إن أويساً القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة. وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف وقال: كـان ان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك وروي أن علياً كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال، بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى. وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مرائي، فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة. وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له: لم تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه.

فهذه نفوس قد ذلـلت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق. فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه. فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

أعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبيان أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب؛ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى؛ وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث. ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي

من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبة بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، و أن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه، وأن يعوّد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتمًا، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرّر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرّر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوْه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لجوجاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازي عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يمنع عن لنوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم؛ بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا ترك تعود فعل القبيح. ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل، و يعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي، ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة: وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها.

وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً، وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلاً على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل. ويعلم كيفية

الجلوس ويمنع لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء. وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً. وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي. وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم. ومهما بلغ سن التمييز، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويخوّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان، فإذا وقع نشؤه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عزّ وجلّ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها، وإن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممرّ لا دار مقرّ، وأن الآخرة دار مقرّ لا دار ممرّ، وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكيس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان، فإذا كان نشؤ صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر. وإن وقع نشؤ بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس. فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه[1]» قال سهل بن عبد الله التستري: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرّك به لسانك، الله معي الله ناظر إلى الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية، فكنت أخلو بنفسي فبعثوا بي إلى المكتب فقلت: إني لأخشى أن يتفرّق على همي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، فمضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثني عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها، فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئاً. فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابني، فأقمت عنده مدة انتفع بكلامه وأتأدب بآدابه، ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصاداً على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي، فأفطر عن السحر على أوقية كل ليلة بحتا من غير ملح ولا أدم، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة. ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة. ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة، فكنت على ذلك عشرين سنة، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تستر وكنت

---

(١) حديث «كل مولود يولد على الفطرة... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى قال أحمد: فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى:

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد **الآخرة** بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريداً حرث **الآخرة** مشتاقاً إليها سالكاً سبلها مستهيناً بنعيم الدنيا ولذاتها، فإن من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة وقويت إرادته في بيعها بالجوهرة، ومن ليس مريداً حرث الآخرة ولا طالباً للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر ـ ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص، فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا المصدّق إذا ألف الخرزة قد لايتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة، فإذن المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه المنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها ـ فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدتهم وليس في علماء الدين من ينبههم، فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سبباً لخلوّ طريق الله تعالى عن السالكين فيه. ومهما كان المطلوب محجوباً والدليل مفقوداً والهوى غالباً والطالب غافلاً إمتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة، فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم له شروطاً لا بدّ من تقديمها في بداية الإرادة وله معتصم لا بدّ من التمسك به، وله حصن لا بدّ من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق.

أما الشروط التي لا بدّ من تقديمها في الإرادة فهي رفع السدّ والحجاب الذي بينه وبين الحق، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على الطريق قال الله تعالى: ﴿ وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾.

والسد بين المريد وبين الحق أربعة: المال، والجاه، والتقليد، والمعصية. وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عزّ وجلّ. وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه. وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله «لا إله إلا الله محمد رسول الله» تصديق إيمان ويحرض في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى ـ وأعظم معبود له الهوى ـ حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليداً فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة، فإن غلب عليه التعصب لمعتقدة ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجاباً إذ ليس من شرط المريد الإنتماء **إلى مذهب معين أصلاً**. وأما **المعصية فهي حجاب ولا يرفعها** إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم **على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى ورد المظالم وإرضاء الخصوم**، فإنّ من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي **الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين** بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهوبعد لم يتعلم لغة العرب، فإنّ ترجمة عربية القرآن لا بد من تقديمها أوّلاً ثم الترقي منها إلى أسرار معانيه، فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة أوّلاً وآخراً ثم الترقي إلى أغوارها وأسرارها.

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرّد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً

للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإنّ سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر. فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد بحيث يفوّض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ولا يبقى في متابعته شيئاً ولا يذر، وليعلم أنّ نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور: الخلوة، والصمت، والجوع، والسهر. وهذا تحصن من القواطع فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه.

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة كما أنّ قساوته سبب الحجاب. ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين جوّعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم! وقال سهل بن عبد الله التستري: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال، بإخماص البطون، والسهر، والصمت، والإعتزال عن الناس. ففائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة. وسيأتي بيان وجه التدريج فيه في كتاب كسر الشهوتين

وأما السهر فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوّره، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوّة فيلوح فيه جمال الحق، ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها، فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة. والسهر أيضاً نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن، والنوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب. فقد قيل في صفة الأبدال: إنّ أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة. وقال إبراهيم الخوّاص رحمه الله: أجمع رأى سبعين صدّيقاً على أنّ كثرة النوم من كثرة شرب الماء.

وأما الصمت فإنه تسهله العزلة، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم، فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرّد للذكر والفكر فيستريح إليه. فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم والتقوى.

وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب. والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص؟ فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية. أما ترى أن نداء رسول الله ﷺ بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له «يا أيها المزمل ـ يا أيها المدثر[1]».

---

(١) حديث: بدىء رسول الله ﷺ وهو مدثر فقيل ﴿يا أيها المزمل ـ يا أيها المدثر﴾ متفق عليه من حديث جابر «جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني... الحديث» وفيه «فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا عليّ الماء بارداً فدثروني وصبوا عليّ ماء بارداً» قال فنزلت ﴿يا أيها المدثر﴾ وفي رواية فقلت «زملوني زملوني» ولهما من حديث عائشة فقال «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

فهذه الأربعة جنة وحصن بها تدفع القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق. فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق. وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الإلتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض. والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل. وهي تلك الصفات؛ أعني أسرار العلائق التي قطعها في أوّل الإرادة، وآثارها؛ أعني المال والجاه وحب الدنيا والإلتفات إلى الخلق والتشوّف إلى المعاصي، فلا بد أن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال؛ فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المريد - كما سبق ذكره - فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبقى في قلبه علاقة؛ شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً. وهو لباب الأوراد وثمرتها؛ أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلق من ذكر غيره، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علائقه. قال الشبلي للحصري: إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شيء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني. وهذا التجرّد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا هم واحد. فإذا كان كذلك لازمة الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال، وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً: الله الله. أو: سبحان الله سبحان الله. أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه، لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره - أي شيء كان - فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً نقصاناً، فليجتهد في دفع ذلك. ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنها: ما هي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأي معنى كان إلهاً وكان معبوداً؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة. ومهما كان كارهاً لذلك ومتشمراً لإماطته عن القلب لم يضره ذلك. وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره. فشرطه أن يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ وقال تعالى: ﴿ إنّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علقة أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه، وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحداً، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكَياسته، فلو علم أنه تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الإعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه، وينبني أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها، فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؟ وذلك هو الهلاك العظيم. ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من

الهالكين. ولذلك قال ﷺ: «عليكم بدين العجائز[1]» وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الإعتقاد بطريق التقليد والإشتغال بأعمال الخير، فإن الخطر في العدول عن ذلك كثير. ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المريد فإن لم يكن ذكياً فطناً متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة، أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وتعمه بركتهم، وإن كان لا يبلغ درجتهم، ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد قطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات. ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقوفاً، بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة.

قال بعض السياحين: قلت لبعض الأبدال المقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق؟ فقال أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق. وقال مرة: قلت له دلني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي: لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمه، قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعلة، قال: يا هذا أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام؟ هذا ما لا يكون أبداً.

فإذاً منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً، وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصحاً ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة، فتدعو تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع، فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه وأجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام، فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محركه كيد القبول وإن كان محركه هو الحق حرصاً على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول: الحمد لله الذي عضدني أيدني بمن وازرني على إصلاح عباده. كالذي وجب عليه مثلاً أن يحمل ميتاً ليدفنه إذ وجده ضائعاً وتعين عليه ذلك شرعاً فجاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه، والغافلون موتى القلوب، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر فينبغي أن يعظم الفرح بذلك، وهذا عزيز على الوجود جداً فينبغي أن يكون المريد على حذر منه فإنه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى: ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ثم بين أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال: ﴿ إن هذا

---

(١) حديث «عليكم بدين العجائز» قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمن بن السلماني عن ابن عمرو وعن النبي ﷺ «إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية» والنسائي وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حيان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني والله أعلم.

لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﷺ فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى. فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه ـ أعني به الشهوات المتعلقة بها ـ ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأساً وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور..

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى: كتاب في كسر شهوة البطن والفرج، وكتاب في آفات اللسان، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد، وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل، وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه، وكتاب في ذم الكبر والعجب، وكتاب في مواقع الغرورة. وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه في الكتاب الأوّل هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والمنجيات، وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب. أما تفصيلها فإنه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله تعالى. تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبته وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال في كبريائه وتعاليه، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه، المتطوّل بالفضل فيما ينعم به ويسديه، المتكفل بحفظ عبده في جميع موارده ومجاريه، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفي بأمانيه، فهو الذي يرشده ويهديه، وهو الذي يميته ويحييه، وإذا مرض فهو يشفيه، وإذا ضعف فهو يقويه، وهو الذي يوفقه للطاعة ويرتضيه، وهو الذي يطعمه ويسقيه، ويحفظه من الهلاك ويحميه، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجاري الشيطان الذي يناويه، ويكسر به شهوة النفس التي تعاديه، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه، هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه، وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه. والصلاة على محمد عبده النبيه، ورسوله الوجيه، صلاة تزلفه وتحظيه، وترفع منزلته وتعليه، وعلى الأبرار من عترته وأقربيه، والأخيار من صحابته وتابعيه.

أما بعد: فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فيها أخرج آدم عليه السلام وحوّاء من دار القرار إلى دار الذل والإفتقار؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما. والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات، إذا يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات؛ ثم تتبع

شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات؛ ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات؛ ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عزّوجلّ ولم تسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها، ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها. ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة، ثم القول في شهوة الفرج، ثم بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله؛ ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين.

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله ﷺ «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهدين في سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش[1]» وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه[2]» وقيل يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال «من قل مطعمه وضحكه ورضي مما يستر به عورته[3]» وقال النبي ﷺ «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف[4]» وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ «البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون فإنه جزء من النبوّة[5]» وقال الحسن: قال النبي ﷺ «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة[6]» وقال الحسن أيضاً: قال رسول الله ﷺ «أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكراً في الله سبحانه، وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نؤوم اكول شروب[7]» وفي الخبر: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجوع من غير عوز[8]» أي مختاراً لذلك وقال ﷺ «إن الله تعالى يباهي الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا الى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة[9]» وقال ﷺ «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء[10]» وقال ﷺ «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه[11]» وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع

---

(١) حديث «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث ابن عباس «لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه» لم أجده أيضاً.

(٣) حديث: أي الناس أفضل؟ قال: «من قل طعمه وضحكه ورضي بما يستر عورته» يأتي الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث.

(٤) حديث «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف».

(٥) حديث أبي سعيد الخدري «البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون».

(٦) حديث «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة».

(٧) حديث الحسن «أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً... الحديث» لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلاً.

(٨) حديث كان يجوع من غير عوز ـ أي مختاراً لذلك ـ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة: قالت لو شئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمداً ﷺ كان يؤثر على نفسه. وإسناده معضل.

(٩) حديث: «ان الله يباهي الملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا... الحديث» أخرجه ابن عدي في الكامل وقد تقدم في الصيام.

(١٠) حديث لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب الحديث» لم أقف له على أصل.

(١١) حديث «ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث المقدام وقد تقدم.

إذ قال فيه «إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا، الأحفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا، تعرفهم بقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب، ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم، تبكي الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثاً غبراً يراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء، ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم، ولكن نظر القوم بقلوبهم الى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس، لهم الشرف في الآخرة، يا أسامة إذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوماً هم فيهم. الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض. اتخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تنجو بهم. وإن استطعت إن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل. فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين. وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلي عليك الجبار[1]».

روى الحسن عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال «البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء[2]» وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل[3]. وروى ذلك أيضا عن نبينا ﷺ رواه طاوس. وقيل مكتوب في التوراة: إن الله ليبغض الحبر السمين لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحبر. ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالى يبغض القارىء السمين وفي خبر مرسل «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش[4]» وفي الخبر «إن الأكل على الشبع يورث البرص[5]» وقال ﷺ «المؤمن يأكل في معي واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء[6]» أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المعي كناية عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعي. وليس المعنى زيادة عدد معي المنافق على معي المؤمن. وروى الحسن عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول «أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم» فقلت: كيف نديم قرع باب الجنة؟ قال «بالجوع والظمأ[7]» وروي «أن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له «أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا[8]» وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تمتلىء قط شبعاً وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوّيك ويمنعك من الجوع؟ فيقول «يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد

---

(١) حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة «أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه... الحديق» بطوله أخرجه الخطيب في الزهد من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير، ومن طريقة رواه ابن الجوزي في الموضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضاً ورواه الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه.

(٢) حديث الحسن عن أبي هريرة «البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.

(٣) حديث طاوس مرسلاً «أجيعوا أكبادكم... الحديث» لم أجده أيضاً.

(٤) حديث «إن الشيطان ليجري من ابن ادم مجرى الدم... الحديث» تقدم في الصيام دون الزيادة التي في آخره وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة أيضاً.

(٥) حديث «إن الأكل على الشبع يورث البرص» لم أجد له اصلاً.

(٦) حديث المؤمن يأكل في معى واحد والكفار يأكل في سبعة أمعاء» متفق عليه من حديث عمر وحديث أبي هريرة.

(٧) حديث الحسن عن عائشة «أديموا في قرع باب الجنة... الحديث» لم أجده أيضاً.

(٨) حديث: إن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله ﷺ فقال «أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي جحيفة وأصله عند الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر: تجشأ رجل. الحديثه لم يذكر أبا جحيفة.

صبروا على ما هو أشدّ من هذا مضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم فالصبر أياماً يسيرة أحب الى من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلي من اللحوق بأصحابي وإخواني» قالت عائشة: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه[١]» وعن أنس قال: جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال «ما هذه الكسرة» قالت: قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام[٢]» وقال أبو هريرة: ما أشبع النبي ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا[٣] وقال صلى الله عليه وآله وسلم «إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى وما ترك عبد أكلة يشتهيها الا كانت له درجة في الجنة[٤]».

وأما الآثار: فقد قال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات. وقال شقيق البلخي العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة. وقال لقمان لابنه: يا بني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه: أي شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لا تخافي ذلك؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه. وكان كهمس يقول إلهي أجعتني وأعريتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلستني فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني؟ وكان فتح الموصلي اذا اشتد مرضه وجوعه يقول: إلهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به علي؟ وقال مالك بن دينار: قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعاً وهو عن الله راض. وكان الفضيل بن عياض يقول: إلهي أجعتني وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك؟ وقال يحيى بن معاذ: جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة. وفي التوراة اتق الله واذا شبعت فاذكر الجياع: وقال أبو سليمان: لأن أترك لقمة من عشائي أحب الي من قيام ليلة إلى الصبح، وقال أيضاً: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه. وكان سهل بن عبد الله التستري يطوي نيفاً وعشرين يوما لا يأكل، وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم. وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال: لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي ﷺ في أكله. وقال: لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا. وقال: لا أعلم شيئا أضر على طلاب الآخرة من الأكل. وقال: وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت المعصية والجهل في الشبع. وقال: ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال. وقد جاء في الحديث «ثلث للطعام فمن زاد عليه فانما يأكل من حسناته[٥]» وسئل عن الزيادة فقال: لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين، فإذا كان ذلك وجد الزيادة. وقال صار الابدال ابدالاً الا باخماص البطون والسهر والصمت والخلوة. وقال: رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع. وقال: من جوّع نفسه انقطعت عنه الوساوس. وقال: إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله. وقال: اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة الا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد. وقال: ما مر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى

(١) حديث عائشة: انه ﷺ لم يمتلىء شبعاً قط وربما بكيت رحمة لكا أرى به من الجوع الحديث. أخرجه ابو موسى المديني مطولاً في كتاب استحلاء الموت واورد منه عيا في الشفاء.
(٢) حديث أنس: جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله ﷺ... الحديث اخرجه الحارث بن ابيس أسامة في مسنده ضعيف.
(٣) حديث أبي هريرة: ما شبع النبي ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا. أخرجه مسلم وقد تقدم.
(٤) حديث «إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة» أخرجه الطبراني وابو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف.
(٥) حديث «ثلث للطعام» تقدم.

روى فسلم من المعصية - وإن شكر الله تعالى - فكيف الشبع من الطعام؟ وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي؟ قال: قيدها بالجوع والعطش، وذللها بإخمال الذكر وترك العز، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة، واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها، وأصحبها بخلاف هواها. وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إنّ الله تعالى ما صافى أحداً إلا بالجوع ولا مشوا على الماء الا به، ولا طويت لهم الأرض الا بالجوع، ولا تولاهم الله تعالى الا بالجوع، وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار - إنما صوته لخفته ورقته لأنه أجوف غير ممتلىء، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام. وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: ثلاثة يحبهم الله تعالى؛ رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة. وروى أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فاذا رغيف موضوع بين يديه، فجلس يبكي على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى: بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى فإني كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فانقطعت عني، فقال الشيخ: اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي، بل كان إذا حضر لي شيء أكلته من غير فكر وخاطر. وروي أن موسى عليه السلام لما قرّبه الله عز وجل نجيا كان قدر ترك الأكل أربعين يوما - ثلاثين ثم عشرا - على ما ورد به القرآن؛ لأنه أمسك بغير تبييت يوما فزيد عشرة لأجل ذلك.

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله ﷺ «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك» ولعلك تقول: هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو؟ وما سببه؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى! فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجري مجراه؟ فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط، بل نفعه في خاصية في الدواء وليس لكونه مراً، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع الا سماسرة العلماء ومن جوع نفسه مصدقاً لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة، كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً.

ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان الى درجة العلم قال الله تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ فنقول: في الجوع عشر فوائد.

الفائدة الأولى: صفاء القلب وايقاد القريحة وانفاذ البصيرة، فإنّ الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي اذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك. وقال أبو سليمان الداراني: عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي. وقال ﷺ «أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق[1]» ويقال: مثل الجوع مثل الرعد، ومثل القناعة مثل السحاب، والحكمة كالمطر. وقال النبي ﷺ «من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه[2]» وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ «من شبع ونام قسا قلبه» ثم قال «لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع[3]» وقال

(١) حديث «أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو ترق» لم أجد له أصلاً.
(٢) حديث «من أجاج بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه» كذلك لم أجد له أصلاً.
(٣) حديث «من شبع ونام قسا قلبه، ثم قال «إن لكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع» أخرجه ابن ماجه من حدبث أبي هريرة «لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم» وإسناده ضعيف.

الشبلي: ما جعت لله يوماً الا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط. وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل الى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحري أن تكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنة. ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال أبو يزيد البسطامي: الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة. وقال النبي ﷺ «نور الحكمة الجوع، والتباعد من الله عز وجل الشبع، والقربة إلى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم. لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح[1]».

الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه، وقال أبو سليمان الداراني: أحلى ما تكون الى العبادة اذا التصق ظهري ببطني. وقال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة. وقال أبو سليمان: اذا جاع القلب وعطش صبا ورق، وإذا شبع عمي وغلط، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسيرْ الفكر واقتناص المعرفة في فائدة ثانية.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها اذا ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره، وإنما سعادته في أن يكون دائماً مشاهداً للإضطرار بالذوق، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي ﷺ قال «لا بل أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت صبرت وتضرعت واذا شبعت شكرت[2]» أو كما قال. فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع. والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع. ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر.

الفائدة الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه؛ ولا ينسى أهل البلاء فإنّ الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل. فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فان فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة. وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل. ولذلك قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين احدى فوائد الجوع فان ذلك يدعو الى الرحمة والاطعام والشفقة على خلق الله عز وجل. والشبعان في غفلة عن ألم الجائع.

الفائدة الخامسة: وهي من أكبر الفوائد : كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمّارة

---

(١) حديث «نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع... الحديث» ذكره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وكتب عليه إنه مسند وهي علامة ما رواه باسناده.

(٢) حديث «أجوع يوماً وأشبع يوماً... الحديث» تقدم وهو عند الترمذي.

بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة. وانما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح الا بضعف الجوع فاذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس. كما قيل لبعضهم: ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهدّ؟ فقال: لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمع بي فيورطني، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلي من أن يحملني على الفواحش. وقال ذو النون: ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية: وقالت عائشة رضي الله عنها: أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ: الشبع.

إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد. ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

وأما شهوة الفرج فلا تخفي غائلتها، والجوع يكفي شرها. وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوّش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالاً، وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع. قال حكيم: كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيئاً من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه. ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً. وأجمع رأي سبعين صديقاً على أن كثرة النوم من كثرة الشرب. وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها. ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة، ثم المتعزب اذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضاً من التهجد، ويحوجه إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام، فإن فيه أخطاراً ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع. وقد قال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال. فالنوم منبع الآفات، والشبع مجلبة له، والجوع مقطعة له.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه. والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه. قال السري رأيت مع علي الجرجاني سويقاً يستف منه فقلت: ما حملك على هذا؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه في المضغ. وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فينبغي أن يستوفى منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته.

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته. ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال: من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظنّ أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول نضلة الأخلاط في المعدة والعروق. ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

حكي أن الرشيد جمع أربعة أطباء: هندي، ورومي، وعراقي، وسوادي. وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لاداء فيه. فقال الهندي: الدواء الذي لاداء فيه عندي هو الإهليلج الاسود: وقال العراقي: هو حب الرشاد الأبيض وقال الرومي: هو عندي الماء الحار. وقال السوادي وكان أعلمهم ـ الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء. قالوا: فما عندك؟ فقال الدواء الذي لا داء معه عندي أن تأكل الطعام حتى تشتهيه؛ وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. فقالوا: صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي ﷺ: «ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس[1] فتعجب منه وقال ما سمعت كلاماً في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم. وقال ﷺ «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعوّدوا كل جسم ما اعتاد[2]» وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك. وقال ابن سالم: من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب لم يعتل إلا علة الموت. قيل. وما الأدب؟ قال: تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار: إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح؛ ولأن يقلل من المالح خير له من يستكثر من الرمان. وفي الحديث صوموا تصحوا[3]» ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما.

الفائدة التاسعة: خفة المؤونة فإنّ من تعوّد قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعوّد الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً بمخنقة في كل يوم، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصي أو من الحلال فيذل وربما يحتاج إلى أن يمدّ أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة. وقال بعض الحكماء: إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي. وقال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي وكان إبراهيم ابن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقول إنها غالية فيقول: أرخصوها بالترك. وقال سهل رحمه الله: الأكول مذموم في ثلاثة أحوال، إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه.

---

(١) حديث «ثلث للطعام» تقدم أيضاً.

(٢) حديث «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاد» لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث «صوموا تصحوا» أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج، شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار وفي حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «أديموا قرع باب الجنة بالجوع» فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً وصار حرّاً واستغنى عن الناس واستراح من التعب، وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة، وأما المحتاج فتلهيه لا محالة.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته[1] كما ورد به الخبر: فما يأكله كان خزانته الكنيف وما يتصدّق به كان خزانته فضل الله تعالى، فليس للعبد من ماله إلّا ما تصدّق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى، فالتصدّق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع. وكان الحسن رحمة الله عليه إذا تلا قوله تعالى ﴿إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت، فقالت: لا، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت: لا، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً بأمر ربه. فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً فماذا صنعوا فيها؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم، وأسمنوا براذنيهم وأهزلوا دينهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدوّ والرواح إلى باب السلطان يتعرّضون للبلاء وهم من الله في عافية، يقول أحدهم تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكىء على شماله ويأكل من غير ماله، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال: يا غلام ائتني بشيء أهضم به طعامي، يالكع أطعامك تهضم؟ إنما تهضم دينك، أين الفقير أن الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة لاوهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه. ونظر رسول الله ﷺ إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك[2]» أي لو قدمته لأخرتك وآثرت به غيرك. وعن الحسن قال: والله لقد أدركت أقواماً كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله.

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة. بل ذلك صريح في الأخبار التي رويناها بالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة. فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الإيمان والله أعلم بالصواب.

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

اعلم أن على المريد في بطنه ومأكوله أربع وظائف: الأول أن لا يأكل إلا حلالاً فإن العبادة مع أكل

(١) حديث «كل امرىء في ظل صدقته» أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم.

(٢) حديث: نظر إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك» أخرجه أحمد والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب من حديث جعدة الجشمي وإسناده جيد.

الحرام كالبناء على أمواج البحار. وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام والكثرة وتقدير وقته. في الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتهيات وتركها.

أما الوظيفة الأولى: في الطعام، فسبيل الرياضة فيه التدريج، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعه واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعفه وعظمت مشقته، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد. فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف، وهو أن ينقص جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً، أو جزءاً من ثلاثين جزءاً، فيرجع إلى رغيف في شهر، ولا يستضر به ولا يظهر أثره، فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس. ثم هذا فيه أربع درجات.

أقصاها: أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين. وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه إذ قال: إن الله استعبد الخلق بثلاث، بالحياة، والعقل، والقوة. فإن خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل، أكل وأفطر إن كان صائماً. وتكلف الطلب إن كان فقيراً. وإن لم يخف عليهما بل على القوة قال، فينبغي أن لا يبالي. ولو ضعف حتى صلى قاعداً وأرى أن صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل. وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال. كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم، كنت آخذ بدرهم دبساً، وبدرهم دقيق الأرز، وبدرهم سمناً، وأخلط الجميع وأسوي منه ثلثمائة وستين أكرة، آخذ في كل ليلة أكرة أفطر عليها، فقيل له: فالساعة كيف تأكل؟ قال: بغير حدّ ولا توقيت: ويحكى عن الراهبين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام:

الدرجة الثانية: أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم والليلة إلى نصف مدّ، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين ـ كما ذكره النبي ﷺ ـ وهو فوق اللقيمات لأن هذه الصيغة في الجمع للقلة فهو لما دون العشرة، وقد كان ذلك عادة رضي الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم.

الدرجة الثالثة: أن يردها إلى مقدار المد، وهو رغيفان ونصف، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين، ويكاد ينتهي إلى ثلث البطن، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر. وفي بعض الألفاظ «ثلث للذكر» بدل قوله «للنفس».

الدرجة الرابعة: أن زيد على المد إلى المن، ويشبه أن يكون ما وراء المن إسرافاً مخالفاً لقوله تعالى ﴿ولا تسرفوا﴾ أعني في حق الأكثرين، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن، والشخص، والعمل الذي يشتغل به. وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق، ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة.

وقد ذكر للجوع الصادق علامات؛ إحداها: أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة ـ أي خبز كان ـ فمهما طلبت نفسه خبزاً بعينه أو طلبت أدماً فليس ذلك بالجوع الصادق. وقد قيل: من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه؛ أي لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة، ومعرفة ذلك غامض. فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذي لا يضعفه عن العبادة التي هو بصددها فإن انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته.

وعلى الجملة: فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص. نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة في كل جمعة، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً، وصاع الحنطة أربعة أمداد، فيكون كل يوم قريباً من نصف مدّ ـ وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن ـ واحتيج في التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه. وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول: طعامي في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله ﷺ والله لا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه فإني سمعته يقول «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة وأحبكم إليَّ من مات على ما هو عليه اليوم[1]» وكان يقول ـ في إنكاره على بعض الصحابة: قد غيرتم، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل، وخبزتم المرقق وجمعتم بين إدامين واختلف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم[2] والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى. وكان الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء، والمنافق مثل السبع الضاري بلعاً بلعاً وسرطاً سرطاً لا يطوي بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله، وجهودا هذه الفضول أمامكم. وقال سهل لو كانت الدنيا دماً عبيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالاً لأنه أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط.

الوظيفة الثانية: في وقت الأكل ومقدار تأخيره وفيه أيضاً أربع درجات:

الدرجة العليا: أن يطوي ثلاثة أيام فما فوقها، وفي المريدين من رد الرياضة إلى الطي لا إلى المقدار، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً، وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم: محمد بن عمرو القرني، وعبد الرحمن بن إبراهيم، ورحيم، وإبراهيم التيمي، وحجاج بن فرافصة، وحفص العابد المصيصي، والمسلم بن سعيد، وزهير، وسليمان الخواص، وسهل بن عبد الله التستري، وإبراهيم بن أحمد الخوّاص، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوي ستة أيام، وكان عبد الله بن الزبير يطوي سبعة أيام، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوي سبعاً. وروي أن الثوري وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً، كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة.

قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية وقد حكي أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور، فكلمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب: إن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلّا لنبي أو صديق، فقال له الصوفي: فإن طويت خمسين يوماً تترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنك على باطل؟ قال؛ نعم، فجلس لا يبرح إلّا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً، ثم قال؛ وأزيدك أيضاً فطوى إلى تمام الستين، فتعجب الراهب منه وقال؛ ما كنت أظن أن أحداً يجاوز المسيح؟ فكان ذلك سبب إسلامه. وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها إلّا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في لذته وأنساه جوعته وحاجته.

الدرجة الثانية: أن يطوي يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة.

الدرجة الثالثة: وهي أدناها أن يقتصر في اليوم والليلة على أكله واحدة وهذا هو الأقل وما جاوز ذلك أسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة، فقد روى أبو

---

(١) حديث أبي ذر «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة وأحبكم إليّ من مات على ما هو عليه اليوم» أخرجه أحمد في كتاب الزهد ومن طريقة أبو نعيم في الحلية دون قوله «وأحبكم إلي» وهو منقطع.

(٢) حديث: كان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم» أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث طلحة البصري.

سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد[1] وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة، وقال النبي ﷺ لعائشة «إياك والسرف، فإن أكلتين في يوم من السرف، وأكلة واحدة في كل يومين إقتار، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك[2]» وهو المحمود في كتاب الله عز وجل.

ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام، وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم، فلا تنازعه قبل وقته. وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال؛ ما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قط، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماه، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر[3] وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت؛ كان النبي ﷺ يواصل إلى السحر[4] فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب في التهجد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين، فإن كان رغيفين مثلاً أكل رغيفاً عند الفطر ورغيفاً عند السحر، لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد وبالثاني على الصوم. ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر، ويوم صومه وقت السحر. فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه.

الوظيفة الثالثة؛ في نوع الطعام وترك الإدام، وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفة، وأوسطه شعير منخول، وأدناه شعير لم ينخل. وأعلى الأدم اللحم والحلاوة، وأدناه الملح والخل، وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم. وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات، فإن كان لذيذ يشتهيه الأنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه وأنساً له بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى، وتصير الدنيا جنة ويكون الموت سجناً له. وإذا منع نفسه عن شواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجناً عليه وضيقاً له فاشتهت نفسه الإفلات منها. ، فيكون الموت إطلاقها. وإليه الإشارة بقول يحيى ابن معاذ حيث قال: معاشر الصدّيقين جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس. فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فإنه يجري في كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول بإعادته، فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر في تناولها، حتى قال ﷺ «شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة[5]». وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص، ومن دام عليه أيضاً فلا يعصي بتناوله، ولكن تتربى نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذات وتسعى في طلبها فيجرها ذلك إلى المعاصي فهم شار الأمة، لأن مخ الحنطة ويقودهم إلى اقتحام أمور، تلك الأمور معاص. وقال ﷺ «شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم[6]». وإنما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات. وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة وتمرين النفس عليها

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري: كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: قال لعائشة «إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من السرف» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال في إسناده ضعف.

(٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة: ما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قطوان كان ليقوم حتى تزلع قدماء. رواه النسائي مختصراً: كان يصلي حتى تزلع قدماه. واسناده أيد.

(٤) حديث: كان يواصل إلى السحر. لم أجده من فعله وإنما هو من قوله «فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر» رواه البخاري من حديث أبي سعيد: وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه.

(٥) حديث «شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة» لم أجد له أصلاً.

(٦) حديث «شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم. . الحديث» اخرجه ابن عدي في الكامل ومن طريقة البيهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بن رسول الله ﷺ وروي من حديث فاطمة بن الحسين مرسلاً، قال الدارقطني في العلل: أنه أشبه بالصواب، ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة بإسناد لا بأس به.

ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة، حتى روي أن وهب بن منبه قال: التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر: من أين؟ قال: أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله، وقال لـه الآخر؛ أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد. فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير. ولهذا امتنع عمر رضي الله عن شربة ماء بارد بعسل وقال: اعزلوا عني حسابها. فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات - كما أوردناه في كتاب رياضة النفس - وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضاً فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد، ثم وجدت بعد كذا وكذا، فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقال سائل على الباب فقال للغلام: لفها برغيفها وادفعها إليه، فقال له الغلام: أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف، فنحن نعطيه ثمنها، فقال: لفها وادفعها إليه؛ ثم قال الغلام للسائل: هل لك أن تأخذ درهماً وتتركها؟ قال: نعم فأعطاه درهماً واخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال: قد أعطيته درهماً وأخذتها منه، فقال: لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما أمرىء اشتهى شهوة فردّ شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له[1]» وقال ﷺ: «إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وجهلها الدمار[2]». وأشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التنعم بلذات الدنيا، وبلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له: إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني، فأعلمه فدخل عليه فقرّب عشاؤه فأتوه بثريد لحم فأكل معه عمر، ثم قرّب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال: الله الله يا يزيد بن أبي سفيان أطعام بعد طعام؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم. وعن يسار بن عمير قال: ما نخلت لعمر دقيقاً قط إلّا وأناله عاص. وروي عن عتبة الغلام كان دقيقه ويجففه في الشمس، ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب. وكان يأخذ الكوز فيغرف به من جب كان في الشمس نهاره فتقول مولاة له: ياعتبة لو أعطيتني دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء؟ فيقول لها: يا أم فلان قد شردت عني كلب الجوع.

قال شقيق بن إبراهيم: لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل - عند مولد النبي ﷺ - يبكي وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت: إيش هذا البكاء يا أبا إسحٰق؟فقال: خير، فعاودته مرة واثنتين وثلاثاً، فقال: يا شقيق استر عليَّ فقلت يا أخي قل ما شئت، فقال لي: اشتهت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجاً فمنعتها جهدي، حتى إذا كان البارحة كنت جالساً وقد غلبني النعاس إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج، قال: فاجتمعت بهمتي عنه فقرّ به وقال: يا إبراهيم كل، فقلت: ما آكل قد تركته لله عزّ وجلّ، فقال لي: قد أطعمك الله كل، فما كان لي جواب إلا أني بكيت، فقال لي: كل رحمك الله، فقلت: قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم، فقال: كل عافاك الله فإنما أعطيته، فقيل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها. أعلم يا إبراهيم أني سمعت الملائكة يقولون: من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط، فقلت: إن كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالى، ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئاً وقال: يا خضر لقمه أنت، فلم يزل يلقمني حتى نعست فانتبهت وحلاوته في فمي، قال شقيق: فقلت أرني كفك، فأخذت بكفه فقبلتها

---

(١) حديث نافع: أن ابن عمر كان مريضاً فاشتهى سمكة. . . الحديث وفيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما امرىء اشتهى شهو فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب باسناد ضعيف جداً ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث «إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

وقلت: يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع، يا من يقدح في الضمير اليقين، يا من يشفي قلوبهم من محبته، أترى لشقيق عندك حالاً؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت: بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذي وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك، قال: فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت.

وروي عن مالك بن دينار أنه بقي أربعين سنة يشتهي لبناً فلم يأكله. وأهدي إليه يوماً رطب فقال لأصحابه: كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة. وقال أحمد بن أبي الحواري. إشتهى أبو سليمان الداراني رغيفاً حاراً بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي وقال: عجلت إلى شهوتي بعد إطالة جهدي واشقوتي قد عزمت على التوبة فأقلني! قال أحمد. فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى. وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة في السوق فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسي: لو أطعمتني الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال. يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة فما زاد فيكم ما نقص مني ولا نقص مني ما زاد فيكم. وقال. طلقت الدنيا، منذ خمسين سنة، إشتهت نفسي لبناً منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى. وقال حماد بن أبي حنيفة. أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعته يقول. نفسي اشتهيت جزراً فأطعمتك جزراً، ثم اشتهيت تمراً فآليت أن لا تأكليه أبداً. فسلمت ودخلت فإذا هو وحده. ومرّ أبو حازم يوماً في السوق فرأى الفاكهة فاشتهاها، فقال لابنه. إشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التي لا مقطوعة ولا ممنوعة، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال لنفسه: قد خدعتيني حتى نظرت واشتهيت وغلبتيني حتى اشتريت والله لاذقتيه فبعث بها إلى يتامى من الفقراء وعن موسى الأشج أنه قال. نفسي تشتهي ملحاً جريشاً منذ عشرين سنة. وعن أحمد بن خليفة قال: نفسي تشتهي منذ عشرين سنة ما طلبت مني إلا الماء حتى تروي فما أرويتها. وروى أي عتبة الغلام اشتهى لحمًا سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسي أن أدافعها منذ سبع سنين - سنة بعد سنة - فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها وتركتها على رغيف فلقيت صبياً فقلت، ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك؟ قال. بلى، فناولته إياها قالوا. وأقبل يبكي ويقرأ: ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمًا وأسيراً ﴾ ثم لم يذقه بعد ذلك ومكث يشتهي تمراً سنين، فلما كان ذات يوم اشترى تمراً بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه قال: فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس، فأقبل عتبة على نفسه يقول: هذا لجراءتي عليك وشرائي التمر بالقيراط، ثم قال لنفسه: ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك؟ على أن لا تذوقيه. واشترى داود الطائي بنصف فلس بقلاً وبفلس خلاً، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه. ويلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة، ثم لم يأكل بعده إلا قفارا، وقال عتبة الغلام يوماً لعبد الواحد بن زيد. إن فلاناً يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسي فقال: لأنك تأكل مع خبزك تمراً وهو لا يزيد على الخبز شيئاً قال: فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة؟ قال: نعم؛ وغيرها فأخذ يبكي فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينك أعلى التمر تبكي؟ فقال عبد الواحد دعه؛ فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك، وهو إذا ترك شيئاً لم يعاوده. وقال جعفر بن نصر. أمرني الجنيد أن أشتري له التين الوزيري، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها في فمه ثم ألقاها وجعل يبكي، ثم قال: أحمله فقلت له في ذلك فقال: هتف بي هاتف أما تستحي؟ تركته من أجلي ثم تعود إليه، وقال صالح المري. قلت لعطاء السلمي إني متكلف لك شيئاً فلا ترد على كرامتي، فقال: افعل ما تريد، قال: فبعثت إليه مع إبني شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل، فقلت: لا تبرح حتى يشربها، فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها، فعاتبته ولمته على ذلك وقلت. سبحان الله رددت عليّ كرامتي! فلما رأى وجدي لذلك قال. لا يسوءك هذا، إني قد شربتها أوّل مرة وقد راودت نفسي في المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك،

كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى: ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ الآية قال صالح. فبكيت وقلت في نفسي. أنافي وادٍ وأنت في واد آخر. وقال السري السقطي. نفسي منذ ثلاثين سنة تطالبني أن أغمس جزرة في دبس فما أ طعمتها. وقال أبو بكر الجلاء. أعرف رجلاً تقول له نفسه أنا أصبر لك على طي عشرة أيام وأطعمني بعد ذلك شهوة أشتهيها، فيقول لها: لا أريد أن تطوي عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة. **وروي أن عابداً** دعا بعض إخوانه فقرّب إليه رغفاناً فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد. مه أي شيء تصنع! أما علمت أن في الرغيف الذي رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانعاً، حتى استدار من السحاب الذي يحمل الماء والماء الذي يسقي الأرض والرياح والأرض والبهائم وبني آدم حتى صار إليك، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به.

وفي الخبر «لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعاً أولهم ميكائيل عليه السلام الذي يكيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التي تزجي السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض، وآخرهم الخباز: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[1]» وقال بعضهم: أتيت قاسمًا الجرعى فسألته عن الزهد أي شيء هو؟ فقال: أي شيء سمعت فيه؟ فعددت أقوالاً فسكت فقلت: وأي شيء تقول أنت؟ فقال: أعلم أن البطن دنيا العبد فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد، وبقدر مايملكه بطنه تملكه الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة، فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شيء يوافقه من المأكولات، فقال: تسألني فإذا وصفت لك لم تقبل مني، قال: صف لي حتى أسمع، تشرب سكنجبينا وتمص سفرجلاً وتأكل بعد ذلك استفيذباجا، فقال له بشر: هل تعلم شيئاً أقل من السكنجبين يقوم مقامه، **قال: لا، قال: أنا أعرف، قال: ما هو؟ قال: الهندبا بالخل، ثم قال: أتعرف شيئاً أقل من السفرجل يقوم مقامه؟** قال: لا، قال أنا أعرف قال: ما هو؟ قال: الخرنوب الشامي، قال: فتعرف شيئاً أقل من الأسفيذباج يقوم مقامه؟ قال: لا، قال: أنا أعرف؛ ماء الحمص بسمن البقر في معناه، فقال له عبد الرحمن: أنت أعلم مني بالطب؛ فلم تسألني؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأقوات، وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها، وفي بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان: الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة. وهذا هو النهاية. فمن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لا يغفل عن نفسه ولا ينهمك في الشهوات، فكفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كل ما يشتهيه، ويفعل كل ما يهواه فينبغي أن لا يواظب على أكل اللحم. وقال علي كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوماًساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوماً قسا قلبه. وقيل إن للمداومة على اللحم ضراوه كضراوة الخمر. ومهما كان جائعاً وتاقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغي أن يأكل ويجامع، فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه، وربما طلبت النفس الأكل لينشط في الجماع. ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعاد الفتور ويقسو قلبه لذلك، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر. وفي الحديث «أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم[1]» وأقل ذلك أن يصلي أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءاً من القرآن عقيب أكله. فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها، وإذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر، وكان يقول. أشبع الزنجي وكدّه ومرة يقول: أشبع الحمار وكدّه. ومهما اشتهى شيئاً من الطعام وطيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلاً منه لتكون قوتاً، ولا

---

(١) حديث «لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعاً أولهم ميكائيل... الحديث» لم أجد له أصلاً.

تكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة. نظر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وتمر فقال له: ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك. ومهما وجد طعاماً لطيفاً وغليظاً فليقدم اللطيف فإنه لا يشتهي الغليظ بعده، ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضاً للطافته. وكان بعضهم يقول لأصحابه: لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبوها، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة. قال عبد الله ابن عمر رحمة الله عليهما: ما تأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فاكهة.

وعلى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة: ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخر بشهواته. قال بعض أهل البصرة: نازعتني نفسي خبز أرز وسمكاً فمنعتها، فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة، فلما مات قال بعضهم: رأيته في المنام فقلت ماذا فعل الله بك؟ قال: لا أحسن أن أصف ما تلقاني به ربي من النعم والكرامات، وكان أول شيء استقبلني به خبز أرز وسمكاً. وقال: كل اليوم شهوتك هنيئاً بغير حساب. وقد قال تعالى: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات. ولذلك قال أبو سليمان: ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها. وفقنا الله لما يرضيه.

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

أعلم أنّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط، إذ خير الأمور أوساطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومي إلى أنّ الإفراط فيه مطلوب هيهات، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه، على وجه يومىء عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان. والعالم يدرك أنّ المقصود الوسط، لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقاومان ويحصل الإعتدال، فإنّ من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية؛ فإنه إن أسرف مسرف ف مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته، كما أنّ الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم لما علم النبيﷺ من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه[١] فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها. فالمقصود أن يأكل أكلاً لا يبقى للمأكول فيه أثر ليكون متشبهاً بالملائكة فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان الإقتداء بهم. وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الإعتدال.

ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض، فإنّ النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر الخروج منها.

---

(١) حديث «أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسوا قلوبكم» أخرجه الطبراني وابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف.

(١) حديث: النهي عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله. تقدم.

فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط، فلو ماتت على الوسط لأنّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة: فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص، فأشبه أحواله بهم البعد، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط، فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة. وعنه عبر بقوله ﷺ: «خير الأمور أوساطها[٢]» وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوى على العلم مع خفته، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع.

أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحاً متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالإعتدال لا ينفعها بل لا بد من المبالغة في إيلامها بالجوع، كما يبالغ في إيلام الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الإعتدال ترك تعذيبها وإيلامها. ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع، ويمنعه الفواجه والشهوات، وقد لا يمتنع هو منها، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب. ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والإمتناع عن العبادة، كان الأصلح لها الجوع الذي تحس بألمه في أكثر الأحوال لتنكسر نفسه والمقصود أن تنكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك الغذاء أيضاً إلى الإعتدال. وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة: إما صدّيق وإما مغرور أحمق.

أما الصدّيق المستقيم: فلا مستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق. وأما المغرور: فلظنه بنفسه أنه الصدّيق المستغني عن تأديب نفسه الظان بها خيراً. وهذا غرور عظيم وهو الأغلب. فإن النفس قلما تتأدب تأدباً كاملاً، وكثيراً ما تغتر فتنظر إلى الصدّيق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه، كالمريض ينظر إلى ما قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك. والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير - في وقت مخصوص ونوع مخصوص - ليس مقصوداً في نفسه - وإنما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال - أن رسول الله ﷺ لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم[٣] وكان يدخل على أهله فيقول «هل عندكم من شيء» فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال «إني إذن صائم[٤]» وكان يقدّم إليه الشيء فيقول « أما إني قد أردت الصوم» ثم يأكل[١] وخرج ﷺ يوماً وقال: «إني صائم» فقالت له عائشة رضي الله عنها: قد أهدي إلينا حيس فقال؛ «كنت أردت الصوم ولكن قربية[٢]».

ولذلك حكي عن سهل أنه قيل له: كيف كنت في بدايتك؟. فأخبر بضروب من الرياضات، منها: أنه كان يقتات وريق النبق مدة. ومنها: أنه أكل دقاق التين مدّة ثلاث سنين، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في

---

(٢) حديث «خير الأمور أوساطها» أخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً وقد تقدم.

(٣) حديث عائشة: كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم. متفق عليه.

(٤) حديث: كان يدخل على أهله فيقول «هل عندكم من شيء» فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال «إني صائم» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث عائشة وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتي.

(١) حديث: كان يقدم إليه الشيء فيقول «أما إني كنت أريد الصوم» أخرجه البيهقي من حديث عائشة بلفظ «وإن كنت قد فرضت الصوم» وقال إسناده صحيح وعند مسلم «قد كنت أصبحت صائماً»

(٢) حديث: خرج وقال «إني صائم» فقالت عائشة يا رسول الله قد أهدى إلينا حيس فقال «كنت أردت الصوم ولكن قربيه» أخرجه مسلم بلفظ «قد كنت أصبحت صائماً» وفي رواية له «أدنيه فقد أصبحت صائماً» فأكل وفي لفظ للبيهقي «إني كنت أريد الصوم ولكن قربية » .

ثلاث سنين فقيل له: فكيف أنت في وقتك هذا؟ فقال: آكل بلا حدّ ولا توقيت. وليس المراد بقوله بلا حدّ ولا توقيت: أني آكل كثيراً، بل أني لا أقدّر بمقدار واحد ما آكله. وقد كان معروف الكرخي يهدي إليه طيبات الطعام فيأكل، فقيل له: إن أخاك بشراً لا يأكل مثل هذا؟ فقال: إن أخي بشراً قبضه الورع وأنا بسطتني المعرفة، ثم قال: إنما أنا ضيف في دار مولاي فإذا أطعمني أكلت وإذا جوعني صبرت، مالي والإعتراض والتمييز؟ ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال: خذ لنا بهذه الدراهم زبداً وعسلاً وخبزاً حوارياً فقيل: يا أبا إسحاق بهذا كله؟ قال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال: وأصلح ذات يوم طعاماً كثيراً ودعا إليه نفراً يسيراً فيهم الأوزاعي والثوري فقال له الثوري: يا أبا إسحاق أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً؟ فقال: ليس في الطعام إسراف إنما الإسراف في اللباس والأثاث.

فالذي أخذ العلم من السماع والنقل تقليداً يرى هذا من إبراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي الملح منذ عشرين سنة. وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في دبس فما فعل. فيراه متناقضاً فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطىء. والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غبي مغرور. فيقول المحتاط: ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سرى السقطي ومالك بن دينار، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدي بهم. والمغرور يقول: ما نفسي بأعصى علي من نفس معروف الكرخي وإبراهيم بن أدهم فاقتدى بهم وأرفع التقدير في مأكولي، فأنا أيضاً ضيف في دار مولاي فمالي وللإعتراض؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالإعتراض، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمقى، بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوّة، فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية، فيكون عاملاً لله في أكله وإفطاره، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضي الله عنه فإنه كان يرى رسول الله ﷺ يحب العسل ويأكله[٣] ثم لم يقس نفسه عليه، بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الإناء في يده ويقول: «أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها. اعزلوا عني حسابها، وتركها.

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ إن يكاشف بها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط، ولا يدعوه إلى الإعتدال فإنه يقصر لا محالة عما يدعوه إليه. فينبغي أن يدعوه إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الإعتدال. ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغني عن الرياضة، فإن الشيطان يجد متعلقاً من قلبه فيلقي إليه كل ساعة: إنك عارف كامل، وما الذي فاتك من المعرفة والكمال. بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها، كيلا يخطر بباله أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته. والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبهاً بهم وتلطفاً في سياقتهم إلى السعادة. وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء وإذا كان الإعتدال خفياً في حق كل شخص فالحزم والإحتياط ينبغي أن لا يترك في كل حال. ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولده عبد الله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحمًا مأدوماً بسمن، فعلاه بالدرة وقال: لا أم لك كل يوماً خبزاً ولحمًا، ويوماً خبزاً ولبناً، ويوماً خبزاً وسمناً، ويوماً خبزاً وزيتاً،

---

(٣) حديث: كان يحسب العسل ويأكله. متفق عليه من حديث عائشة: كان يحب الحلواء والعسل... الحديث. وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه.

ويوماً خبزاً وملحاً، ويوماً خبزاً قفاراً. وهذا هو الإعتدال، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار. وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم.

بيان آفة الرياء المتطرف إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

أعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات؛ إحداهما: أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة. وهذا هو الشرك الخفي، سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له: هل تعلم به بأساً؟ قال يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة. وهذه آفة عظيمة، بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال، وهو بدل عن فوت المجاهدات بالأعمال، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان، والكذب مع الإخفاء كذبان، فيكون مستحقاً لمقتين ولا يرضي منه إلا بتوبتين صادقتين. ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى؛ ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر، فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلي قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولايبتلون بالرياء والغش والإخفاء. بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلته من قلوب الخلق. وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين، وإنما يقصد به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشوشون عليه حال.

فنهاية الزهد: الزهد في الزهد بإظهار ضدّه وهذا عمل الصديقين. فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين. وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرّعها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه؛ فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا. وهذا يضاهي طريق من يعطي جهراً فيأخذ ويرد سراً ليكسر نفسه بالذل جهراً وبالفقر سراً. فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه. ولا ينبغي أن يغره قول الشيطان؛ إنك إذا أظهرت إقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروّجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره، فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه وأعلم أن من اطلع عليه ليس يقتدي به في الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات.

الأفة الثانية: أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات، فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه، وتلك هي الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسرهذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فيأكل فهو أولى له. قال أبو سليمان: إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ولا تعط نفسك مناهاً، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها إذا لم تعطها شهوتها. وقال محمد بن جعفر الصادق: إذا قدمت إلي شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً، وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية.

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيراً من شهوة الطعام والله ولي التوفيق.

القول في شهوة الفرج

أعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين؛ إحداهما: أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة. فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد. والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة، فإن ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق.

الفائدة الثانية: بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها. ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الإعتدال. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ معناه شدة الغلمة، وعن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال: هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله ﷺ إلا أنه قال في تفسيره: الذكر إذا دخل. وقد قيل: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله[1]. وكان ﷺ يقول في دعائه: ﴿ اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهني ومني[2] ﴾ وقال عليه السلام: «النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال[3]».

روي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه، ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسى، فقال له موسى من أنت؟ فقال: أنا إبليس، فقال: لا حياك الله ما جاء بك؟ قال جئت **لأسلم** عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه، قال: فما الذي رأيت عليك؟ قال: برنس أختطف به قلوب بني آدم قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه، وأحذرك ثلاثا: لا تخلُ بامرأة لا تحل لك فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها. ثم ولى وهو يقول: علم موسى ما يحذر به بني آدم. وعن سعيد بن المسيب قال: ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتي وبيت إبنتي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح. وقال بعضهم: إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطىء، وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي. فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب.

وأعظم الشهوات شهوة النساء. وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفريط واعتدال، فالإفراط: ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجواري، فيحرم عن سلوك طريق الاخرة أو يقهر الدين حتى

---

(١) حديث ابن عباس موقوفاً مسنداً في قوله تعالى ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال هو قيام الذكر وقال الذي أسنده: الذكر إذا دخل. هذا حديث لا أصل له.

(٢) حديث «أللهم أني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهني ومني» تقدم في الدعوات.

(٣) حديث «النساء حبائل الشيطان» أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني بإسناد فيه جهالة.

يجر إلى اقتحام الفواحش. وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين:

أحدهما: أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الإستكثار من الوقاع ـ كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام ـ وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص.

* فإن قلت. فقد روي في غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الهريسة[1]» فاعلم أنه ﷺ كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالإمتاع، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن، فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع.

والأمر الثاني. أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، وهو مجاوزة في البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع وهي أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحي منه حتى أعتقد أن الشهوة لا تنقضي إلا من محمل واحد، والبهيمة تقضي الشهوة أين اتفق فتكتفي به؟ وهذا لا يكتفي إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلاً إلى ذل وعبودية إلى عبودية، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة ومحتالاً لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا هم له. وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإذا استحكم عسر دفعه. فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج، فإن هذه الأمور قد تستولي على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة.

ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر، فليكن الإحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح.

فإذن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جداً. وتفريطها: بالعنة أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة، وهو أيضاً مذموم. وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها. ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال ﷺ: «معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء[2]».

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجرّه إلى الأنس بالزوجة. ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرّنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى[3] فلا تقاس الملائكة بالحدادين. ولذلك قال أبو سليمان

(١) حديث «شكوت إلى جبريل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الهريسة» أخرجه العقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع.

(٢) حديث «معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج... الحديث» تقدم في النكاح.

(٣) حديث: كان لا يشغل قلبه عن الله جميع ما في الدنيا. تقدم.

الداراني: من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا؟ وقال: ما رأيت مريداً تزوّج فثبت على حاله الأول: وقيل له مرة: ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها؟ فقال: لا آنسني الله بها، أي أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى، وقال أيضاً: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم. فكيف يقاس غير رسول الله ﷺ به؟ وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حدّ كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قالبه فيهدمه. فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحياناً ويقول: «كلميني يا عائشة» لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه[١] فقد كان طبعه الأنس بالله عزّ وجلّ، وكان أنسه بالخلق عارضاً رفقاً ببدنه، ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال «أرحنا بها يا بلال[٢]» حتى يعود إلى ما هو قرّة عينه[٣] فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله ﷺ. فشرط المريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة، هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلاً وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة، وإلا فمهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرّق عليه همه، وربما وقع في بلية لا يطيقها. وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج. ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام: إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة. وقال سعيد بن جبير: إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة. ولذلك قال لابنه عليه السلام: يا بني إمش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام: ما بدء الزنا؟ قال: النظر والتمني. وقال الفضيل: يقول إبليس هو قوسي القديمة وسهمي الذي لا أخطىء به يعني النظر. وقال رسول الله ﷺ: « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيماناً يجد حلاوته في قلبه[٤]» وقال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء[٥]» وقال ﷺ: «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإنّ أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء[٦]» وقال تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ الآية وقال عليه السلام: «لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبلة، والقلب يهم أو يتمنى ويصدّق ذلك الفرج أو يكذبه[٧]» وقالت أم سلمة: أستأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله ﷺ وأنا وميمونة جالستان، فقال عليه السلام: «إحتجبا» فقلنا: أو ليس بأعمى لا يبصر؟ فقال «وأنتما لا تبصرانه؟[٨]» وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآتم والولائم، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة، وإنما جوّز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به، فإنّ الشر في الصبيان أكثر، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح. والنظر إلى وجه الصبي

---

(١) حديث: كان يضرب يده على خد عائشة أحياناً ويقول «كلميني يا عائشة» لم أجد له أصلاً.
(٢) «أرحنا بها يا بلال» تقدم في الصلاة.
(٣) حديث: إن الصلاة كانت قرة عينه. تقدم أيضاً.

(٤) حديث «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس... الحديث» تقدم أيضاً.
(٥) حديث: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.
(٦) حديث «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري.
(٧) حديث «لكل ابن آدم حظه من الزنان فالعينان تزنيان... الحديث» أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له من حديث أبي هريرة واتفق عليا الشيخان من حديث ابن عباس نحوه.
(٨) حديث أم سلمة: استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال «احتجبا» الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح.

بالشهوة حرام، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر أليه.

فإن قلت: كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة؟ فأقول لست أعني تفرقة العين فقط، بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة، وبين ماء صاف وماء كدر، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها، فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ولكن ميلاً خالياً عن الشهوة، ولأجل ذلك لا يشتهي ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها، ولا تقبيل الماء الصافي، وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها. ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة. فمهما وجد ذلك الميل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام، وهذا مما يتهاون به الناس ويجرّهم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون.

قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضاري على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه. وقال سفيان: لو أنّ رجلاً عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطاً. وعن بعض السلف قال: سيكون في هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف يعملون.

فإذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة. فمهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح: فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع.

وقال بعضهم: غلبت علي شهوتي في بدء إرادتي بما لم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصاً في المنام فقال: مالك؟ فشكوت إليه فقال: تقدّم إلي، فتقدمت إليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي، فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك فأكثرت الإستغاثة فأتاني شخص في المنام فقال لي: أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك؟ قلت: نعم، فقال: مدّ رقبتك، فمددتها فجرّد سيفاً من نور فضرب به عنقي فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك أو أشدّ منه فرأيت كأن شخصاً فيما بين جنبي وصدري يخاطبني ويقول: ويحـك تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفعه؟ قال: فتزوجت فانقطع ذلك عني وولد لي.

ومهما احتاج المريد إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه، أما في ابتدائه فبالنية الحسنة، وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة ـ كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته ـ وعلامة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية. قال بعضهم: من تزوج غنية كان له منها خمس خصال، مغالاة الصداق، وتسويف الزفاف، وفوت الخدمة، وكثرة النفقة. وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً على ذهاب مالها. والفقيرة بخلاف ذلك. وقال بعضهم: ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته: بالسنّ، والطول، والمال، والحسب، وأن تكون فوقه بأربع: بالجمال، والأدب، والورع والخلق وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح الخلق.

تزوج بعض المريدين بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت: قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين ما ذهبت إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلي أليه؟ وتزوج بعضهم إمرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري فاشتدّ حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها، فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد، ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك، فقيل له في ذلك فقال تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا، فقيل له: قد

سبقت إخوانك بهذا الخلق. وتزوج بعض الصوفية إمرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له: لم لا تطلقها؟ فقال: أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها، فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون، وإن قدر على الترك فهو أولى له، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حال، كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب إليها: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم، وليس تمضي الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبيني. فكتبت إليه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابي هذا فهيء زادك وقدم لمعادك وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك؛ فصم الدهر وليكن فطرك الموت. وأما أنا فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خوّلك وأضعافه ما سرني أن أشتغل عن الله طرفة عين.

وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان، فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجده في العزوبة فهو الأقرب، وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به. ودواء هذه العلة ثلاثة أمور: الجوع، وغض البصر، والإشتغال بشغل يستولي على القلب. فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط. ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات، قال سعيد بن المسيب ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء، وقال سعيد أيضاً ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى ـ ما شيء أخوف عندي من النساء، وعن عبد الله بن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدني أياماً فلما أتيته قال أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: هلا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت إمرأة؟ فقلت: يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، فحمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين ـ أو قال ثلاثة ـ قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح؟ فصرت إلى منزلي وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي فأسرجت، وكنت صائماً فقدمت عشائي لأفطر ـ وكان خبزاً وزيتاً ـ وإذا بابي يقرع فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ـ وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد ـ قال: فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد لو أرسلت إليَّ لأتيتك؟ فقال: لا، أنت أحق أن تؤتي، قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك، وهذه إمرأتك، وإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه؛ ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاؤ ني وقالوا ما شأنك؟ قلت: ويحكم زوّجني سعيد بن المسيب إبنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا: أبوسعيد زوجك؟ قلت: نعم؛ قالوا وهي في الدار؟ قلت: نعم، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلي ثلاثة أيام؛ قال: فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها؛ فإذا هي من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج؟ قال: فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه؛ فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلمت عليه فرد عليَّ السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس، فقال: ما حال ذلك الإنسان؟ فقلت: بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: إن رابك منه أمر فدونك والعصا فانصرفت إلى منزلي فوجه إلي بعشرين ألف درهم. قال عبد الله بن سليمان: وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد

وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف. فاستعجال سعيد في الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح رضي الله تعالى عنه ورحمه.

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل، إلا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه، و امتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر. نعم من العصمة أن لايقدر ففي هذه العوائق فائدة وهي دفع الإثم، فإن من ترك الزنا إندفع عنه إثمه بأي سبب كان تركه؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب، لا سيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين. ولذلك قال ﷺ: «من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد[1]» وقال عليه السلام: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ـ وعدّ منهم: رجل دعته إمرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال إني أخاف الله رب العالمين[2]» وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة.

وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهم أشار إلى قوله تعالى: ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا. وذلك أنه خرج من المدينة حاجاً ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً، وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجمل الناس وجهاً وأروعهم، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه ـ وعليها البرقع والقفازان ـ فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت أهنئني؛ فظن أنها تريد طعاماً فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت: لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله؟ فقال: جهزك إلّي إبليس؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في النحيب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها. وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك؟ قال: خير ذكرت صبيتي. قال: لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديداً فقال سليمان: وأنت ما يبكيك؟ قال: أنا أحق بالبكاء منك لأني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها، فلم يزالا يبكيان، فلما انتهى سليمان إلى مكةفسعى وطاف ثم أتى الحجر، فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام وإذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان: رحمك الله من أنت؟ قال له: أنا يوسف، قال: يوسف الصديق؟ قال: نعم، قال: إن في شأنك وشأن إمرأة العزيز لعجبا! فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب.

وروي عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر مما كان قبلكم حتى

---

(١) حديث «من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد» أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد بن سعيد، ثم قال: يقال أن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي فرس ورمح غزوت سويدا ورواه الخرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر.

(٢) حديث «سبعة يظلهم الله في ظله... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأي بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ومالاً، فلبثت والقدح في يدي أنتظر إستيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك إبتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. وقال الآخر: اللهم إنك تعلم أنه كان لي إبنة عم من أحب الناس إلي فراودتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: إتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحب الناس إليّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلته إبتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم إني إستأجرت أجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذي له وذهب فنميت له أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أعطني أجري، فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق؛ فقال يا عبد الله أتهزأ بي؟ فقلت: لا أستهزىء بك فخذه، فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك إبتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1]»

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين، فإن العين مبدأ الزنا فحفظها مهم، وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ. والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال ﷺ: «لك الأولى وعليك الثانية[2]» أي النظرة. وقال العلاء بن زياد. لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع في القلب شهوة، وقلما يخلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر على النساء والصبيان. فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغي أن يقرر في نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر، وإن استقبح لم يلتذ وتألم لأنه قصد الإلتذاذ فقد فعل ما آلمه، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر. ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق. فقد روي عن أبي بكر بن عبدالله المزني: أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له: لا تفعل لأنا أشدّ حباً لك منك لي ولكني أخاف الله ،قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال: مالك؟ قال: العطش، قال: تعالى حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية؛ قال: ما لي من عمل صالح فأدعو، فادع أنت، قال: أنا أدعو وأمن أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول ﷺ: «زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرني بأمرك، فأخبره فقال الرسول: إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه. وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت،

---

(١) حديث ابن عمر «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار. . . فذكر الحديث بطوله رواه البخاري.

(٢) حديث «لك الأولى وليست لك الثانية» أي النظرة أخرجه أبو داود الترمذي من حديث بريدة قاله لعلي قال الترمذي حديث غريب.

فنظرت إليه إمرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له: يا فتى إسمع مني كلمات أكلمك بها ثم أعمل ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى إسمع مني كلمات أكلمك بها، فأطرق ملياً وقال لها: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً، فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوق العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها، وجملة ما أقول لك إن جوارحي كلها مشغولة بك فالله الله في أمري وأمرك، قال: فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي! فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله، وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إعلمي أيتها المرأة أن الله عزّ وجلّ إذا عصاه العبد حلم فأذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه، فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما ذكرت حقاً فإني أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم المرضة والأوجاع المرمضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقوله تعالى: ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ فأين المهرب من هذه الآية؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت: يا فتى لا ترجع فلا كان المتلقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى، ثم بكت بكاء شديداً وقالت: أسأل لك الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك، ثم إنها تبعته وقالت: أمنن عليَّ بموعظة أحملها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها، فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ قال: فأطرقت وبكت بكاء شديداً أشدّ من بكائها الأول، ثم إنها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت في العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمداً، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكي، فيقال له: مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك؟ فيقول: إني قد ذبحت طمعها في أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى فأنا أستحي منه أن أسترد ذخيرة أدخرتها عنده تعالى.

تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه. يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليمًا كثيراً .

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعدله، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله، وعلمه البيان فقدمه به وفضله، وأفاض علي قلبه خزائن العلوم فأكمله، ثم أرسل عليه ستراً من رحمته وأسبله، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله، ويكشف عنه ستره الذي أرسله، وأطلق بالحق مقوله، وأفصح بالشكر عما أولاه

وخوله، من علم حصله ونطق سهله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه وبجله، ونبيه الذي أرسله بكتاب أنزله، وأسمى فضله وبين سبله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وهلله.

أما بعد: فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفة ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الإحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان. ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها، ونعرف طريق الإحتراز عنها، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها. فنذكر أولاً فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعني، ثم آفة فضول الكلام، ثم آفة الخوض في الباطل، ثم آفة المراء والجدال؛ ثم آفة الخصومة، ثم آفة التقعر في الكلام والتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرّت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، ثم آفة الغناء بالشعر ـ وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده ـ ثم آفة المزاح، ثم آفة السخرية والاستهزاء، ثم آفة إفشاء السر، ثم آفة الوعد الكاذب، ثم آفة الكذب في القول واليمين، ثم بيان التعاريض في الكذب، ثم آفة الغيبة، ثم آفة النميمة، ثم آفة ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه، ثم آفة المدح، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عزّ وجلّ وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة؟ وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم: «من صمت نجا[1]» وقال عليه السلام: «الصمت حكم وقليل فاعله[2]» أي

---

(١) حديث «من صمت نجا» أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد.

(٢) حديث «الصمت حكمة وقليل فاعله» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ «حكم» بدل «حكمة» وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حيان في كتاب روضة العقلاء بسند صحيح إلى أنس.

حكمة وحزم. وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: قلت يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» قلت فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه[1] وقال عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وأبك على خطيئتك[2]» وقال سهل ابن سعد الساعدي. قال رسول الله ﷺ: «من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة[3]» وقال ﷺ: «من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله[4]» القبقب: هو البطن والذبذب: الفرج، والقلقل؛ اللسان. فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال: «الأجوفان: الفم والفرج[5]» فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه؛ فقد قال معاذ بن جبل: قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن جبل وهو يكب الناس في النارعلى مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟[6]» وقال عبد الله الثقفي: قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به فقال: «قل ربي الله ثم استقم» قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسانه وقال: «هاذ[7]» وروى أن معاذاً قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه[8] وقال أنس بن مالك: قال ﷺ «لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه[9]» وقال ﷺ: «من سره أن يسلم فليلزم الصمت[10]» وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أصبح إبن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول إتق الله فينا فإنك إن استقمت إستقمنا وإن أعوججت أعوججنا[11]» وروي أن عمربن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله قال؛ هذا أوردني الموارد إن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدّته[12]» وعن ابن مسعود أنه كان على

---

(١) حديث سفيان الثقفي: أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك. . . الحديث. أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان.

(٢) حديث عقبة بن عامر: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أملك عليك لسانك. . . الحديث» أخرجه الترمذي وقال حسن.

(٣) حديث سهل بن سعد «من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة» رواه البخاري.

(٤) حديث «من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقمقه. . الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ «فقد وجبت له الجنة».

(٥) حديث: سئل عن أكثر ما يدخل الجنة. . . الحديث: أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث معاذ: قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٧) حديث عبد الله الثقفي: قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به. . . الحديث. رواه النسائي قال ابن عساكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقفي كما رواه الترمذي وصححه ابن ماجه وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث.

(٨) حديث: إن معاذ قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه. أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت قال «أصبعه» مكان «يده».

(٩) حديث أنس «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه. . . الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف.

(١٠) حديث «من سره أن يسلم فليلزم الصمت» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(١١) حديث «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان. . . الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعاً وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه ورواه الترمذي موقوفاً على عمار بن زيد وقال هذا أصح.

(١٢) حديث: إن عمر أطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: إن هذا أوردني الموارد إن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عزّ وجل اللسان على حدته» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلي في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر، وقال الدارقطني إن المرفوع وهم على الدراوردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له.

الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه[١]» وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره[٢]» روي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله أوصني قال: «أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله» وأشار بيده إلى لسانه[٣] وعن صفوان بن سليم قال. قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن. الصمت وحسن الخلق[٤]».

وقال أبو هريرة. قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت[٥]» وقال الحسن: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم[٦]» وقيل لعيسى عليه السلام: دلنا على عمل ندخل به الجنة قال: لا تنطقوا أبداً، قالوا: لا نستطيع ذلك، فقال: فلا تنطقوا إلا بخير. وقال سليمان بن داود عليهما السلام: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وعن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة، قال «أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير[٧]» وقال ﷺ: «اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان[٨]» وقال ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم ما يقول» وقال عليه السلام: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة[٩]» وقال ابن مسعود، قال رسول الله ﷺ: «الناس ثلاثة: غانم وسالم وشاحب. فالغانم الذي يذكر الله تعالى، والسالم الساكت، والشاحب الذي يخوض في الباطل[١٠]» وقال عليه السلام: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه[١١]» وقال عيسى عليه السلام: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس. وقال نبينا ﷺ: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به[١٢]».

---

(١) حديث ابن مسعود: أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم. وفيه مرفوعاً «إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه». أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن.

(٢) حديث ابن عمر «من كف لسانه ستر الله عورته الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن.

(٣) حديث: إن معاذ قال أوصني قال «أعبد الله كأنك تراه... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورجاله ثقات وفيه انقطاع.

(٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعاً «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق» أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضاً مرفوعاً.

(٥) حديث أبي هريرة «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت» متفق عليه.

(٦) حديث الحسن: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين.

(٧) حديث البراء: جاء أعرابي فقال دلني على عمل يدخلني الجنة قال «أطعم الجائع... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

(٨) حديث «اخزن لسانك إلا من خير... الحديث» أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر.

(٩) حديث «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة» وقد تقدم.

(١٠) حديث ابن مسعود «الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب... الحديث» أخرجه الطبراني وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ «المجالس» وضعفه ابن عدي ولم أجده «ثلاثة» من حديث ابن مسعود.

(١١) حديث «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه... الحديث» لم أجده مرفوعاً وإنما رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال «كانوا يقولون».

(١٢) حديث «من كثر كلامه كثر سقطه...» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حيان في روضة العقلاء والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب.

الآثار: كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال طاوس: لساني سبع إن أرسلته أكلني. وقال وهب بن منبه: في حكمة آل داود؛ حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه. وقالّ الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين؛ السلام في دينه والفهم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقيل: أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة. وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات. فهذه آفات كثيرة وهي ساقة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم ـ كما سيأتي تفصيله ـ ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلام من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة. فقد قال الله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾.

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلا بدّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر.

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والإشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام إمتزاجاً يخفي دركه فيكون الإنسان به مخاطراً. ومن عرف دقائق آفات اللسان ـ على ما سنذكره ـ علم قطعاً أن ما ذكره ﷺ هو فصل الخطاب حيث قال: «من صمت نجا[1]» فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعاً وجوامع الكلم[2] ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء وفيما سنذكره من الآفات وعسر الإحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) حديث «من صمت نجا» تقدم.
(٢) حديث: أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدىء بأخفها ونترقى إلى الأغلظ قليلاً، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى.

الآفة الأولى. الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك فكم من كلمة يبني بها قصراً في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسرانا مبيناً. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإنّ المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً[1] هكذا قال النبي ﷺ: «بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله. ولهذا قال النبي ﷺ: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[2]» بل ورد ما هو أشدّ من هذا قال أنس: إستشهد غلام منايوم أحد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئاً لك الجنة يا بني، فقال ﷺ: «وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره؟[3]» وفي حديث آخر: أنّ النبي ﷺ فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال « أبشر يا كعب» فقالت أمه هنيئاً لك الجنة يا كعب فقال ﷺ: «من هذه المتألية على الله»؟ قال: هي أمي يا رسول الله قال: «وما يدريك يا أم كعب لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو ما لا يغنيه[4]» ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه غير مباح فلا تهيأ الجنة مع مناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب. وعن محمد بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة» فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك وقالوا: أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به فقال: إني لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني[5]» وقال أبو ذرّ: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان» قلت: بلى يا رسول الله قال: «هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك[6]» وقال مجاهد. سمعت ابن عباس يقول خمس لهنّ أحب إليّ

---

(١) حديث «المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً» لم أجد له اصلاً وروى محمد بن زكريا العلائي أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله ﷺ فقال: «إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ونظري عبرة».

(٢) حديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع... الحديث وفيه «لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره» أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصراً وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف.

(٤) حديث: أن النبي ﷺ فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض... الحديث وفيه «لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرمة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوى عنه.

(٥) حديث محمد بن كعب «إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة» فدخل عبد الله بن سلام الحديث. وفيه: إن أوفق ما أرجوه سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً وفيه أبو نجيح اختلف فيه.

(٦) حديث أبي ذر: «ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن... الحديث» وفيه «هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك» أخرجه ابن أبي الدنيا بسند منقطع.

من الدهم الموقوفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليمًا ولا سفيهاً فإنّ الحليم يقليك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام. وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لايعنيني. وقال مورق العجلي: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني، وقال عمر رضي الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكتّ عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر. وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك - وأني تسلم من الآفات التي ذكرناها - ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما يتطرّق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات. فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال نعم، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذباً، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عبادته، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه. وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له: ماذا تقول؟ وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول: من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه.. وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسؤول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري، فيجيب عن غير بصيرة.

ولست أعني بالتكلم فيما لا يعني هذه الأجناس، فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أو ضرر. وإنما مثال ما لا يعني ما روى أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال: نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله، أي حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال. وقيل إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال. فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يعني وتركه من حسن الإسلام فهذا حدّه.

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله. وأن

لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين. هذا علاجه من حيث العلم. وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جداً.

الآفة الثانية: فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره. ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول - أي فضل عن الحاجة - وهو أيضاً مذموم - لما سبق - وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. قال عطاء بن أبي رباح: إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه. وعن بعض الصحابة قال: إنّ الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً. وقال مطرف: ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: اللهم أخزه وما أشبه ذلك.

واعلم أنّ فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عزّ وجلّ: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال ﷺ: «طوبي لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله[1]» فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا: أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغرّاء وأنت وأنت فقال «قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان[2]» إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها. وقال إبن مسعود: أنذركم فضول كلامكم؛ حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته. وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول، أبتاع لك كذا وكذا؟ فيكتب كذاباً. وقال الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل. وروي أنّ سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه، فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأل سليمان عن ذلك فقال: عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون! وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا

الآفة الثانية. فضول الكلام

(١) حديث «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله» أخرجه البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة والبيهقي من حديث ركب المصري وقال ابن عبد البر إنه حديث حسن وقال البغوي: لا أدري سمع من النبي ﷺ أم لا وقال ابن منده مجهول لا نعرف له ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا... الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً. وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه، وقال عمرو بن دينار: تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر فقال له ﷺ: «كم دون لسانك من حجاب»؟ فقال: شفتاي وأسناني، قال: «أفما كان لك ما يرد كلامك[1]» وفي رواية: أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ثم قال: ما أوتي رجل شراً من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة. وقال بعض الحكماء: إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم. وقال يزيد بن أبي حبيب: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الإستماع فإن وجد من يكفيه فإن في الإستماع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء إمرأة سليطة فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها. وقال إبراهيم: يهلك الناس خلتان: فضول المال وفضول الكلام. فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه. وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكة بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالإقتصاد على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة[2]» وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث. وقال النبي ﷺ؛ «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا[3]» وقال أبو هريرة إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بإلا يرفعه الله بها في أعلى الجنة. وقال ﷺ: «أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل[4]» وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ وبقوله تعالى؛ ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾ وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله. وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول لهم توضؤا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث. فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة

---

(١) حديث عمرو بن دينار: تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر فقال «كم دون لسانك من حجاب. . . الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات.

الآفة الثالثة. الخوض في الباطل

(٢) حديث بلال بن الحارث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله. . . الحديث» أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح.

(٣) حديث «إن الرجل ليتكلم الكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذي «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار» لفظ الترمذي وقال حسن غريب.

(٤) حديث «أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح.

دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

الآفة الرابعة المراء والجدال

وذلك منهى عنه قال ﷺ: «لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه[1]» وقال عليه السلام؛ «ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته[2]» وقال ﷺ: «من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة[3]» وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال[4]» وقال أيضاً «ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل[5]» وقال أيضاً «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقاً[6]» وقال أيضاً «ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان؛ الصيام في الصيف، وضرب أعداء الله بالسيف، و تعجيل الصلاة في اليوم الدجن، والصبر على المصيبات، وإسباغ الوضوء على المكاره، وترك المراء وهو صادق[7]» وقال الزبير لابنه: لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة. وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل. وقال مسلم بن يسار: إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل. وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال أيضاً: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته. وقال سفيان: لو خالفت أخي في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بي إلى السلطان. وقال أيضاً: صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش. وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه. وقال أبو الدرداء؛ كفى بك إثما لا تزال ممارياً. وقال ﷺ: «تكفير كل لحاء ركعتان[8]» وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث. لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به. ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه. وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مرؤته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه. وقيل لميمون بن مهران: مالك لا تترك أخاك عن قلى؟

الآفة الرابعة. المراء والجدال

(١) حديث « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم.

(٢) حديث «ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته» أخرجه الطبراني من حديث أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود.

(٣) حديث «من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة... الحديث» تقدم في العلم.

(٤) حديث أم سلمة «إن أول ما عهد إلّي ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم.

(٥) حديث «ما ضل قوم إلا أوتوا الجدل» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وزاد «بعد هدى كانوا عليه» وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف.

(٦) حديث «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وإن كان محقاً» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ «لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاحة والمراء وإن كان صادقاً».

(٧) حديث «ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان... الحديث» وفيه «وترك المراء وهو صادق» أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ «خصال من الخير... الحديث».

(٨) حديث «تكفير كل لحاء ركعتان» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

قال: لأني لا أشاريه ولا أماريه. وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى.

وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم وترك المراء بترك الإنكار والإعتراض. فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه.

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير. وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان. وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله.

وأما في المعنى: فبأن يقول ليس كما تقول؛ وقد أخطأت فيه من وجهه كذا وكذا.

وأما في قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الإستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عند المجادل، يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه. وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. أما إظهار الفضل: فهو من قبل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية. وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنما قوّتها المراء والجدال. فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة، وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير. ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصوّر له؛ فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره ـ كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب ـ فإن علاج كل علة بإماطة سببها. وسبب المراء والجدال ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه.

روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال أحضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ عليّ منها. وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جداً. ولذلك قال ﷺ: «من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة» لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد. فإن المراء طبع؛ فإذا ظن أن له عليه ثواباً إشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه، وذلك خطأ محض بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعاً تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبة على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد فإذا عرف أن النصح لا ينفع إشتغل بنفسه

وتركه، وقال ﷺ: «رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه[1]» وقال هشام بن عروة. كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات: وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عـزا وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل. وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها؟

الآفة الخامسة: الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء؛ فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير. وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بـإظهار المـذاهب وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق. فقد قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم[2]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع[3]» وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. ويقال: ما خاصم ورع قط في الدين. وقال ابن قتيبة: مربي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال: ما يجلسك ههنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي يداً وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئاً إذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة؟ قال: فقمت لأنصرف فقال لي خصمي: مالك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت: لا ولكن أكرم نفسي عن هذا قال: فإني لا أطلب منك شيئاً هو لك.

فإن قلت. فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم؛ مثل وكيل القاضي فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان؟ فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسر عرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد و إسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الإعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين

---

(١) حديث «رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه» أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي ﷺ مرسلاً ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ «رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين» وهو منقطع وضعيف جداً.

الآفة الخامسة: الخصومة

(٢) حديث عائشة «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» أخرجه البخاري وقد تقدم.
(٣) حديث أبي هريرة «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع» أخرجه ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب الترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور.

المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته، إلا أنه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركاً للأولى ولا يكون آثماً، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والإعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام. وقد قال ﷺ: «يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام[1]» وقد قال الله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سلم عليك من خلق الله فأردد عليه السلام وإن كان مجوسياً إن الله تعالى يقول: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ وقال ابن عباس أيضاً: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه. وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام[2]» وروي أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال. مر بسلام، فقيل. يا روح الله أتقول هذا للخنزير؟ فقال. أكره أن أعود لساني الشر. وقال نبينا عليه السلام: «الكلمة الطيبة صدقة[3]» وقال: «إتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة[4]» وقال عمر رضي الله عنه البر شيء هين وجه طليق وكلام لين. وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وقال بعض الحكماء: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً، فإنه يعوضك منه ثواب المحسنين. وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

الآفة السادسة

التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدّمات وما جرى به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة. وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «أنا وأتقياء أمتي برءاء من التكلف» وقال ﷺ: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام[5]» وقالت فاطمة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: «شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام[6]» وقال ﷺ: «ألا هلك المتنطعون ـ

---

(١) حديث «يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام» أخرجه الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هانىء أبي شريح بإسناد جيد «يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام».

(٢) حديث أنس «إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها. . . الحديث» أخرجه الترمذي وقد تقدم.

(٣) حديث «الكلمة الطيبة صدقة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث «اتقوا النار ولو بشق تمرة. . . الحديث» متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وقد تقدم.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام والتشدق

(٥) حديث «إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند الترمذي من حديث جابر وحسنه بلفظ «إن أبغضكم إلي».

(٦) حديث فاطمة: شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم. الحديث وفيه «ويتشدقون» أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب.

ثلاث مرات ـ [(١)]» والتنطع هو التعمق والإستقصاء. وقال عمر رضي الله عنه: شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان. وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد: ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها[(٢)]» وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبب والمقدّمة المصنوعة المتكلفة. وهذا أيضاً من آفات اللسان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات «إذ قضى رسول الله ﷺ بغرّة في الجنين فقال بعض قوم الجاني: كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهلّ ومثل ذلك بطل؟ فقال: «أسجعاً كسجع الأعراب[(٣)]» وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده: ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم. ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به. فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والإشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهي عنه ومصدره الخبث واللؤم قال ﷺ: «إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش[(٤)]» ونهى رسول الله ﷺ عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال: «لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم[(٥)]» وقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء[(٦)]» وقال ﷺ: «الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها[(٧)]» وقال ﷺ: «أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور: رجل يسيل فوه قيحاً ودماً فيقال له ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث[(٨)]» وقال ﷺ لعائشة يا عائشة: «لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء[(٩)]» وقال ﷺ: «البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق[(١٠)]»فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز

---

(١) حديث «ألا هلك المتنطعون» من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث سعد «يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها» رواه أحمد.

الآفة السابعة. الفحش والسب وبذاءة اللسان

(٣) حديث: كيف ندي من لا شرب ولا أكل... الحديث. أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلها عند البخاري أيضاً.

(٤) حديث «إياكم والفحش... الحديث» أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حيان من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: النهي عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلاً ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح: إن رجلاً وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه... الحديث» وفيه «لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا».

(٦) حديث «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولاالبذيء» أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروى موقوفاً قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح.

(٧) حديث «الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها» أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو.

(٨) حديث «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى... الحديث» وفيه «إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع واختلف في صحبته فذكره أبو نعيم في الصحابة وذكره البخاري وابن حيان في التابعين.

(٩) حديث «يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء» أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها.

(١٠) حديث «البذاء والبيان شعبتان من النفاق» أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه على شرطها من حديث أبي أمامة وقد تقدم.

كشفه، ويحتمل أيضاً المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حدّ التكلف، ويحتمل أيضاً البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى، فإن إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب، ولكن ذكره مقروناً بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان، وقال ﷺ: «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق[1]» وقال جابر بن سمرة: كنت جالساً عند النبي ﷺ وأبي أمامي فقال ﷺ: «إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً[2]» وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب. وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الداء: اللسان البذي والخلق الداني.

فهذه مذمة الفحش فأما حدّه وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها. ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها، وقال ابن عباس: إن الله حي كريم يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة. وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض. وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها، وليس يختص هذا بالوقاع، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوّط والخراء وغيرهما، فإن هذا أيضاً مما يخفي وكل ما يخفي يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال: قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجرة، أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد. فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير. بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه، فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان.

قال العلاء بن هرون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه: فخرج تحت إبطه خرّاج فأتيناه نسأله لنرى ما يقول؟ فقلنا: من أين خرج؟ فقال: من باطن اليد. والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الإعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب. وقال أعرابي لرسول الله ﷺ: أوصني فقال: «عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيئاً» قال: فما سببت شيئاً بعده[3] وقال عياض بن حمار: قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل على من بأس أن أنتصر منه؟ فقال: «المتسابان شيطانان يتعاويان ويتهارجان[4]» وقال ﷺ: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر[5]» وقال ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدي

---

(١) حديث «إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الأسواق» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف له وللطبراني من حديث أسامة بن زيد «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش» وإسناده جيد.

(٢) حديث جابر بن سمرة «إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء... الحديث» أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

(٣) حديث: قال أعرابي أوصني فقال «عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه. الحديث» أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي قيل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر.

(٤) حديث عياض ابن حمار: قلت يا رسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل على من بأس أن أنتصر منه؟ فقال «المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران» أخرجه أبو داود والطيالسي وأصله عند أحمد.

(٥) حديث «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» متفق عليه من حديث ابن مسعود.

المظلوم[1]» وقال ﷺ: «ملعون من سب والديه[2]» وفي رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه»قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه».

الآفة الثامنة: اللعن

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم. قال رسول الله ﷺ: «المؤمن ليس بلعان[3]» وقال ﷺ: «لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم[4]» وقال حذيفة: ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول. وقال عمران بن حصين: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ: «خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة[5]» قال: فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد. وقال أبو الدرداء: ما لعن أحد الأرض إلا قالت: لعن الله أعصانا لله: وقالت عائشة رضي الله عنها: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال: «يا أبا بكر أصدّيقين ولعانين كلا ورب الكعبة ـ مرتين أو ثلاثا ـ[6]» فأعتق أبو بكر يومئذٍ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال: «لا أعود. وقال رسول الله ﷺ: «إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة[7]» وقال أنس: كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ: «يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون[8]» وقال ذلك إنكاراً عليه. واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزّ وجلّ وهو الكفر والظلم، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطراً لأنه حكم على الله عزّ وجلّ بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه.

والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق. و للعن في كل واحدة ثلاث مراتب.

الأولى: اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله الكافرين والمبتدعين والفسقة.

الثانية: اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا، وكل ذلك جائز. ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعاً بين الناس وفساداً.

---

(١) حديث «المستبان ما قالا فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال «ما لم يعتد».

(٢) حديث «ملعون من سب والديه» وفي رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه... الحديث» أخرجه أحمد وأبو يعلي والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو.

الآفة الثامنة. اللعن

(٣) حديث «المؤمن ليس بلعّان» تقدم حديث ابن مسعود «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان... الحديث» قبل هذا بأحد عشر حديثاً وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر «لا يكون المؤمن لعاناً».

(٤) حديث «لا تلاعنوا بلعنة الله... الحديث» أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) حديث عمران بن حصين: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها... الحديث» رواه مسلم.

(٦) حديث عائشة: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن **رقيقه** فالتفت إليه فقال «يا أبا بكر لعانين وصديقين... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه.

(٧) حديث «إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة» أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء.

(٨) حديث أنس: كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون» أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

الثالثة: اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً فتجوز لعنته كقولك. فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً وأما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله فكيف يحكم بكونه ملعوناً؟.

فإن قلت: يلعن لكونه كافراً في الحال كما يقال للمسلم: رحمه الله، لكونه مسلمًا في الحال، وإن كان يتصور أن يرتد؟ فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله: أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر، بل الجائز أن يقال: لعنه الله إن مات على الكفر، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام. وذلك غيب لا يدري، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر. وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى، فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قوماً باللعن فكان يقول في دعائه على قريش: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة[1]» وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إنّ من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روي: أنه كان يلعن الذي قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً فنزل قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون[2]﴾ يعني أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، فإن كان لم يجز كما روى أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مربه وهو يريد الطائف فقال. هذا قبر رجل كان عاتياً على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص، فغضب إبنه عمرو بن سعيد وقال: يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر. يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام؟ فقال ﷺ: «أكفف عن أبي بكر» فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال: «يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء» فكف الناس عن ذلك[3]» وشرب نعيمان الخمر فحدّ مرات في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة. لعنه الله ما أكثر ما يؤ تى به فقال ﷺ: «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك[4]» وفي رواية «لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله» فنهاه عن ذلك، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز. وعلى الجمله ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره.

---

(١) حديث «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة» وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث: أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً فنزل قوله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ اخرجه الشيخان من حديث أنس: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحاً... الحديث. وفي رواية لهما: قنت شهراً يدعو على رعل وذكوان... الحديث. ولهما من حديث أبي هريرة: وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه.. الحديث «اللهم العن لحيان ورعلا» وفيه «ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء» لفظ مسلم.

(٣) حديث: إن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال: هذا قبر رجل كان عاتياً على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه... الحديث» أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر: لمن هذا القبر؟ قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر: لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يحاهد الله ورسوله... الحديث. وفيه «فإذا سببتم المشركين فسبوهم جميعاً».

(٤) حديث: شرب نعمان الخمر فحد مرات في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة: لعنة الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله ﷺ «لا نكن عوناً للشيطان على أخيك» وفي رواية: «لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله» أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلاً ومحمد هذا ولد في حياته ﷺ وسماه محمداً وكناه عبد الملك وللبخاري من حديث عمر: أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يضحك رسول الله ﷺ. وكان قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم: أللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله» من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه «لا تعينوا عليه الشيطان» وفي رواية «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم».

فإن قيل. هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمر به؟ قلنا. هذا لم يثبت أصلاً فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت، فضـ عن اللعنة، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غيـر تحقيق. نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواتراً. فلا يجوز أن يرمي مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق قال ﷺ: «لا يرمي رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا أرتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك[1]» وقال ﷺ: «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما، إن كان كافراً فهو كما قال. وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه[2]» وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً. وقال معاذ: قال لي رسول الله ﷺ: «أنهاك أن تشتم مسلمًا أو تعصي إماماً عادلاً، والتعرض للأموات أشدّ[3]» قال مسروق دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت. ما فعل فلان لعنه الله؟ قلت توفي قالت: رحمه الله، قلت: وكيف هذا؟ قالت: قال رسول الله ﷺ؛ «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا[4]» وقال عليه السلام: «لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء[5]» وقال عليه السلام: «أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبوهم، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً[6]».

فإن قيل؛ فهل يجوز أن يقال. قاتل الحسين لعنه الله؟ أو الآمـر بقتله لعنه الله؟ قلنا. الصواب أن يقال. قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة، فإن وحشياً قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً ولا يجوز أن يلعن، والقتل كبيرة ولا تنتهي إلى رتبة الكفر، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى.

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها. والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين. فالاشتغال بذكر الله أولى فإن لم يكن ففي السكوت سلامة.

قال مكي بن إبراهيم. كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا. يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك، فقال: إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله ولعن الله فلاناً، فلأن يخرج من صحيفتي لا آله إلاّ الله، أحب إلي من أن يخرج منها لعن الله فلاناً. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني فقال: «أوصيك أن لا تكون لعاناً[7]» وقال ابن عمر: إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان. وقال بعضهم لعن المؤمن يعد قتله، وقال حماد بن زيد بعد أن روى

---

(١) حديث «لا يرمي رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك» متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق.

(٢) حديث «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف.

(٣) حديث معاذ «أنهاك أن تشتم مسلمًا أو تعصى إماماً عادلاً» أخرجه أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل.

(٤) حديث عائشة «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» أخرجه البخاري وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة.

(٥) حديث «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء» أخرجه الترمذي من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم.

(٦) حديث «أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبوهم، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصاري «احفظوني في أصحابي وأصهاري» وإسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة «لا تسبوا أصحابي» ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم» وللنسائي من حديث عائشة «لا تذكروا موتاكم إلا بخير» وإسناده جيد.

(٧) حديث قال رجل: أوصني قال «أوصيك أن لا تكون لعاناً» أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرموز الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم.

هذا لو قلت إنه مرفوع لم أبال؟ وعن أبي قتادة قال: كان يقال «من لعن مؤمناً فهو مثل أن يقتله[1]» وقد نقل ذلك حديثاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلاً: لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله وما يجري مجراه، فإن ذلك مذموم. وفي الخبر «إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة[2]».

الآفة التاسعة: الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرّد له مذموم. قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً[3]» وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر. وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال: اجعل مكان هذا ذكرا فإن ذكر الله خير من الشعر وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال ﷺ: «إن من الشعر لحكمة[4]» نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب، وقد يدخله الكذب، وقد أمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح[5] فإنه وإن كان كذباً فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر:

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً، وإن كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته. وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله ﷺ لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه. قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت جالسةأغزل، فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً قالت: فبهت فنظر إليَّ فقال: «مالك بهت؟» فقلت: يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره قال: «وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي» قلت: يقول هذين البيتين:

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع ﷺ ما كان بيده وقام إليَّ وقبل ما بين عيني وقال: «جزاك الله خيراً يا عائشة ما سررت مني كسروري منك[6]» ولما قسم رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره:

---

(١) حديث «لعن المؤمن كقتله» متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك.

(٢) حديث «إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة» لم أقف له على أصل وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

الآفة التاسعة. الغناء والشعر

(٣) حديث «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يربه خير من أن يمتلىء شعراً» أخرجه مسلم من حديث سعيد بن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد.

(٤) حديث «إن من الشعر لحكمة» تقدم في العلم وفي آداب السماع.

(٥) حديث أمره حساناً أن يهجو المشركين. متفق عليه من حديث البراء أنه ﷺ قال لحسان «أهجهم وجبريل معك».

(٦) حديث عائشة: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أعزل قالت: فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً... الحديث. =

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال ﷺ: «إقطعوا عني لسانه» فذهب به أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع وهو من أرضي الناس، فقال له ﷺ: «أتقول في الشعر؟ فجعل يعتذر إليه ويقول: بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر دبيباً على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النمل فلا أجد بداً من قول الشعر، فتبسم ﷺ وقال: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين[١]».

الآفة العاشرة: المزاح

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه قال ﷺ: «لا تمار أخاك ولا تمازحه[٢]» فإن قلت: المماراة فيها إيذاء لأنّ فيها تكذيباً للأخ والصديق أو تجهيلاً له وأما المزاح فمطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه؟ فاعلم أنّ المنهى عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه. أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينه في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار. فما يخلو عن هذا الأمور فلا يذم كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً[٣]» إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان. وقد قال رسول الله ﷺ: «إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي في النار أبعد من الثريا[٤]» وقال عمر رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه. ولأنّ الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً[٥]» وقال رجل لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قيل فما رؤى ضاحكاً حتى مات. وقال يوسف بن أسباط: أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك. وقيل أقام عطاء

= وفيه إنشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي:

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(١) حديث: لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعر:

وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال ﷺ «اقطعوا عني لسانه الحديث» أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينه والأقرع
وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله ﷺ مائة وزاد في رواية أعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة «اقطعوا عني لسانه» فليست في شيء من الكتب المشهورة.

الآفة العاشرة. المزاح

(٢) حديث «لا تمار أخاك ولا تمازحه» أخرجه الترمذي وقد تقدم.

(٣) حديث «إني أمزح ولا أقول إلا حقاً» تقدم.

(٤) حديث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساء يهوي بها في النار أبعد من الثريا» تقدم.

(٥) حديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» متفق عليه من حديث أنس وعائشة.

السلمي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال: إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين؟ وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين؟ وكان عبد الله بن أبي يعلي يقول: أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار؟ وقال ابن عباس: من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي. وقال محمد بن واسع: إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من بكائه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه؟ فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكاً، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السنّ ولا يسمع له صوت. وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ[1] قال القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي ﷺ ليسأله يفرّ به فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون منه، ففعل ذلك مراراً ثم وقصه فقتله فقيل: يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك، فقال «نعم، وأفواهكم ملأى من دمه[2]» وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه: من مزح استخف به. وقال محمد بن المنكدر: قالت لي أمي يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عندهم وقال سعيد بن العاص لأبنه: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجترىء عليك. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: إتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينه ويجرّ إلى القبيح، تحدّثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال. وقال عمر رضي الله عنه: أتدرون لم سمي المزاح مزاحاً؟ قالوا لا، قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح. ويقال: المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء.

* فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه؟ فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذي قلباً ولا تفرّط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأنّ رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا[3] نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا فقال: «إن وإن داعبتكم لا أقول إلا حقاً[4]» وقال عطاء: إنّ رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله ﷺ يمزح؟ فقال: نعم، قال: فما كان مزاحه؟ قال: كان مزاحه أنه ﷺ كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها: «إلبسيه واحمدي وجرّي منه ذيلاً كذيل العروس[5]» وقال أنس: إن النبي ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه[6] وروى أنه كان كثير التبسم[7] وعن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها ﷺ: «لا يدخل الجنة عجوز» فبكت فقال: «إنك لست بعجوز يومئذٍ، قال الله تعالى: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾[8]» وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي ﷺ

---

(١) حديث: كان ضحكه التبسم. تقدم.

(٢) حديث القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوص صعب له فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي ﷺ ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي ﷺ يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله، فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال «نعم وأفواهكم ملأى من دمه» أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل.

(٣) حديث: إذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد تقدم.

(٤) حديث أبي هريرة: قالوا إنك تداعبنا قال «إني وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً» أخرجه الترمذي وحسنه.

(٥) :حديث عطاء: إن رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله ﷺ يمزح؟ فقال ابن عباس: نعم... الحديث. فذكر منه قوله لامرأة من نسائه «ألبسيه واحمدي وجري منه ذيلاً كذيل العروس» لم أقف عليه.

(٦) حديث أنس: كان من أفكه الناس. تقدم.

(٧) حديث «أنه كان كثير التبسم» تقدم.

(٨) حديث الحسن «لا يدخل الجنة عجوز» أخرجه الترمذي في الشمائل هكذا مرسلاً وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف.

فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: «ومن هو أهو الذي بعينه بياض؟» قالت: والله ما بعينه بياض! فقال: «بلى إن بعينه بياضاً» فقالت: لا والله، فقال ﷺ: «ما من أحد إلا وبعينه بياض» وأراد به البياض المحيط بالحدقة[1] وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله إحملني على بعير فقال: «بل نحملك على ابن البعير» فقالت ما أصنع به إنه لا يحملني فقال ﷺ: «ما من بعير إلا وهو ابن بعير[2]» فكان يمزح به وقال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول؛ «يا أبا عمير ما فعل النغير[3]» لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور. وقالت عائشة رضي الله عنها: خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال: «تعالي حتى أسابقك« فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطاً فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال: «هذه مكان ذي المجاز[4]» وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذي المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال «أعطينيه» فأبيت وسعيت وسعى في أثري فلم يدركني وقالت أيضاً: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملت اللحم سابقني فسبقني، وقال: «هذه بتلك[5]» وقالت أيضاً رضي الله عنها. كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة: كلي، فقالت لا أحبّه، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك[6] وروي أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلاً دميًا قبيحاً، فلما بايعه النبي ﷺ قال: «إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء ـ وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب ـ أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوّجها وعائشة جالسة تسمع، فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه لأنه كان دميًا[7]. وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه للحسن ابن علي عليهما السلام فيرىَ الصبي لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكونن لي الإبن قد تزوّج وبقل وجهه وما قبلته قط! فقال ﷺ: «إنّ من لا يرحم لا يرحم[8] فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال ﷺ مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً «أتأكل التمر وأنت رمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله فتبسم ﷺ[9]» قال.

---

(١) حديث زيد بن أسلم: في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجي يدعوك «أهو الذي بعينه بياض... الحديث» أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف.

(٢) حديث: قوله لامرأة استحملته «نحملك على ابن البعير... الحديث» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ «أنا حاملك على ولد الناقة».

(٣) حديث أنس «أبا عمير ما فعل النغير؟» متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة.

(٤) حديث عائشة: في مسابقته ﷺ في غزوة بدر فسبقها وقال «هذه مكان ذي المجاز» لم أجد له أصلاً ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر.

(٥) حديث عائشة: سابقني فسبقته. أخرجه النسائي وابن ماجه وقد تقدم في النكاح.

(٦) حديث عائشة: في لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل ﷺ يضحك. أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد.

(٧) حديث: إن الضحاك بن سفيان الكلابي قال عندي امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة ـ قبل أن يضرب الحجاب ـ فقالت أهي أحسن أم أنت؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضك النبي ﷺ لأنه كان دميًا. أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلاً أو معضلاً وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة.

(٨) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة: أنه ﷺ كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي فيهش إليه، فقال عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكون لي الابن رجلاً قد خرج وجهه وما قبلته قط! فقال «إن من لا يَرحم لا يُرحم» أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده. وحكى الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك أحدهما: أنه عيينة بن حصن. والثاني: إنه الأقرع بن حابس. وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حارس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال رسول الله ﷺ «من لا يرحم لا يُرحم».

(٩) حديث: قال لصهيب وبه رمد «أتأكل التمر وأنت رمد؟» فقال: إنما آكل على الشق الآخر. فتبسم النبي ﷺ. أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات.

بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه. وروي أن خوّات ابن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال؛ «يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة؟» فقال يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود، قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال: «يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟»، قال: فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال: فرآني في المسجد يوماً أصلي فجلس إليَّ فطوّلت فقال «لا تطوّل فإني أنتظرك» فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟» قال: فسكت واستحييت، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّر منه حتى لحقني يوماً وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد فقال: «أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟» فقلت والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت فقال «الله أكبر الله أكبر اللهم إهد أبا عبد الله» قال: فحسن إسلامه وهداه الله[1] وكان نعيمان الأنصاري رجلًا مزاحافكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي ﷺ فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة: لعنك الله، فقال النبي ﷺ: «لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله» وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أعطه ثمن متاعه، فيقول له ﷺ: «أو لم تهده لنا» فيقول: يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه، فيضحك النبي ﷺ و يأمر بثمنه[2] فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب.

الآفة الحادية عشر: السخرية والإستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذياً كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ ومعنى السخرية الإستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه: وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة. قالت عائشة رضي الله عنها: حاكيت إنساناً فقال لي النبي ﷺ: «والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا[3]» وقال ابن عباس في قوله تعالى؛ ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ إن الصغيرة التبسم بالإستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك. وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر. وعن عبد الله بن زمعة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال: «علام يضحك أحدكم ما يفعل[4]» وقال ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه

الآفة الحادية عشر: السخرية والإستهزاء

(١) حديث: إن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي ﷺ فقال: «يا أبا عبد الله مالك مع النسوة؟» فقال يفتلن صغير الجمل لي شرود... الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف رجاله ثقات، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات: ربيعة بن عمرو.

(٢) حديث: كان نعيمان رجلاً مزاحاً وكان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي ﷺ فيضربه... الحديث. وفيه: أنه كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي ﷺ ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه... الحدبث. أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن حزم مرسلاً وقد تقدم أوله.
حديث عائشة: حكيت إنساناً فقال لي النبي ﷺ «ما يسرني أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه

(٣) حديث عبد الله بن زمعة: وعظهم في الضحك من الضرطة وقال «علام يضحك أحدكم مما يفعل» متفق.

أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه[1]» وقال معاذ بن جبل: قال النبي ﷺ: «من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله[2]» وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له. وعليه نبه قوله تعالى: ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ أي لا تستحقره استصغاراً فلعله خير منك.

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح ـ وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ـ وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون. وذلك تارة بأن يضحك على ملامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب. فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها.

الآفة الثانية عشر: إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء. قال النبي ﷺ: «إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة[3]» وقال مطلقاً: «الحديث بينكم أمانة[4]» وقال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك. ويروي أن معاوية رضي الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه: يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إليَّ حديثاً وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك؟ قال: فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه قال: فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه؟ فقال: لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر، قال: فأتيت معاوية فأخبرته فقال: يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فإفشاء السر خيانة.

وهو حرام إذا كان فيه إضرار. ولؤم إن لم يكن فيه إضرار. وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة.

الآفة الثالثة عشر: الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ وقال ﷺ: «العدة عطية[5]» وقال ﷺ الوأي مثل

---

(١) حديث «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم فيجيء بكربة وغمه فإذا جاء أغلق دونه. . . الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلاً ورويناه في ثمانيات النجيب من رواية أبي هدية أحد الهالكين عن أنس.

(٢) حديث معاذ بن جبل «من عيرّ أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله» أخرجه الترمذي دون قوله «قد تاب منه» وقال حسن غريب وليس إسناده بمتصل قال أحمد بن منيع قالوا «من ذنب قد تاب منه».

الآفة الثانية عشر. افشاء السر

(٣) حديث«إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر.

(٤) حديث «الحديث بينكم أمانة» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلاً.

الآفة الثالثة عشر. الوعد الكاذب

(٥) حديث «العدة عطية» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلاً.

الدين أو أفضل[1]» والوأي: الوعد. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال: ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ قيل إنه وعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسى، فبقى إسمعيل إثنين وعشرين يوماً في انتظاره. ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال: إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان إليه مني شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق! أشهد كم أني قد زوجته إبنتي. وعن عبد الله بن أبي الخنساء قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه، فقال؛ «يا فتى لقد شققت عليَّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك[2]» وقيل لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء، قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء. وكان رسول الله ﷺ إذا وعد وعداً قال: «عسى[3]» وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى.

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ؛ «ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان[4]» وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر[5]» وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله ﷺ كان وعد أبا الهيثم بن التهيان خادماً؛ فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحداً، فأتت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادماً وتقول: ألا ترى أثر الرحى بيدي؟ فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول «كيف بموعدي لأبي الهيثم؟[6]» فآثره به على فاطمة ـ لما كان قد سبق من موعده له ـ مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة. ولقد كان ﷺ جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعداً يا رسول الله قال: «صدقت، فاحتكم ما شئت» فقال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها، قال: «هي لك» وقال «احتكمت يسيراً[7] ولصاحبة موسى عليه السلام التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكماً منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكمى أن تردني شابة وأدخل معك الجنة» قيل فكان الناس يضعفون ما أحتكم به حتى جعلا مثلاً فقيل: أشح من صاحب الثمانين والراعي. وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن

---

(١) حديث «الوأي مثل الدين أو أفضل» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية أبي لهيعة مرسلاً وقال الوأي يعني الوعد، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف.

(٢) حديث عبد الله بن أبي الخنساء: بايعت النبي ﷺ فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال «يا بني قد شققت عليّ أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك» رواه أبو داود واختلف في إسناده وقال ابن مهدي ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه.

(٣) حديث: كان إذا وعد وعداً قال «عسى» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث أبي هريرة «ثلاث من كن فيه فهو منافق... الحديث» وفيه «إذا وعد أخلف» متفق عليه وقد تقدم.

(٥) حديث عبد الله بن عمرو «أربع من كن فيه كان منافقاً... الحديث» متفق عليه.

(٦) حديث: كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادماً، فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحداً، فجاءت فاطمة تطلب منه... الحديث. وفيه فجعل يقول «كيف بموعدي لأبي الهيثم» فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة.

(٧) حديث: أنه كان جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوق عليه رجل فقال: إن لي عندك موعداً، قال: «صدقت فاحتكم ما شئت... الحديث» وفيه «لصاحبه موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك... الحديث» أخرجه ابن حيان والحاكم في المستدرك من حديث أبي موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر.

يفي[1]» وفي لفظ آخر «إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد، فلا إثم عليه».

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب. قال إسمٰعيل بن واسط: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أوّل ـ ثم بكى ـ وقال: «إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار[2]» وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: «إن الكذب باب من أبواب النفاق[3]» وقال الحسن: كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج، وإن الأصل الذي بنى عليه النفاق الكذب. وقال عليه السلام: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب[4]» وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[5]» ومر رسول الله ﷺ برجلين يتبايعانِ شاة ويتحالفان، يقول أحدهما: والله لا أنقصك من كذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أزيدك على كذا وكذا، بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال «أوجب أحدهما بالإثم والكفارة[6]» وقال عليه السلام: «الكذب ينقص الرزق[7]» وقال رسول الله ﷺ: «إن التجار هم الفجار» فقيل يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال: «نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون[8]» وقال ﷺ: «ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره[9]» وقال ﷺ: «ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة[10]» وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله: رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السري حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض

---

(1) حديث «ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي» وفي لفظ آخر «إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه» أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالا «فلم يفِ».

الآفة الرابعة عشرة. الكذب في القول واليمين

(2) حديث أبي بكر الصديق: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أول ـ ثم بكى ـ وقال «إياكم والكذب الحديث» أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وإنما هو أوسط ابن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن.

(3) حديث أبي أمامة «إن الكذب باب من أبواب النفاق» أخرجه ابن عدي في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهي ضعيف جداً ويغني عنه قوله ﷺ «ثلاث من كن فيه فهو منافق» وحديث «أربع من كن فيه كان منافقاً» قال في كل منها «وإذا حدث كذب» وهما في الصحيحين وقد تقدما في الآفة التي قبلها.

(4) حديث «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب» أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدي ورواه أحمد والطبراني من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد.

(5) حديث ابن مسعود «لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» متفق عليه.

(6) حديث: مر برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان... الحديث، وفيه فقال «أوجب أحدهما بالإثم والكفارة» أخرجه أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناها في أمالي ابن سمعون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ.

(7) حديث «الكذب ينقص الرزق» أخرجه أبو الشيخ في طبقات الأصهانيين من حديث أبي هريرة ورويناه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف.

(8) حديث «إن التجار هم الفجار... الحديث» وفيه «ويحدثون فيكذبون» أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل.

(9) حديث «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل إزاره» أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

(10) حديث «ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة» أخرجه الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث عبد الله بن أنيس.

فنزلوا. فتنحى يصلي حتى يوقظ أصحابه للرحيل. وثلاثة يشنؤهم الله؛ التاجر أو البياع الحلاف. والفقير المختال والبخيل المنان[1] » وقال ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له[2] وقال ﷺ: « رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي قم فقمت معه، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فإذا مدّه رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة[3]» وعن عبد الله بن جراد قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله هل يزيني المؤمن؟ قال: «قد يكون ذلك» قال: يا نبي الله هل يكذب المؤمن؟ قال: «لا» ثم اتبعها ﷺ بقول الله تعالى: ﴿ إنمايفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾[4] وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يدعو فيقول في دعائه: ﴿ اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجي من الزنا ولساني من الكذب[5] ﴾ وقال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر[6]» وقال عبد الله بن عامر: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي. يا عبد الله تعالى حتى أعطيك فقال ﷺ: «وما أردت أن تعطيه» قالت تمراً، فقال: «أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة[7]» وقال ﷺ: «لو أفاء الله علي نعمًا عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً[8]» وقال ﷺ وكان متكئاً: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين» ثم قعد وقال: «إلا وقول الزور[9]» وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به[8]» وقال أنس. قال النبي ﷺ: «تقبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة» فقالوا وما هن؟ قال: «إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم[10]» وقال ﷺ: «إن للشيطان كحلاً ولعوقاً ونشوقاً: أما لعوقه فالكذب، وأما نشوقه فالغضب. وأما كحله فالنوم[11]» وخطب عمر رضي الله عنه يوماً فقال: قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي هذا فيكم فقال: «أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم

---

(١) حديث أبي ذر «ثلاثة يحبهم الله... الحديث» وفيه «وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الحلاف» أخرجه أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد وللنسائي من حديث أبي هريرة «أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف... الحديث» وإسناده جيد.

(٢) حديث «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

(٣) حديث «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس... الحديث» أخرجه البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل.

(٤) حديث عبد الله ابن جراد: أنه سأل النبي ﷺ هل يزني المؤمن؟ قال «قد يكون من ذلك» قال: هل يكذب؟ قال: «لا»... الحديث. أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصراً على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء.

(٥) حديث أبي سعيد «اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجي من الزنا ولساني من الكذب» هكذا وقع في نسخ الإحياء عن أبي سعيد وإنما هو عن أم معبد وكذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله «وفرجي من الزنا» وزاد «وعملي من الرياء وعيني من الخيانة» وإسناده ضعيف.

(٦) حديث «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم... الحديث» وفيه «والإمام الكذاب» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث عبد الله بن عامر: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطيك فقال «وما أردت أن تعطيه؟ قالت: تمراً. فقال: «إن لم تفعلي كتبت عليك كذبة» رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم إن عبد الله بن عامر ولد في حياته ﷺ ولم يسمع منه. قلت: وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالها ثقات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة.

(٨) حديث «لو أفاء الله عليّ نعمًا عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً» رواه مسلم من حديث أبي بكرة.

(٩) حديث ابن عمر «أن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به» أخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

(١٠) حديث أنس «تقبلوا إليّ بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب... الحديث» أخرجه الحاكم في المستدرك والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد.

(١١) حديث «إن للشيطان كحلاً ولعوقاً... الحديث» أخرجه الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم.

يستشهد[1]» وقال النبي ﷺ: «من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين[2]» وقال ﷺ: «من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حق لقى الله عزّ وجلّ وهو عليه غضبان[3]» وروي عن النبي ﷺ: «أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها[4]» وقال ﷺ: «كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب[5]» وقالت عائشة رضي الله عنها: ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عزّ وجلّ منها[6]. وقال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك خير لك عملاً؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه. وقال لقمان لابنه: يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه. وقال عليه السلام في مدح الصدق؛ «أربع إذا كن فيك لا يضرك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طعمة[7]» وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ: قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامي هذا عام أول - ثم بكى - وقال: «عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة[8]» وقال معاذ: قال لي رسول الله ﷺ: «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح[9]».

وأما الآثار: فقد قال علي رضي الله عنه: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: ما كذبت كذبة منذ شذذت على إزاري. وقال عمر رضي الله عنه: أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم إسماً فاذارأيناكم فاحبكم إلينا أحسنكم خلقاً فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة. وعن ميمون بن أبي شبيب قال جلست أكتب كتاباً فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقال الشعبي: ما أدري أيهما أبعد غور في النار الكذاب أو البخيل؟ وقال إبن السماك: ما أراني أوجر على ترك الكذب لأني إنما أدعه أنفه. وقيل الخالد بن صبيح. أيسمى الرجل كاذباً بكذبة واحدة؟ قال: نعم وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقاً صدق وإن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا. وقال مالك بن دينار: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له: كذبت، فقال عمر: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

---

(١) حديث: خطب عمر بالجابية. . . الحديث. وفيه «ثم يفشو الكذب» أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر.

(٢) حديث «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين» أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب.

(٣) حديث «من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم. . . الحديث» متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٤) حديث: أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلاً روي معمر عنه منا كبير قاله أحمد بن حنبل.

(٥) حديث علي «**كل خصلة يطبع أو يطوى** عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضاً وأبي أمامه أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في العلل.

(٦) حديث: ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث الله منها توبة. أخرجه أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح.

(٧) حديث «أربع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا؛ صدق الحديث. . . الحديث» أخرجه الحاكم والخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة.

(٨) حديث أبي بكر «عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة» أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وقد تقدم بعضه في أول هذا النوع.

(٩) حديث معاذ «أوصيك بتقوي الله وصدق الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية وقد تقدم.

بيان مارخص فيه من الكذب

أعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه، وربما كان واجباً.

قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال: أرأيت فلاناً؟ ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تصدق به. وهذا الكذب واجب.

فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بـالصدق والكـذب جميعاً فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً، كما أن عصمة دم المسلم واجبة. فمهما كان في الصدق سفك دم أمرىء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه وإلى ما لا يقتصر على حدّ الضرورة، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة.

والذي يدل على الإستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث إمرأته والمرأة تحدث زوجها[١] وقالت أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً[٢]» وقالت أسماء بنت يزيد: قال رسول الله ﷺ: «كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما[٣]» وروي عن أبي كاهل قال: وقع بين اثنين من أصحاب النبي ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت: مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا، ثم قلت: أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين! فأخبرت النبي ﷺ فقال: «يا أبا كاهل أصلح بين الناس»[٤] أي ولو بالكذب. وقال عطاء بن يسار: قال رجل للنبي ﷺ أكذب على أهلي؟ قال «لا خير في الكذب» قال: أعدها وأقول لها، قال: «لا جناح عليك»[٥].

وروي آن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوّج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله، ثم قال لامرأته: انشدك بالله هل تبغضيني؟ قالت: لا تنشدني، قال: فإني أنشدك الله، قالت: نعم، فقال لابن الأرقم: أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال: إنكم لتحدّثون أني أظلم النساء

---

(١) حديث أم كلثوم: ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث. أخرجه مسلم وقد تقدم.
(٢) حديث أم كلثوم أيضاً «ليس بكذاب من أصلح بين الناس... الحديث» متفق عليه وقد تقدم، والذي قبله عند مسلم بعض هذا.
(٣) حديث أسماء بنت يزيد» كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما» أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذي مختصراً وحسنه.
(٤) حديث أبي كاهل: وقع بين رجلين من أصحاب النبي ﷺ كلام... الحديث. وفيه«يا أبا كاهل أصلح بين الناس» رواه الطبراني ولم يصح.
(٥) حديث عطاء بن يسار: قال رجل للنبي ﷺ أكذب على أهلي؟ قال: «لا خير في الكذب» قال: أعدها وأقول لها، قال: «لا جناح عليك» أخرجه ابن عبد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلاً وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم معضلاً من غير ذكر عطاء بن يسار.

وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم، فسأله فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال: أنت التي تحدّثين لزوجك أنك تبغضينه؟ فقالت: إني أوّل من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتحرّجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم فاكذبي فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدّثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يُبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب.

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار؟ كل الكذب يكتب على ابن آدام لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما، أو يحدث امرأته يرضيها[٣]» وقال ثوبان الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلمًا أو دفع عنه ضرراً. وقال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن النبي ﷺ فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة.

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الإستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره. أما ماله: فمثل أن يأخذ ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك، فيقول: ما زنيت وما سرقت. وقال ﷺ: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله[٤]» وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلمًا وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً.

وأما عرض غيره: فبأن يسأله عن سرأخيه فله أن ينكره، وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطيباً لقلبها، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به. ولكن الحدّ فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور. فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القس، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشدّ وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذوراً، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات، وذلك حرام. وقالت أسماء سمعت امرأة سألت رسول الله ﷺ قالت: إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك فهل علي شيء فيه؟ فقال ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور[٣]» وقال ﷺ: «من تطعم بما لا يطعم أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبي زور يوم القيامة[٤]» ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه، وروايته الحديث الذي لا يتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول: لا أدري، وهذا حرم ومما يلتحق بالنساء الصبيان، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا وعد وعيد أو تخويف كاذب

---

(١) حديث النواس بن سمعان: «ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار؟ كل الكذب مكتوب... الحديث» أخرجه أبو بكر بن بلال في مكارم الأخلاق بلفظ «تتبابعون» إلى قوله: «في النار» دون ما بعده فرواه الطبراني وفيهما شهرين حوشب.

(٢) حديث: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله» الحاكم من حديث عمر بلفظ: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله» وإسناده حسن.

(٣) حديث أسماء: قالت امرأة: إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل... الحديث. متفق عليه وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق.

(٤) حديث: «من تطعم بما لا يطعم وقال لي وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة» لم أجده بهذا اللفظ.

كان ذلك مباحاً. نعم روينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذباً، ولكن الكذب المباح أيضاً قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه وإنما يتعلل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب. وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الإجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا؟ وذلك غامض جداً والحزم تركه إلا أن يصير واجباً بحيث لا يجوز تركه كما لو أدّى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان.

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض، إذ قال ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار[1]» وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها. وقول القائل: إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه، وما هو جديد فوقعه أعظم، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوّش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلي. والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء. نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين.

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟ وروي ذلك عن ابن عباس وغيره. وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن التعريض أهون. ومثال التعريض ما روي أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأ فتعلل بمرض وقال: ما رفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله. وقال إبراهيم: إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل: إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء. فيكون قوله: «ما» حرف نفي عند المستمع، وعنده الإبهام. وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء. فقال: كان عندي ضاغط، قالت: كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وعندأبي بكر رضي الله عنه. فبعث عمر معك ضاغطاً؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذاً قال. بعثت معك ضاغطاً؟ قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئاً فقال. أرضها به - ومعنى قوله ضاغطاً يعني رقيباً وأراد به الله تعالى - وكان النخعي لا يقول لابنته: أشتري لك سكراً بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكراً؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك. وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قولي له أطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس ههنا كيلا يكون كذباً. وكان الشعبي إذا طلب في المنزل هو يكرهه خط دائرة وقال للجارية: ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا. وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة قال: دخلت مع أبي عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلى ثوب، فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيراً، فقال لي أبي يا بني اتق الكذب وما أشبهه، فنهاه عن ذلك لأنّ فيه تقريراً لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه.

---

(١) حديث: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده في النار» متفق عليه من طرق وقد تقدم في العلم.

نعم المعاريض تباح لغرض كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة عجوز[١]» وقوله للأخرى: «الذي في عين زوجك بياض» وللأخرى: «نحملك على ولد البعير» وما أشبهه. وأما الكذب الصريح كما فعله نعمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرير إذ قال له إنه نعيمان، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمقى بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك، فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه. قال ﷺ: «لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه[٢]» وأما قوله عليه السلام: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوي بها في النار أبعد من الثريا[٣]» أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح.

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب. ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال: كل الطعام، فيقول: لا أشتهيه؛ وذلك منهى عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد: قالت أسماء بنت عميس، كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ومعي نسوة قالت: فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحاً من لبن. فشرب ثم ناوله عائشة، قالت: فاستحيت الجارية فقلت: لا تردّي يد رسول الله ﷺ خذي منه، قالت: فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال: «ناولي صواحبك» فقلن: لا نشتهيه، فقال: «لاتجمعن جوعاً وكذباً» قالت: فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذباً؟ قال: «إن الكذب ليكتب كذباً، حتى تكتب الكذيبة كذيبة[٤]» وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب.

قال الليث بن سعد: كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه، فيقال له: لو مسحت عينيك؟ فيقول: وأين قول الطبيب: لا تمس عينيك فأقول: لا أفعل؟ وهذه مراقبة أهل الورع. ومن تركه انسل لسانه في الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر. وعن خوات التيمي قال: جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يا بني؟ فجلس الربيع وقال: أرضعتيه؟ قالت: لا، قال: ما عليك لو قلت، يا ابن أخي فصدقت؟ ومن العادة أن يقول: يعلم الله، فيما لا يعلمه. قال عيسى عليه السلام: إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم، لما لا يعلم. وربما يكذب في حكاية المنام، والإثم فيه عظيم إذ قال عليه السلام: «إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول عليَّ ما لم أقل[٥]» وقال عليه السلام: «من كذب في حلم كلف يوم

---

(١) حديث: «لا يدخل الجنة عجوز» وحديث: «في عين زوجك بياض» وحديث: «نحملك على ولد البعير» تقدمت في الثلاثة الآفة العاشرة.

(٢) حديث: «لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه» ذكره ابن عبد البر في الإستيعاب من حديث أبي مليكة الذماري وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أنس: «لا يؤمن أحد منكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة: «لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه» قال أحمد بن حنبل منكر.

(٣) حديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوي بها أبعد من الثريا» تقدم في الآفة الثالثة.

(٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس: كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ. الحديث وفيه: «قال لا تجمعن جوعاً وكذا» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب، فإن أسماء بنت عميس كانت إذا ذاك بالحبشة، لكن في طبقات الأصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس: زفقنا إلى النبي ﷺ بعض نسائه. . . الحديث. فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك.

(٥) حديث: «إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول عليَّ ما لم أقل» أخرجه البخاري من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر: «من أفرى الفرى أن يرى عينيه ما لم تريا».

القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبداً[١]».

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة

والنظر فيها طويل فلنذكر أولاً مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ وقال عليه السلام، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه[٢]، والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم، وقال أبو برزة: قال عليه السلام: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً[٣]» وعن جابر وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشدّ من الزنا، فإن الرجل يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه» وقال أنس: قال رسول الله ﷺ «مررت ليلة سرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم[٤]، وقال سليم بن جابر: أتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت علمني خيراً أنتفع به، فقال: لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقى، وأن تلقى أخاك ببشر حسن وإن أدبر فلا تغتابنه[٥]، وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العوانق في بيوتهن فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته[٦]» وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أوّل من يدخل النار. وقال أنس: أمر رسول الله ﷺ بصوم يوم فقال: «لا يفطرن أحد حتى آذن له» فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول: يا رسول الله ظللت صائمًا فائذن لي لأفطر فيأذن له، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله فتاتان من أهلك ظللتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا! فأعرض عنه ﷺ، ثم عاوده فأعرض عنه، ثم عاوده فقال: «إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس؟ إذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار[٧]، وفي رواية: أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا. فقال ﷺ «إئتوني بهما» فجاءتا فدعا رسول الله ﷺ بقدح فقال لإحداهما «قيئي» فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح، وقال للأخرى «قيئي» فقاءت

---

(١) حديث: «من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرة» أخرجه البخاري من حديث ابن عباس.

الآفة الخامسة عشرة. الغيبة

(٢) حديث: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً» متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله «ولا يغتب بعضكم بعضاً» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حيان في الضعفاء وابن مردوية في التفسير.

(٤) حديث أنس: «مررت ليلة أسرى بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم... الحديث» أخرجه أبو داود مسنداً ومرسلاً والمسند أصح.

(٥) حديث سليم بن جار: أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمني خيراً ينفعني الله به... الحديث. أخرجه أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد «إذا أدبر فلا بغتنا به» وفي إسنادهما ضعف.

(٦) حديث البراء: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد.

(٧) حديث أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال: «لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس... الحديث». «في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن مردوية في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه ويزيد ضعيف.

كذلك، فقال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس[1]» وقال أنس: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظم شأنه فقال: «إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأربى الربا عرض المسلم[2]» وقال جابر كنا مع رسول ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يغتاب الناس. وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله» فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال: «أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين ـ أو ما لم ييبسا ـ[3]». ولما رجم رسول الله ﷺ ما عزا في الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب، فمر ﷺ وهما معه بجيفة فقال: «إنهشا منها» فقالا: يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال: «ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه[4]» وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين. وقال أبو هريرة: من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة وقيل له كله ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله فينضج ويكلح[5] وروى مرفوعاً كذلك. وروي أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثاً فترك ذلك. فقالا: لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس، فحاك في أنفسهما ما قالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين. وعن مجاهد أنه قال في: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الذي يأكل لحوم الناس. وقال قيادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول. وقال الحسن: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد. وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس. وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك. وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه. وكان الحسن يقول: «ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تغيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك الغيب فتصلحه منك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا. وقال مالك بن دينار: مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون: «ما أنتن ريح هذا الكلب! فقال عليه الصلاة والسلام: ما أشدّ بياض أسنانه! كأنه رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آخر فقال له: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء. نسأل الله حسن التوفيق لطاعته.

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواه ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو

---

(١) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه: «إن هاتين صامتا عما أحلّ الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما. . . الحديث» أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلي في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المتهم.

(٢) حديث أنس: خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه. . . الحديث. وفيه «وأربى الربا عرض الرجل المسلم» أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف.

(٣) حديث جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال: «أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يغتاب الناس. . . الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسي فيه: «أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس» ولأحمد والطبراني من حديث ابن بكرة نحوه بإسناد جيد.

(٤) حديث: قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال: «أنهشا منها. . . الحديث» أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد.

(٥) حديث أبي هريرة «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتاً كما أكلته حياً. . . الحديث» أخرجه ابن مردوية في التفسير مرفوعاً وموقوفاً وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنعنة.

في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصبرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان. وأما النسب: فبأن تقول أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال. أو شيء مما يكرهه كيفما كان. وأما الخلق: فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبال عاجز ضعيف القلب متهور وما يجري مجراه. وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: **فكقولك** هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس. وأما فعله بالدنيا: **فكقولك** إنه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه. وأما في ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب.

وقال قوم: لا غيبة في الدين لأنه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز، بدليل ما روي أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال: «هي في النار[1]» وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال: «فما خيرها إذن[2]» فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول ﷺ. والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ في حد الغيبة.

وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه، بدليل ما روى أن النبي ﷺ قال: «هل تدرون ما الغيبة؟» قالوا: «الله ورسوله أعلم قال: «ذكرك أخاك بما يكرهه» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته[3]» وقال معاذ بن جبل ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا: ما أعجزه! فقال ﷺ «اغتبتم أخاكم» قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه، قال: «إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه[4]» وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول ﷺ إمرأة فقالت: إنها قصيرة فقال ﷺ «اغتبتيها[5]» وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عز وجل؛ فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلاً فقال: ذا ـ الرجل الأسود، ثم قال أستغفر الله إني أراني قد اغتبته. وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور. وقالت عائشة لا يغتابن أحدكم أحداً فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي ﷺ إن هذه لطويلة الذيل فقال لي: «الفظي الفظي» فلفظت مضغة لحم[6].

---

(١) حديث: ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذي جيرانها فقال: «هي في النار» أخرجه ابن حيان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: ذكر امرأة بأنها بخيلة قال: «فما خيرها إذن؟» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلاً ورويناه في أمالي ابن شمعون وهكذا.

(٣) حديث: «هل تدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث معاذ: ذكر رجل عجز رسول الله ﷺ فقالوا ما أعجزه... الحديث. أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

(٥) حديث عائشة: أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة. فقال: «إغتبتيها» رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب.

(٦) حديث عائشة: قلت لامرأة وإنَّ هذه طويلة الذيل. فقال ﷺ: «الفظي» فلفظت بضعة من لحم. أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردوية في التفسير وفي إسناده امرأة لا أعرفها.

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام. فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها: دخلت علينا إمرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال عليه السلام، اغتبتيها[1] «ومن ذلك المحاكاة يمشي متعارجاً أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهيم ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت إمرأة قال: «ما يسرني أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا[2]». وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين. وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره - كما سيأتي بيانه - وأما قوله: قال قوم كذا: فليس ذلك غيبة، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت. ومن الغيبة أن تقول: بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما إذا لم يفهم عينه جاز. كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئاً قال: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا[3]» فكان لا يعين. وقولك: بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعى العلم، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة.

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول: ما أحسن أحوال فلان: ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر. فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين وأن يذم نفسه، فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكياً نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة. ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم. ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول: سبحان الله ما أعجب هذا! حتى يصغي إليه ويعلم ما يقول، فيذكر الله تعالى ويستعمل الإسم آلة في تحقيق خبثه، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلاً منه وغروراً «وكذلك يقول: ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه، فيكون كاذباً في دعوى الإغتنام وفي إظهار الدعاء له، بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته، ولو كان يغتم به لأغتم أيضاً بإظهار ما يكرهه. وكذلك يقول: ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا.

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول: عجب ما علمت أنه كذلك! ما عرفته الى الآن إلا

---

(١) حديث عائشة: دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أي قصيرة فقال النبي ﷺ: «قد اغتبتيها» أخرجه بن أبي الدنيا وابن مردوية من رواية حسان بن مخارق عنها وحسان وثقة ابن حيان وباقيهم ثقات.

(٢) حديث: «ما يسرني أني حكيت ولي كذا وكذا» تقدم في الآفة الحادية عشرة.

(٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئاً قال: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. . . الحديث» أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله: «وكان لا يعيره» ورجاله رجال الصحيح.

بالخير: وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه. فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب. قال ﷺ «المستمع أحد المغتابين[1]» وقد روي عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه: إن فلاناً لنئوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله ﷺ ليأكلا به الخبز فقال ﷺ «قد ائتدمتما!» فقالا: ما نعلمه؟ قال «بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما[2]» فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعاً. وقال للرجلين اللذين قال أحدهما. أقعص الرجل كما يقعص الكلب «أنهشا من هذه الجيفة[3] «فجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه، وإن قال بلسانه أسكت، وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي أسكت، أو يشير بحاجبه وجبينه، فإن ذلك استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحاً وقال ﷺ من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق[4]» وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ «من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة[5]» «وقال أيضاً» من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار[6] «وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها.

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

أعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سبباً: ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة نختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية؛ فالأول أن يشفى الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساوية فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام. فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرىٰ أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة. وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء.

---

(١) حديث: «المستمع أحد المغتابين» أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر: نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة وعن الإستماع إلى الغيبة. وهو ضعيف.

(٢) حديث: إن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلاناً لنئوم ثم طلبا أدماً من رسول الله ﷺ فقال: «قد ائتدمتما؟» فقالا: ما نعلم؟ فقال: «بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما» أخرجه أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلاً نحوه.

(٣) حديث: «إنهشا من هذه الميتة» قاله للرجلين الذين قال أحدهما: أقعص كما يقعص الكلب. تقدم قبل هذا بإثني عشر حديثاً.

(٤) حديث: «من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق» أخرجه الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة.

(٥) حديث أبي الدرداء: «من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ «رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» وفي رواية له: «كان له حجاباً من النار» وكلاهما ضعيف.

(٦) حديث: «من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار» أخرجه الطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول: ما من عادتي الكذب، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرىء نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف: وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد، فإن ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه، والحسد قد يكون مع الصديق والرفيق الموافق.

السابع: اللعب والهزل والإستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر.

الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان! فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري. ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل؟

الثاني: الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلى به، فيكون صادقاً في دعوى الاغتنام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمه خيراً، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى. كان عذراً في ذكر الإسم وهو خطأ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الإسم - كما سيأتي ذكره - روي عن عامر بن وائلة: أن رجلاً مرّ على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت والله لننبئنه، ثم قالوا: يا فلان لرجل منهم - قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله فقال:

قد قلت ذلك فقال ﷺ «لم تبغضه؟» فقال: أنا جاره وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسألها فقال؟ لا، فقال: والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً؟ فسأله عنه فقال: لا، فقال ﷺ للرجل «قم فلعله خير منك[١]».

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

أعلم أن مساوىء الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فلنفحص عن سببها. وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل:

أما على الجملة: فهو أن يعمل تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار«وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذاك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب. قال ﷺ ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد[٢]» وروي أن رجلاً قال للحسن: بلغني أنك تغتابني، فقال: ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي. فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفاً من ذلك، وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله ﷺ «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس[٣]» ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قال رجل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إلي فأحسنه. وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب» فإن سلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه. فهذه معالجات جملية.

أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب.

أما لغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول: إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره وقد قال ﷺ «إن لجهنم بابا لا يدخل منه إلا من شفي غيظه بمعصية الله تعالى[٤]» وقال ﷺ :«من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف

---

(١) حديث عامر بن واثلة: أن رجلاً مرّ على قوم في حياة رسول الله ﷺفسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله. . . الحديث بطوله. وفيه فقال: «قم فلعله خير منك» أخرجه أحمد بإسناد صحيح.

(٢) حديث: «ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد» لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

(٤) حديث: «إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله» أخرجه البزار وابن أبي الدنيا وابن عدي والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

غيظه[1]» وقال ﷺ «من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء[2]» وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين: يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق.

وأما الموافقة فإن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة.

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغني عن ذكر الغير، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقيناً ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا! فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقداً وتنتظر دفع الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان.

وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالإقتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائناً من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك. ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردي نفسها من قلة الجبل فهي أيضاً تردى نفسها، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرخت بالعذر وقالت: العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك.أنا أفعل، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك.

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقيناً بما عند المخلوقين وهما، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً.

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذباً بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسراً نفسك في الدنيا فصرت أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك. فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة. وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الإستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاك نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليه الصلاة والسلام، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من

---

(1) حديث: «من اتقى ربه كلّ لسانه ولم يشف غيظه» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه في الأربعين البلدانية للسلفي.

(2) حديث: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه. . . الحديث» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس.

استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك! ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك، فإنك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ويسوقكك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار، مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك.

وأما الرحمة له على أثمه فهو حسن، ولكن حسدك إبليس فأضلك، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك، فيكون جبراً لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً، وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً، إذا حبط أجرك ونقصت من حسناتك، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة.

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا! وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك. فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

بيان تحريم الغيبة بالقلب

أعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوىء الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء. فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضاً معفو عنه، ولكن المنهى عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب. فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكن إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بإذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾ فلا يجوز تصديق إبليس، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به، حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وماشربها، وأو حمل عليه قهراً، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها، وقد قال ﷺ «إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء[1]» فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

فإن قلت: فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ فتقول: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفوراً ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه؛ هذه أمارات عقد الظن وتحقيقه.

---

(١) حديث: «إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر.

وقد قال ﷺ، ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه[1]، أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح. أما في القلب: فبتغيره إلى النفرة والكرامة. وأما في الجوارح: فبالعمل بموجبه. والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقى إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر نور الله تعالى، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته.

وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً، لأنك لو كذبته لكنت جانياً على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظن، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر. نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو[2] فلك عند ذلك أن تتوقف، وإن كان عدلاً فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك: المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى، وكان أمره محجوباً عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل، فإن المغتاب فاسق، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق.

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار وترفع عليه، بإيذاء الوعظ. وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليلاً نقصان في دينك: وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة. فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الإعانة له على دينه.

ومن ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهى عنه، قال الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه في آية واحدة. ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه. وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

أعلم أن المرخص في ذكر مساوىء الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهي ستة أمور:

الأول: التظلم فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال ﷺ

---

(١) حديث: «ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج» أخرجه الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف.

(٢) حديث: رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو. أخرجه الترمذي من حديث عائشة وضعفه «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حداً ولا ذي غمر لأخيه» وفيه «ولا ظنين في ولاء ولا قرابة» ولأبي داود وابن ماجه بإسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ ردّ شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه.

«إن لصاحب الحق مقالاً[1]»، وقال عليه السلام: «مطل الغنى ظلم[2]» وقال عليه السلام: «لي الواجد يحل عقوبته وعرضه[3]».

الثاني: الإستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح، كما روى أن عمر رضي الله عنه مرّ على عثمان - وقيل على طلحة - رضي الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم. وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ الآية فتاب، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء كما يقول للمفتي؛ ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص؟ والأسلم التعريض بأن يقول: ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي ﷺ: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه فقال «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف[4]» فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء.

الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق، وكذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك، فإن سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد، والمشتري أولى بمراعاة جانبه. وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعناً، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة: فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله: لا تصلح لك، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به، إذ قال رسول الله ﷺ «أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس أذكروه بما فيه حتى يحذره الناس[5]» وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يقول روي أبو الزناد عن الأعرج، وسلمان عن الأعمش، وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به. نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى، ولذلك يقال للأعمى: البصير، عدولاً عن إسم النقص.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس،

---

(١) حديث: «لصاحب الحق مقال» متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٢) حديث: «مطل الغنى ظلم» متفق عليه من حديثه.
(٣) حديث: «لي الواجد يحل عرضه وعقوبته» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه.
(٤) حديث: إن هنداً قالت إن أبا سفيان رجل شحيح. متفق عليه من حديث عائشة.
(٥) حديث: «أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس أذكروه بما فيه يحذره الناس» أخرجه الطبراني وابن حيان في الضعفاء وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله: «حتى يعرفه الناس» ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت.

وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف. من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله ﷺ «من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له[١]» وقال عمر رضي الله عنه. ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذا المستتر لا بد من مراعاة حرمته. وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له؟ قال: «لا ولا كرامة». وقال الحسن. ثلاثة لا غيبة لهم؛ صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره؟ نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم. وقال عوف. دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال :إن الله حكم عدل، ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

بيان كفارة الغيبة

أعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته! وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله؟ إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً، فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن. يكفيه الاستغفار دون الاستحلال. وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ، كفارة من اغتبته أن تستغفر له[٢]، وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك: أن تثني عليه وتدعو له بخير. وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت، وهذا هو الأصح: وقول القائل: العرض لا عرض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف، إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به. بل في الحديث الصحيح ما روى أنه ﷺ قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته[٣]» وقالت عائشة رضي الله عنها لإمرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل: قد اغتبتها فاستحلها. فإذن لا بد من الإستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات.

فإن قلت: فالتحليل هل يجب؟. فأقول: لا، لأنه تبرع والتبرع فضل، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة.

وكان بعض السلف لا يحلل قال سعيد بن المسيب. لا أحلل من ظلمني. وقال ابن سيرين: إني لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبداً.

فإن قلت: فما معنى قول النبي ﷺ ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن؟ فنقول:

---

(١) حديث: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له» أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم.

(٢) حديث: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث: «من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أول مال فليتحلله. . . الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة.

فإن قلت: فما معنى قول النبي ﷺ «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس[1]»، فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه؟ فنقول: معناه إني لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه، وإلا فلا تصير الغيبة حلالاً به ولا تسقط المظلمة عنه، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم، فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك. بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا، وعلى الجملة فالعفو أفضل.

قال الحسن إذا جثت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا. وقد قال الله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ فقال النبي ﷺ: «يا جبريل ما هذا العفو؟». فقال: إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك[2]. وروي عن الحسن أن رجلاً قال له: إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إلي من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشرة: النميمة

قال الله تعالى: ﴿هماز مشاء بنميم﴾ ثم قال: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ قال عبد الله بن المبارك: الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطاً من قوله عز وجل: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ والزنيم هو الدعي وقال تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ قيل الهمزة النمام، وقال تعالى: ﴿حمالة الحطب﴾ قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى: ﴿فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ قيل كانت امرأة لوط تخبر الضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام[1]» وفي حديث آخر «لا يدخل الجنة قتات» والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ وآله وسلم «أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبرءاة العثرات[3]» وقال ﷺ: «ألا أخبركم بشراركم» قالوا: بلى، قال: «المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرءاء العيب[4]»، وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة[5]»، وقال أبو الدرداء:

---

(١) حديث: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بعرضي على الناس» أخرجه البزار وابن السني في اليوم والليلة والعقلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلاً عند ذكر أبي ضمضم في الصحافة قلت وإنما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلي.

(٢) حديث: نزول ﴿خذ العفو﴾ الآية فقال يا جبريل: «ما هذا» فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك. تقدم في رياضة النفس.

الآفة السادسة عشرة. النميمة

(٣) حديث: «لا يدخل الجنة نمام» وفي حديث آخر «قتات» متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم. (٢) حديث أبي هريرة: «وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً» أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير وتقدم في آداب الصحبة.

(٤) حديث: «ألا أخبركم بشراركم» قالوا بلى، قال: «المشاؤون بالنميمة. . الحديث» أخرجه، أحمد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم.

(٥) حديث أبي ذر: «من أشاع على مسلم لكمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في مكارم الأخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث.

قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء ليشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار[١]»، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ ومن شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار[٢]، ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النميمة. وعن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت سعد من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس، لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به[٣]»، وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى إلي: إني لا استجيب لك ولمن معك وفيك نمام قد أصر على النميمة. فقال موسى: يا رب من هو؟ دلني عليه حتى أخرجه من بيننا. قال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً، فتابوا جميعاً فسقوا. ويقال اتبع رجل حكيًما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال: إني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها؟ وعن الأرض وما أوسع منها؟ وعن الصخر وما أقسى منه؟ وعن النار وما أحر منها؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه؟ وعن البحر وما أغنى منه؟ وعن اليتيم وما أذل منه؟ فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السموات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحر من النار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم.

بيان حد النميمة وما يجب في ردها

اعلم أن إسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النميمة مختصة به. بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفى ما لا لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة. فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلاناً قال فيك كذا وكذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور، الأول: أن لا يصدقه لأن

---

(١) حديث أبي الدرداء: «أيما رجل أشاع على رجل لكمة هو منها بريء ليشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار»... أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً على أبي الدرداء. ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعاً من حديثه وقد تقدم.

(٢) حديث أبي هريرة: «من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا في الإسناد.

(٣) حديث ابن عمر: «إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت: سعد من دخلني. قال الجبار: وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية» فذكر منها «ولا قتات» وهو النمام، لم أجده هكذا بتمامه ولأحمد: «لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث» وللنسائي من حديث عبد الله بن عمرو: «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر» وللشيخين عن حديث حذيفة: «لا يدخل الجنة قتات» ولهما من حديث جبير بن مطعم: «لا يدخل الجنة قاطع» وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس: «لما خلق الله الجنة قال لها: تكلمي تزيني فتزينت. فقالت: طوبى لمن دخلني ورضي عنه إلهي، فقال الله عزّ وجلّ: «لا سكنك مخنث ولا نائحة».

النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾ الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى: ﴿وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر﴾ الثالث: أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى. الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾ الخامس: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقق، اتباعاً لقول الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نميمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿هماز مشاء بنميم﴾ وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً. وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات، بغضت أخي إلي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة. وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت في وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت؟ فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: إذهب بسلام.

وقال الحسن من نم إليك نم عليك. وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض؟ وقال تعالى: ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ والنمام منهم. وقال ﷺ: «إن من شرار الناس من أتقاه الناس لشره[1]» والنمام منهم. وقال: «لا يدخل الجنة قاطع، قيل وما القاطع؟ قال: «قاطع بين الناس[2]» وهو النمام وقيل قاطع الرحم.

ويروى عن علي رضي الله عنه أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاتبناك. إن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين. وقيل لمحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال: كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد. وقال رجل لعبد الله ابن عامر ـ وكان أميراً ـ بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء، قال: قد كان ذلك قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك؟ قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني وحسبي أني لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال.

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال: ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم؟ وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فلو كان صادقاً في قوله لكان لئيماً في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة. والسعاية هي النميمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال ﷺ «الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة[3]»، يعني ليس بولد حلال. ودخل رجل على

---

(١) حديث: «إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره» متفق عليه من حديث عائشة نحوه.
(٢) حديث: «لا يدخل الجنة قاطع» متفق عليه من حديث جبير بن مطعم.
(٣) حديث: «الساعي بالناس إلى الناس لغير رشده» أخرجه الحاكم من حديث أبي موسى: «من سعى بالناس فهو لغير رشدة» أو فيه شيء منها =

سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال: إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: قل، يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا في الأمة خسفاً وفي الأمانة تضييعاً والأعراض قطعاً وانتهاكاً، أعلى قربهم البغي والنميمة، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسئولين عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره. وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد: إن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له عمرو: يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أتيت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بين عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع على ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن تقبل مهتوكاً في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوق يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمره الله، والساعي لعنه الله. وقال لقمان لابنه: يا بني أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً أبسط خلقك للقريب والبعيد. وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، وأحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك. وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل. وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك.

وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى. قال حماد بن سلمة: باع رجل عبداً وقال للمشتري! ما فيه عيب إلا النميمة، قال: رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها. فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين. فنسأل الله حسن التوفيق.

الآفة السابعة عشرة

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ويتكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق. قال عمار بين ياسر: قال رسول الله ﷺ «من كان له وجهان في الدنيا كان

= وقال: له أسانيد هذا أمثلها، قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية، قال والحديث لا أصل له وقد ذكر ابن حيان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ: «لا يسعى على الناس إلا ولد بغي وإلا من فيه عرق منه» وزاد بين سهل وبين بلال بن أبي بردة: أبا الوليد القرشي.

له لسانان من نار يوم القيامة[1]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث[2]» وفي لفظ آخر «الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» وقال أبو هريرة: لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً عند الله. وقال مالك بن دينار: قرأت في التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين. وقال ﷺ «أبغض خليقة الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء إذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا[3]» وقال ابن مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة. قالوا: وما الإمعة؟ قال الذي يجري مع كل ريح. واتفقوا على أن ملاقاة الأثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها.

وقد روى أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر: يموت رجل من أصحاب رسول ﷺ ولم تصل عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه منهم. فقال: نشدتك الله أنا منهم أم لا؟ قال: اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك.

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك؟ فأقول: إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة، إذ لو تحققت الصداقة لأقتضت معاداة الأعداء - كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة - نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة، إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام، وإن لم ينقل كلاماً ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره، وكذلك إذا أثنى على واحد منهما في معاداته وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين. بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعادين. ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[4] وهذا نفاق مهما كان مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق، لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك، فإن كان مستغنياً عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق. وهذا معنى قوله ﷺ «حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[5]» لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم. فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور، فإن اتقاء الشر جائز. قال أبو الدرداء رضي

(١) حديث عمار بن ياسر: «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة» أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن.

(٢) حديث أبي هريرة: «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين... الحديث» متفق عليه بلفظ: «تجد من شر الناس» لفظ البخاري وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

(٣) حديث: «أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم، فإذا لقوهم تملقوا لهم... الحديث» لم أقف له على أصل.

(٤) حديث: قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا. فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال: كنا نعد ذلك نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ. أخرجه الطبراني من طرق.

(٥) حديث: «حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال: «حب الغناء» وقال: «العشب» مكان «البقل».

عنه: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «أئذنوا له فبئس رجل العشيرة هو» ثم لما دخل ألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول، فقال: «يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره[1]» ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم: فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله ـ كما ذكرناه في آفة الكذب ـ بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق، بل ينبغي أن ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

الآفة الثامنة عشرة: المدح

وهو منهى عنه في بعض المواضع. أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح، فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب. قال خالد بن معدان: من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه.

والثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الإطلاع عليه، وروى أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ﷺ «ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح» ثم قال: «إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك[2]» وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه، فأما إذا قال رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه. سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل فقال: أسافرت معه؟ قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟ قال: لا. قال: فأنت جاره صباحه ومساءه؟ قال: لا. فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه.

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق[3]» وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصي الله تعالى في أرضه، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح.

وأما الممدوح فيضره من وجهين؛ أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان، قال الحسن رضي

---

(١) حديث عائشة: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ائذنوا له فبئس رجل العشيرة... الحديث» وفيه: «إن شر الناس الذي يكرم اتقاء لشره» متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها.

الآفة الثامنة عشرة. المدح

(٢) حديث: إن رجلاً مدح رجلاً عند رسول الله ﷺ فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك» متفق عليه من حديث أبي بكرة بنحوه وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

(٣) حديث: «إن الله يغضب إذا مدح الفاسق» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف، ورواه أبو يعلي الموصلي وابن عدي بلفظ «إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش» قال الذهبي في الميزان: منكر، وقد تقدم في آداب الكسب.

الله عنه كان عمر رضي الله عنه جالساً ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود. فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: مـالي ولك أما سمعتها؟ قال: سمعتها فمه، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطىء منك.

الثاني: هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام وقطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح، وقال ﷺ: «إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا[1]» وقال أيضاً لمن مدح رجلاً: «عقرت الرجل عقرك الله[2]» وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمن يراجع، فقال ابن المبارك: لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص. وقال ﷺ «لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه[3]» وقال عمر رضي الله عنه: المدح هو الذبح. وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح؛ لذلك شبهه به. فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوباً إليه. ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة فقال: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح[4]»، وقال في عمر: «لو لم أبعث لبعثت يا عمر[5]» وأي ثناء يزيد على هذا؟ ولكنه ﷺ قال عن صدق وبصيرة. وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً. بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر[6]» أي لست أقول هذا تفاخراً كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم. وذلك لأن افتخاره ﷺ كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم؛ كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه. وتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال ﷺ «وجبت[7]» لما أثنوا على بعض الموتى. وقال مجاهد: إن لبني آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة: ولك بمثله، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك. فهذه آفات المدح.

بيان ما على الممدوح

أعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه

---

(١) حديث: «إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضاً» أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلاً.

(٢) حديث: «عقرت الرجل عقرك الله» قاله لمن مدح رجلاً، لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه» لم أجده أيضاً.

(٤) حديث: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح» تقدم في العلم.

(٥) حديث: «لو لم أبعث لبعثت يا عمر» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكر والمعروف من حديث عقبة بن عامر «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» رواه الترمذي وحسنه.

(٦) حديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عبادة بن الصامت: «أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر» ولمسلم من حديث أبي هريرة «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».

(٧) حديث «وجبت» قاله لما أثنوا على بعض الموتى متفق عليه من حديث أنس.

المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح. قال ﷺ: «أحثوا التراب في وجوه المادحين[1]» وقال سفيان بن عيينة: لا يضر المدح لمن عرف نفسه. وأثنى على رجل من الصالحين فقال: اللهم إنّ هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني. وقال آخر لما أثنى عليه: اللهم إنّ عبدك هذا تقرّب إلي بمقتك وأنا أشهدك على مقته. وقال علي رضي الله عنه لما أثنى عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون. وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال: أتهلكني وتهلك نفسك؟ وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه ـ فقال: أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك.

الآفة التاسعة عشر

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله. مثاله: ما قال حذيفة: قال النبي ﷺ «لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت[2]» وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية وهو على خلاف الاحترام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء رجل إلى رسول ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال ما شاء الله وشئت، فقال ﷺ: «اجعلني لله عديلاً بل ما شاء الله وحده[3]». وخطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال: قال: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى[4] فكره رسول الله ﷺ قوله: ومن يعصهما، لأنه تسوية وجمع. وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. وأن يقول: لولا الله ثم فلان؟ ولا يقول: لولا الله وفلان؟ وكره بعضهم أن يقال: اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يكون بعد الورود. وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار وقال رجل: اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد ﷺ فقال حذيفة: إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين. وقال إبراهيم: إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير! قيل له يوم القيامة، حماراً رأيتني خلقته خنزيراً رأيتني خلقته؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن احدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه، فيقول: لولاه لشرفنا الليلة. وقال عمر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت[5]» قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها: وقال ﷺ «لا تسموا العنب كرماً إنما الكرم الرجل المسلم[6]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدي ولا أمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، ولا يقول المملوك ربي ولا ربتي وليقل سيدي وسيدتي فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى» وقال

---

(١) حديث: «أحثوا في وجوه المداحين التراب» أخرجه مسلم من حديث المقداد.

الآفة التاسعة عشرة الغفلة عن دقائق

(٢) حديث حذيفة: «لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت. . . الحديث» أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح.

(٣) حديث ابن عباس: جاء رجل إلى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله عدلاً قل ما شاء الله وحده» أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه.

(٤) حديث: خطب رجل عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. . . الحديث» أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم.

(٥) حديث عمر: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. متفق عليه.

(٦) حديث: «لا تسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ﷺ: «لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم[1]» وقال ﷺ: «من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال وإن كان كاذباً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً[2]» فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره.

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ من صمت نجا[3]» لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة إحدى الغنيمتين.

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب. والعامي يفرح بالخوض في العلم، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري. وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته. وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة. وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم، فإنه بالإضافة إليه عامي. ولذلك قال ﷺ «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم؛ ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم[4]» وقال أنس: سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال: «سلوني لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به» فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة» فقام إليه شابان أخوان فقالا: يا رسول الله من أبونا؟ فقال: أبوكما الذي تدعيان إليه، ثم قام إليه رجل آخر فقال: يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار؟ فقال: «لا بل في النار» فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا فقام إليه يا عمر رضي الله عنه فقال: «رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً، فقال: «أجلس يا عمر رحمك الله إنك ما علمت لموفق[5].

وفي الحديث: نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال[6] وقال ﷺ «يوشك

---

(١) حديث: «لا تقولوا للمنافق سيدنا... الحديث» أخرجه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح.

(٢) حديث: «من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال... الحديث» أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث بريدة بإسناد صحيح.

(٣) حديث: «من صمت نجا» أخرجه الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان.

الآفة العشرون. سؤال العوام عن صفات الله تعالى

(٤) حديث: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال: «سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به... الحديث» متفق عليه مقتصراً على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر. ولمسلم من حديث أبي موسى: فقام آخر فقال من أبي؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة.

(٦) حديث: النهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال: متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.

الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم[١]».

وقال جابر: ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال[٢]. وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ فلم يصبر حتى سأل ثلاثاً قال: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ وفارقه.

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك. وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتاباً ورسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منها. وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى. والله تعالى أعلم.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون، ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون، وامتحن بهم حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون فقال: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيون، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين، والسادة المرضيين، وصلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وإنها المستكنة في طي الفؤاد. استكنان الجمر تحت الرماد. ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، كاستخراج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظى والاستعار، والحركة والإضطراب، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد، وإذا كان الحقد والحسد والغضب، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب، فما أحوجه إلى معرفة معاطيه ومساويه ليحذر ذلك ويتقيه، ويميطه عن القلب إن كان وينفيه، ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداريه، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه،

---

(١) حديث: «يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.
(٢) حديث جابر: ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال. رواه البزار بإسناد جيد.

ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه، ما لم يعرف الطريق الذي به ينفع الشر ويقصيه.

نحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب، ويجمعها بيان ذم الغضب، ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا؟ ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ، ثم بيان فضيلة الحلم، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والكشفي به من الكلام، ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق، ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وظنه في غيرهم وضعفه، ثم بيان الدواء الذي به ينفى مرض الحسد عن القلب، ثم بيان القدر الواجب نفى الحسد عن القلب وبالله التوفيق.

بيان ذم الغضب

قال الله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ الآية. ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بعمل وأقلل، قال: «لا تغضب» ثم أعاد عليه فقال: «لا تغضب[1]» وقال ابن عمر: قلت لرسول الله ﷺ: قل لي قولاً وأقلله لعلي أعقله، فقال: «لا تغضب» فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إليَّ «لا تغضب» وعن عبد الله بن عمرو: أنه سأل رسول الله ﷺ ماذا ينقذني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب[2]» وقال ابن مسعود قال النبي ﷺ «ما تعقدون الصرعة فيكم؟» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب[3]» وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب[4]» وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: «من كف غضبه ستر الله عورته[5]» وقال سليمان ابن داود عليهما السلام: يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم. وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وسيداً وحصوراً﴾ قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء: قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «لا تغضب[6]» وقال يحيى لعيسى عليهما السلام: لا تغضب، قال: لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر، قال: لا تقتن مالاً، قال: هذا عسى. وقال ﷺ «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل[7]» وقال ﷺ «ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم[8]» وقال له رجل: أي شيء أشد علي قال: «غضب الله» قال:

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

(١) حديث أبي هريرة: إن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال: «لا تغضب» ثم أعاد عليه فقال: «لا تغضب» رواه البخاري.

(٢) حديث ابن عمر: قلت لرسول الله ﷺ ما يبعدني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب» أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد: وأن عبد الله بن عمرو هو السائل.

(٣) حديث ابن مسعود: «ما تعدون الصرعة... الحديث» رواه مسلم.

(٤) حديث أبي هريرة: «ليس الشديد بالصرعة... الحديث» متفق عليه.

(٥) حديث ابن عمر: «من كفّ غضبه ستر الله عورته» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وذم الغضب وفي الصمت، وتقدم في آفات اللسان.

(٦) حديث أبي الدرداء: دلني على عمل يدخلني الجنة؟ قال: «لا تغضب» أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن.

(٧) حديث: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل» أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف.

(٨) حديث: «ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم» أخرجه البزار وابن عدي من حديث ابن عباس: «للنار باب لا يدخله إلا من شفي غيظه بمعصية الله» وإسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان.

فما يبعدني عن غضب الله؟ قال: «لا تغضب[1]».

الآثار: قال الحسن: يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار. وعن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً ازداد به إيماناً ويقيناً، قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة. وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد ولا تكن جباراً عنيداً. وعن وهب بن منبه: أن راهباً كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه فقال له: افتح، فلم يجبه فقال: أفتح فإني إن ذهبت ندمت، فلم يلتفت إليه فقال إني أنا المسيح، قال الراهب: وإن كنت المسيح فما أصنع بك! أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك؟ فقال: إني الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع؟ فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك. فقال: ما أريد أن أسألك عن شيء، قال: فولى مدبراً، فقال الراهب: ألا تسمع، قال بلى، قال: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ فقال: الحدة إن الرجل إذا كان جديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقال خيثمة: الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه؟ وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟ وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر. وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة وفائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين منفعة ، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه. وقال مجاهد: قال إبليس ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، ونبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه. وقيل لحكيم. ما أملك فلاناً لنفسه! قال: إذاً لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب. وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الإعتذار. وقيل: اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل. وقال عبد الله بن مسعود: أنظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله أن لا تعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فأحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً. وقال علي بن زيد: أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً؟ وقال بعضهم لابنه: يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة، فأقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكراً، وإن كان للآخرة كان حلماً وعلماً، فقد قيل: الغضب عدو العقل والغضب. وقال بعضهم: من أطاع شهوته وغضبه فأداه إلى النار. وقال الحسن: من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وإيمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق وإعطاء في حق وقصد في غنى وتجمل في فاقة وإحسان في قدرة وتجمل في فاقة وصبر في شدة، لا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر، يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل. نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء. وقيل لعبد الله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق في كلمة. فقال أترك الغضب. وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه: من يتكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي؟ فقال شاب من القوم: أنا، ثم أعاد عليه فقال الشاب: أنا أوفى به، فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل، سمي به لأنه تكفل بالغضب ووفي به. وقال وهب بن منبه: للكفر أربعة أركان؛ الغضب، والشهوة، والخرق، والطمع.

---

(١) حديث: قال رجل أي شيء أشد عليّ؟ قال: «غضب الله» قال: فما يبعدني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب» اخرجه احمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الأخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث.

بيان حقيقة الغضب

أعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والموتان، بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه؛ أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه.

أما السبب الداخلي: فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها، فلو لم يصل بالرطوبة عدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان الشهوة تبعثه على تناول الغذاء؛ كالموكل به في جبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب.

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان: فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الإنسان وعجنها بطينته. فمهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت ثوراناً يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن، كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمي الوجه والعين، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها. وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه إنقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزناً، ولذلك يصفر اللون، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب.

وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب يطلب الانتقام وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفي والإنتقام بعد وقوعها. والإنتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها، ولا تسكن إلا به. ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: فيفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه إنه لا حمية له. ولذلك قال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار. فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو ناقص جداً، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية فقال: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وقال لنبيه ﷺ: ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ الآية وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر. وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية: فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار[1] كما قال ﷺ: وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته. وأما الأسباب الإعتيادية: فهو أن يخالط قوماً يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقول الواحد منهم: أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمراً! ومعناه لا عقل في ولا حلم. ثم ذكره في معرض الفخر بجهله. فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم

---

(١) حديث: «الغضب من النار» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف «الغضب جمرة في قلب ابن آدم» ولأبي داود من حديث عطية السعدي: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار».

فيقوى به الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة، فإذا أوعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضباً، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفىء نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب، فإن معدن الفكر الدماغ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولي على معادن الفكر، وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود عليه الدنيا بأسرها، ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار. فاسود جزء وحمى مستقره وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج، بل ينبغي أن يصبر إلى يحترق جميع ما يقبل الاحتراق: فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ. وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهد أعاليه على أسفله، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه، فهكذا حال القلب عند الغضب وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً؛ إذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حياته إذ أعماه الغضب وأصمه. ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإن الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالمثمرة فهذا أثره في الجسد:

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحيي منه ذو العقل ويستحيي منه قائله عن فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ.

أما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجزه عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه، وقد يضرب بيده على ارض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير، وربما يسقط سريعاً لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلاً على الأرض وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها. ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول: إلى متى منك هذا يا كيت وكيت؟ كأنه يخاطب عاقلاً، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك فن القبائح، فهذه ثمرة الغضب المفرط

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخاء وصغر النفس والقماءة وهو أيضاً مذموم، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنوثة قال ﷺ: «إن سعداً لغيور وأنا أغير من سعد وإن الله أغير مني[1]» وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب. ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب. ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها. ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد وقد قال ﷺ: «خير أمتي أحداؤها[2]» يعني في

---

(١) حديث: «إن سعداً لغيور. . . الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم في ال
(٢) حديث: «خير أمتي أحداؤها» أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وزاد «الذين إذا غض

الدين وقال تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة. ففقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال والإستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله ﷺ حيث قال: «خير الأمور أوساطها[1]» فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله؛ ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض. فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأله الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير.

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة: أم لا؟

أعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج. وهذا رأي من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير، وكلا الرأيين ضعيف. بل الحق فيه ما نذكره وهو أنه ما بقي الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من الغيظ والغضب، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه. والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة

إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام، الأول: ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه أو أريق ماؤه الذي أعطشه، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها.

القسم الثاني: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور، حتى الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكنزان، على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما في القوت، فهذا الجنس مما يتصوّر أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لا يغضب، إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها، فإنه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاه والصيت والتصدّر في المجالس والمباهاة في العلم، فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل، ومن لا يحب ذلك فلا يبالي ولو جلس في صف النعال، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه. وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكارهه فأكثرت غضبه، وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص، لأن الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص، والجاهل أبدا جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته، وهو لا يدري

(١) حديث: «خير الأمور أوسطها» أخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً وقد تقدم.

أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن، حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له: إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير، وما يجري مجراه من الرذائل، فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري لأن حبه ليس بضروري.

القسم الثالث: ما يكون ضرورياً في حق بعض الناس دون البعض، كالكتاب مثلاً في حق العالم لأنه مضطر إليه فيحبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها، فإنما هو وسيلة إلى الضرورية، والمحبوب يصير ضرورياً ومحبوباً، وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها[1]» ومن كان بصيراً بحقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب في غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضية في كل واحد منها.

أما القسم الأول: فليست الرياضية فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والإحتمال مدة، حتى يصير الحلم والإحتمال خلقاً راسخاً فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن، وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً وهذا حكم القسم الثالث أيضاً لأن ما صار ضرورياً في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه. فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه.

وأما القسم الثاني: فيمكن التوصل بالرياضة إلى الإنفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقرّه الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزوّد منها قدر الضرورة، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ويمحو حبها عن قلبه، ولو كان للإنسان كلب لا يحبه لا يغضب إذا ضربه غيره، فالغضب تبع للحب. فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع أصل الغضب وهو نادر جدّاً، وقد تنتهي إلى المنع من إستعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون.

فإن قلت: الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب، فمن له شاة مثلاً وهي قوته فماتت لا يغضب على أحد و إن كان يحصل فيه كراهة، وليس من ضرورة كل كراهة غضب، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه؛ إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم، فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها، إذ يرى الذبح والموت من الله عزّ وجلّ فيندفع الغضب بغلبة التوحيدويندفع أيضاً بحسن الظن بالله، وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى وأن الله لا يقدّر له إلا ما فيه الخيرة، وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله، فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لأنه يرى أن الخيرة فيه، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف، تغلب في أحوال مختلفة ولا تدوم، ويرجع القلب إلى الإلتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعياً لا يندفع عنه، ولو تصور ذلك على الدوام لبشر

---

(١) حديث: «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنة عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله «بحذافيرها» قال الترمذي حسن غريب.

لتصور لرسول الله ﷺ فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه[١] حتى قال: «اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها مني صلاة عليه وزكاة وقربة تقرّبه بها إليك يوم القيامة[٢]» وقال عبد الله بن عمر وبن العاص: يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال: «أكتب فوالذي بعثني بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق» وأشار إلى لسانه[٣] فلم يقل إني لا أغضب، ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق، أي لا أعمل بموجب الغضب. وغضبت عائشة رضي الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله ﷺ: «مالك؟ جاءك شيطانك» فقالت: ومالك شيطان؟ قال: «بلى ولكني دعوت الله فأعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير[٤]» ولم يقل: لا شيطان لي، وأراد شيطان الغضب لكن قال: لا يحملني على الشر. وقال علي رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له[٥] فكان يغضب على الحق، وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فإنما غضب لله، فلا يمكن الإنفكاك عنه. نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه، فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره، فإن استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه.

وهذا كما أن سلمان لما شتم قال: إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول. فقد كان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم. وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال: يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه فقال: ما ستر الله عنك أكثر؛ فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته، فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان، وذلك لجلالة قدره. وقالت إمرأة لمالك بن دينار: يا مرائي، فقال: ما عرفني غيرك! فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء، ومنكراً على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه. وسب رجل الشعبي فقال: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم، فإذاً إشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب؛ فإذاً يتصوّر فقد الغيظ إما باشتغال القلب بمهم، أو بغلبة نظر التوحيد، أو بسبب ثالث: وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ فيطفىء شدة حبه لله غيظه، وذلك غير محال في أحوال نادرة. وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها - كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا - ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر أسباب الغضب، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون فعله. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده.

---

(١) حديث: كان ﷺ يغضب حتى تحمر وجنتاه. أخرجه مسلم من حديث جابر: كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه. وللحاكم: كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه. وقد تقدم في أخلاق النبوة.

(٢) حديث: «اللهم أنا بشر اغضب كما يغضب البشر... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله: «أغضب كما يغضب البشر» وقال «جلدته» بدل «ضربته» وفي رواية «أللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر» وأصله متفق عليه وتقدم لمسلم من حديث أنس: «إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر» ولأبي يعلي من حديث أبي سعيد أو ضربته.

(٣) حديث عبد الله بن عمرو: يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا؟ قال: «أكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق» وأشار إلى لسانه. أخرجه أبو داود بنحوه.

(٤) حديث: غضبت عائشة فقال النبي ﷺ: «مالك جاءك شيطانك؟... الحديث» أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٥) حديث علي: كان لا يغضب للدنيا... الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل وقد تقدم.

بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بدّ من معرفة أسباب الغضب. وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله، قال فما يقرّب من غضب الله، قال أن تغضب، قال: فما يبدي الغضب وما ينبته؟ قال عيسى: الكبر والفخر والتعزز والحمية.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادّة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد إزالة هذه الأسباب بأضدادها.

فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع. وتميت العجب بمعرفتك بنفسك - كما سيأتي بيانه في كتاب الكبر والعجب - وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم في الإنتساب أب واحد؛ وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟ وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك. وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة. وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك. وأما التعيير فالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب. وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الإستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة.

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها. ومن أشدّ البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه. وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه، وتسميه هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها، وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه. بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب[1]» بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم.

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج، فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت

(١) حديث: «ليس الشديد بالصرعة» تقدم قبله.

حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.

إما العلم فهو ستة أمور؛ الأول: أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والإحتمال فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والإنتقام وينطفىء عنه غيظه، قال مالك بن أوس ابن الحدثان: غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فكان عمر يقول: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فكان يتأمل في الآية وكان وقافاً عند كتاب الله مهما تلي عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلى الرجل. وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى: (والكاظمين الغيظ) فقال لغلامه خل عنه.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه علي يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو. فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة: «يا إبن آدم أذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق. وبعث رسول الله ﷺ وصيفاً إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال: «لولا القصاص لأوجعتك[1]» أي القصاص في القيامة. وقيل ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها: ارحم المسكين واخشَ الموت واذكر الآخرة، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والإنتقام وتشمر العدوّ لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة. وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه، لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض، إلا أن يكون بمحذوره أن تتشوّش عليه في الدنيا فراغه للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاّب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الإقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الإنتقام ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس! فيقول لنفسه: ما أعجبك! تأنفين من الإحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيك وانتقم منك؟ وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين؟ فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله، فما له وللناس؟ وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

---

(١) حديث: «لولا القصاص لأوجعتك» أخرجه أبو يعلي من حديث أم سلمة بسند ضعيف.

وإما العمل فإن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ[1] وكان رسول الله ﷺ إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال: «يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد أغفر لي ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن[2]» فيستحب أن تقول ذلك، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائمًا واضجع إن كنت جالساً وأقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك، واطلب بالجلوس والإضجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة. فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب جمرة توقد في القلب[3]» ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائمًا فليجلس وإن كان جالساً فلينم، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء: فقد قال ﷺ: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار[4]» وفي رواية «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «وإذا غضبت فاسكت[5]» وقال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس إضطجع فيذهب غضبه[6] وقال أبو سعيد الخدري: قال النبي ﷺ: «ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم[7] ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خدة بالأرض» وكأن هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعزّ الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب.

وروي أن عمر غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق وقال: إن الغضب من الشيطان وهذا الغضب. وقال عروة ابن محمد: لما استعملت على اليمن قال لي أبي: أو ليت؟ قلت: نعم، قال: فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك إلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما. وروي أن أبا ذرّ قال لرجل: يا ابن الحمراء ـ في خصومة بينهما ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذرّ بلغني أنك اليوم عيرت أخاك بأمه» فقال: نعم، فانطلق أبو ذرّ ليرضي صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذرّ إرفع رأسك فانظر ثم إعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل» ثم قال: «إذا غضبت فإن كنت قائمًا فاقعد وإن كنت قاعداً فاتكىء وإن كنت متكئاً فاضطجع[8]» وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان

---

(١) حديث: الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ. متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه. . . الحديث. وفيه: «لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد» فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . . الحديث».

(٢) حديث: كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال «يا عويش قولي أللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي واذهب غيظ قلبي. . . الحديث» أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديثها وتقدم في الأذكار والدعوات.

(٣) حديث: «إن الغضب جمرة توقد في القلب. . . الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله «توقد» وقد تقدم ورواه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب.

(٤) حديث: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد. . . الحديث» أخرجه أبو داود من حديث عطية السعدي دون قوله «بالماء البارد» وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها المصنف وقد تقدم.

(٥) حديث ابن عباس: إذا غضبت فاسكت. أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ لها والبيهقي في شعب الإيمان وفيه ليث بن أبي سليم.

(٦) حديث أبي هريرة: كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه. أخرجه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد بإسناد جيد في أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائمًا فجلس ثم اضطجع فقيل له: لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع» والمرفوع عند أبي داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود.

(٧) حديث أبي سعيد: «إلا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم. . . الحديث» أخرجه الترمذي وقال حسن.

(٨) حديث أبي ذر: أنه قال لرجل: يا ابن الحمراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي ﷺ. . . الحديث. وفيه فقال: يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر. . . الحديث. وفيه ثم قال: «إذا غضبت» إلى آخره. أخرجه ابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح وفي الصحيحين من حديثه قال: كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكاني إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية» ولأحمد أنه ﷺ قال له: «أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى» ورجاله ثقات.

قبلكم يغضب نيشتدّ غضبه فكتب صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول: إذا غضبت فاعطني هذه، وقال الثاني: إذا سكن بعض غضبي فاعطني هذه، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فاعطني هذه، فاشتد غضبه يوماً فأعطى الصحيفة الأولى فأذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت َبشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً، فسكن بعض غضبه، فأعطى الثانية فإذا فيها: أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء، فأعطى الثالثة فإذا فيها: خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك. أي لا تعطل الحدود. وغضب المهدي على رجل فقال شبيب: لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه، فقال: خلوا سبيله.

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى: (والكاظمين الغيظ) وذكر ذلك في معرض المدح. وقال رسول الله ﷺ: «من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته[١]» وقال ﷺ: «أشدّكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة[٢]» وقال ﷺ: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا» وفي رواية «ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً[٣]» وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها إبتغاء وجه الله تعالى[٤]» وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال ﷺ: «إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى[٥]» وقال ﷺ: «ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً[٦]» وقال ﷺ: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه على رؤوس الخلائق ويخيره من أي الحور شاء[٧]».

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله لم يشفِ غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشفي غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك. وقال أيوب: حلم ساعة يدفع شراً كثيراً. واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد، فاجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع. وقال رجل لعمر رضي الله عنه: والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه. فقال له رجل. يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ فهذا من الجاهلين، فقال عمر: صدقت، فكأنما كانت ناراً فأطفئت. وقال محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله، إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل وإذا غضب لم

فضيلة كظم الغيظ

(١) حديث: «من كف غضبه كف الله عنه عذابه... الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس بإسناد ضعيف ولابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر «من ملك غضبه وقاه الله عذابه... الحديث» وقد تقدم في آفات اللسان.

(٢) حديث: «أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة» أخرجه ابن أبي الدنيا من حيث علي بسند ضعيف والبيهقي في الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلاً بإسناد جيد، وللبزار والطبراني في مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث «أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب» وفيه عمران القطان مختلف فيه.

(٣) حديث: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا» وفي رواية «أمناً وإيماناً» أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حيان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن أبيه، ورواها ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم.

(٤) حديث ابن عمر: «ما جرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ ابتغاء وجه الله» أخرجه ابن ماجة.

(٥) حديث ابن عباس: «إن لجهنم باباً لا يدخل منه إلا من شفي غيظه بمعصية الله» تقدم في آفات اللسان.

(٦) حديث: «ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلفق من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذي لم يسم وقد تقدما.

(٧) حديث: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاء الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء» تقدم في آفات اللسان.

يخرجه غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. وجاء رجل إلى سلمان فقال: يا عبد الله أوصني، قال: لا تغضب، قال لا أقدر، قال: فإن غضبت فامسك لسانك ويدك.

بيان فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكساره قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً. قال ﷺ: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه[1]» وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولاً وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم. وقال أبو هريرة. قال رسول الله ﷺ: «أطلبوا العلم واطلبو مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم[2]» وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذي يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين. وكان من دعائه ﷺ: «اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم واكرمني بالتقوى وجملني بالعافية[3]» وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «إبتغوا الرفعة عند الله. » قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: « تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عمن جهل عليك[4]» وقال ﷺ: «خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر[5]» وقال علي كرم الله وجهه: قال النبي ﷺ: «إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جباراً عنيداً ولا يملك إلا أهل بيته[6]» وقال أبو هريرة: إن رجلاً قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إلي ويجهلون عليَّ واحلم عنهم، قال: «إن كان كما تقول فكأنما تسفهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك[7]» الملّ: يعني به الرمل. وقال رجل من المسلمين: اللهم ليس عندي صدقة أتصدّق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ إني قد غفرت له[8] وقال ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم» قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: «رجل ممن كان قبلكم كان إذا أصبح يقول: اللهم إني تصدّقت اليوم بعرضي على من ظلمني[9]».

بيان فضيلة الحلم

(١) حديث: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم... الحديث» أخرجه الطبراني والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

(٢) حديث أبي هريرة: «أطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم... الحديث» أخرجه ابن السني في رياضة المتعلمين بسند ضعيف.

(٣) حديث: «كان من دعائه «اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث «ابتغوا الرفعة عند الله» قالوا: وما هي؟ قال: «تصل من قطعك... الحديث» أخرجه الحاكم والبيهقي وقد تقدم.

(٥) حديث: «خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر» أخرجه أبو بكر بن أبي عاصم في المثاني والآحاد والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده، وللترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب «أربع» فأسقط «الحلم والحجامة» وزاد «النكاح».

(٦) حديث علي: «إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم... الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف.

(٧) حديث أبي هريرة: إن رجلاً قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن اليهم ويسيئون إليّ ويجهلون عليّ وأحلم عنهم.. الحديث. رواه مسلم.

(٨) حديث: قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو صدقة عليه... الحديث. أخرجه أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد بن أبي عبس بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين، زاد البيهقي عن علية بن زيد وعلية هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر في الإستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة: أن رجلاً من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضمضم قلت وليس بأبي ضمضم إنما هو علية بم زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم.

(٩) حديث: «أيعجز أحدكم ان يكون كأبي ضمضم... الحديث» تقدم في آفات اللسان.

وقيل في قوله تعالى (ربانيين) أي حلماء علماء. وعن الحسن في قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) قال حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقال عطاء بن أبي رباح (يمشون على الأرض هوناً) أي حلماء. وقال ابن أبي حبيب في قوله عزّ وجلّ (وكهلاً) قاله: الكهل منتهى الحلم. وقال مجاهد (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) أي إذا أوذوا صفحوا.

وروي أن ابن مسعود مر بلغو معرضاً فقال رسول الله ﷺ: «أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً[1]» ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوي قوله تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) وقال النبي ﷺ: «اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم، قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب[2]» وقال ﷺ: «ليليني منكم ذوو الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، وإياكم وهيشات الأسواق[3]» وروى أنه وفد على النبي ﷺ الأشج فأناخ راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما، وذلك بعين رسول الله ﷺ يرى ما يصنع، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله» قال: ما هما بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «الحلم والإناة» فقال: خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما؟ فقال: «بل خلقان جبلك الله عليهما» فقال: «الحمد الله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله[4]» وقال ﷺ: «إن الله يحب الحليم الحي الغني المتعفف أبا العيال التقي ويبغض الفاحش البذي السائل الملحف الغبي[5]» وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدّوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله عزّ وجلّ. وحلم يكف به السفيه، وخلق يعيش به في الناس[6]» وقال رسول الله ﷺ؛ «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فتقولون لهم إنا نراكم سراعاً إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل، فيقولون لهم ما كان فضلكم؟ فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسيء إلينا عفونا وإذا جهل علينا حلمنا. فيقال لهم أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين[7]».

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وقال علي رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت إستغفرت الله تعالى. وقالّ الحسن: أطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم. وقال أكثم بن صيفي: دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر. وقال أبو الدرداء: أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن عرفتهم نقدوك وإن تركتهم لم يتركوك، قالوا: كيف نصنع؟ قال؛ تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك. وقال علي رضي الله عنه: إن أوّل ما عوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وقال معاوية رحمه الله تعالى: لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم، وقال معاوية لعمر بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟

---

(١) حديث أن ابن مسعود مرّ بلغو معرضاً فقال النبي ﷺ: «أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً» أخرجه ابن المبارك في البر والصلة.

(٢) حديث: «اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم... الحديث» أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف.

(٣) حديث: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهي... الحديث» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله: «ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود.

(٤) حديث: «يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة... الحديث» متفق عليه.

(٥) حديث: إن الله يحب الحيي الحليم الغني المتعفف... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث سعد «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي».

(٦) حديث ابن عباس: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهم فلا تعتدوا بشيء من عمله» أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بإسناد لين وقد تقدم في آداب الصحبة.

(٧) حديث: «إذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس... الحديث» وفيه: «إذا جهل علينا حلمنا» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقي في إسناده ضعف.

قال: من رد جهله بحلمه قال. أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه. وقال أنس بن مالك في قوله تعالى (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) إلى قوله (عظيم) هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً فغفر الله لك وإن كنت صادقاً فغفر الله لي. وقال بعضهم: شتمت فلاناً من أهل البصرة فحلم عليَّ فاستعبدني بها زماناً. وقال معاوية لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ قال: يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى في حوائجهم. فمن فعل فعلي فهو مثلي ومن جاوزني فهو أفضل مني ومن قصر عني فأنا خير منه. وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال: يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين، فقال: ليس تقبل شهادتك. وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عزّ وجلّ وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم إشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لي: إن تركك له ذل، فقال جعفر: إنما الذليل الظالم. وقال الخليل بن أحمد: كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته وقال الأحنف بن قيس: لست بحليم ولكنني أتحلم. وقال وهب بن منبه: من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يغلب، ومن يعجل يخطىء، ومن يحرص على الشر لا يسلم، ومن لا يدع المراء يشتم، ومن لا يكره الشر يأثم، ومن يكره الشر يعصم، ومن يتبع وصية الله يحفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتـول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتقر، ومن يأمن مكر الله يخذل، ومن يستعن بالله يظفر. وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء، قال، أنت إذن أكرم لي من نفسي إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي. وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به. وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك، فقال: معك يدخل لا معي. ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شراً فقال لهم خيراً فقيل له: إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً؟ فقال: كل ينفق مما عنده. وقال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه. ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاماً فخرجت إمرأة الحكيم ـ وكانت سيئة الخلق ـ فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضباً فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا؟ قال: نعم، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة؛ فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال: صدق الحكيم، الحلم شفاء من كل ألم. وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب. وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنبٍ	وإن كثـرت منـه علـيّ الجـرائـم
ومـا النـاس إلا واحـد من ثـلاثـة	شـريـف ومشـروف ومثـلي مقـاوم
فـأمـا الـذي فـوقي فـاعـرف قـدره	وأتـبـع فـيـه الحـق والحـق لازم
وأما الذي دوني فـإن قال صنت عن	إجـابتـه عـرضي وإن لام لائـم
وأمـا الـذي مثـل فـإن زل أوهفـاً	تـفـضـلـت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذي يجوز الإنتصار والتشفي به من الكلام

اعـلـم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي. وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه في الفقه.

وإما السب فلا يقابل بمثله إذ قال رسول الله ﷺ: «إن امرؤ غيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه[١]» وقال: «المستبان ما قالا فهو على البادىء ما لم يعتد المظلوم» وقال: «المستبان شيطانان يتهاتران[٢]» وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: إنك كنت ساكتاً لما شتمني فلما تكلمت قمت قال: «لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان[٣]» وقال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه، والأفضل تركه ولكنه لا يعصي به. والذي يرخص فيه أن تقول: من أنت؟ وهل أنت إلا من بني فلان؟ كما قال سعد لابن مسعود: وهل أنت إلا من بني هذيل؟ وقال ابن مسعود: وهل أنت إلا من بني أمية؟ ومثل قوله: يا أحمق، قال مطرف: كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض. وقال ابن عمر في حديث طويل: حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى[٤] وكذلك قوله يا جاهل، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل؛ فقد آذاه بما ليس بكذب. وكذلك قوله يا سيء الخلق، يا صفيق الوجه يا ثلايا للإعراض، وكان ذلك فيه. وكذلك قوله: لو كان فيك حياء لما تكلمت، وما أحقرك في عيني بما فعلت، وأخزاك الله وأنتقم منك.

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق، لما روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام، فذكر رجل خالداً عند سعد، فقال سعد: مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا. يعني أن يأثم بعضنا في بعض، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب: ما روت عائشة رضى الله عنها أن أزواج النبي ﷺ أرسلن إليه فاطمة، فجاءت فقالت: يا رسول الله أرسلني إليك أزواجك يسألنك العدل في إبنة أبي قحافة، والنبي ﷺ نائم، فقال: «يا بنية أتحبين ما أحب؟» قالت: نعم، قال: «فأحبي هذه» فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن: ما أغنيت عنا شيئاً: فأرسلن زينب بنت جحش، قالت: وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت: بنت أبي بكر وبنت أبي بكر، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله ﷺ في الجواب فأذن لي، فسببتها حتى جف لساني فقال النبي ﷺ: «كلا إنها إبنة أبي بكر[٥]» يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط وقولها: سببتها، ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق. وقال النبي ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم[٦]» فأثبت للمظلوم إنتصار إلى أن يعتدي. فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء وهو رخصة في الإيذاء جزاءً على إيذائه السابق. ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه ولا يمكنه الإقتصار على قدر الحق فيه، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حدّ الشرع فيه، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعاً، ومنهم من يكف نفسه في الإبتداء ولكن يحقد على الدوام. والناس في الغضب أربعة: فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية

---

(١) حديث: «إن امرؤ عيّرك بما فيك فلا تعيره بما فيه» أخرجه أحمد من حديث جابر بن مسلم. وقد تقدم.

(٢) حديث المستبان شيطانان يتهاتران. تقدم.

(٣) حديث: شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام ﷺ. الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلاً ومرسلاً قال البخاري المرسل أصح.

(٤) حديث ابن عمر في حديث طويل: «حتى ترى الناس كأنهم حمقى في ذات الله عزّ وجلّ» تقدم في العلم.

(٥) حديث عائشةإن أزواج ﷺ أرسلن فاطمة فقالت: يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة... الحديث. رواه مسلم.

(٦) حديث: «المستبان ما قالا فعلى البادي... الحديث» رواه مسلم وقد تقدم.

والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم. وفي الخبر «المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك[1]» وقال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان. وقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطيء الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء؛ فتلك بتلك، ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء[2]» ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبة، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظاً عليه فيكون متشفياً لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحبه حظ نفسه، فينبغي أن يكون إنتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه. ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعزره فشتمه السكران فرجع عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته؟ قال: لأنه أغضبني ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب أن أضرب مسلماً حمية لنفسي. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك.

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه إستثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى، وقد قال ﷺ: «المؤمن ليس بحقود[3]» فالحقد ثمرة الغضب.

والحقد يثمر ثمانية أمور (الأول) الحسد: وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين. وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى. (الثاني أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء. (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك. (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغاراً له. (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره. (السادس) أن تحاكيه إستهزاء به وسخرية منه. (السابع) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه. (الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرام،

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به، ولكن تستثقله في الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له، أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته. فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كان لا يعرّضك لعقاب الله.

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ـ وكان قريبه ـ لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى (ولا يأتل أولو الفضل منكم) إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فقال أبو بكر: نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه[4]

فضيلة العفو

(١) حديث: «المؤمن سريع الغضب سريع الرضي» تقدم.
(٢) حديث أبي سعيد الخدري: «إلا أن بني آدم خلقوا على طبقات... الحديث» تقدم.
(٣) حديث: «المؤمن ليس بحقود» تقدم في العلم.
(٤) حديث: لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم﴾ الآية متفق عليه من حديث عائشة.

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصدّيقين وهو من فضائل أعمال المقرّبين. فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة (أحدها) أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل. (الثاني) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل. (الثالث) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني: هو اختيار الصدّيقين، والأول: هو منتهى درجات الصالحين ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان.

فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرىء عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ؛ فلذلك أفردناه. قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال الله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث والذي نفسي بيده لو كنت حلافاً لحلفت عليهن: ما نقص مال من صدقة فتصدّقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر[1]» وقال ﷺ: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، والعفو لا يزيد العبد إلا عزّاً فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله[2]» وقالت عائشة رضى الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدّهم في ذلك غضباً، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً[3]» وقال عقبة «لقيت رسول الله ﷺ يوماً فابتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك[4]» وقال ﷺ: «قال موسى عليه السلام يا رب أي عبادك أعزّ عليك؟ قال الذي إذا قدر عفا[5]» وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذي يعفو إذا قدر فاعفوا يعزكم الله وجاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو مظلمة فأمره النبي ﷺ أن يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمته، فقال له ﷺ: «إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة[6]» فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث: وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ؛ «إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات: يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض[7]» وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ

---

(١) حديث: «ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً لحلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري ولمسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله» أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث عائشة: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط... الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم.

(٤) حديث عقبة بن عامر «يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم.

(٥) حديث: قال موسى يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال الذي إذا قدر عفا. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة.

(٦) حديث: «إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة» وفي أوله قصة رواها ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلاً.

(٧) حديث أنس: إذا بعث الله عزّ وجلّ الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات: يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض. أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقري في كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ: «ينادي مناد من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمة محمد إن الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي» وأسناده ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ: «نادى مناد يا أهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم علي» وله من حديث أم علي: «ينادي مناد يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعليّ الثواب».

بعضادتي الباب فقال: «ما تقولون وما تظنون؟» فقالوا: نقول أخ وابن عم حليم رحيم ـ قالوا ذلك ثلاثاً ـ فقال ﷺ: «أقول كما قال يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾[1]» قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام. وعن سهيل بن عمر وقال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون؟» قال: قلت يا رسول الله نقول خيراً ونظن خيراً أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت، فقال رسول الله ﷺ: «أقول كما قال أخي يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)[2]» وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة، قيل ومن ذا الذي له على الله أجر؟ قال: «العافون عن الناس، فيقوم كذا وكذا ألفاً فيدخلونها بغير حساب[3]» وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحدّ إلا أقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ الآية[4]» وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أي أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء: من أدى ديناً خفياً وقرأ في دبر كل صلاة (قل هو الله أحد) عشر مرات وعفا عن قاتله» قال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله قال: «أو إحداهن[5]».

الآثار: قال إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه. وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وإنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب. وقال بعضهم: إذا أراد الله أن يتحف عبداً فيض له من يظلمه. ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه فقال له عمر: إنك إن تلقى الله مظلمتك كما هي، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها. وقال يزيد بن ميسرة: إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت إستجبنا لك وأجبنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه: كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل. وعن إبن عمر عن أبي بكر أنه قال: بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة فينادي من كان له عند الله فليقم فيقوم أهل العفو، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس. وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فعفا عنه والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه وقال؛

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال: وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر، قال: فكنت عنده إذا أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر، فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك

---

(١) حديث أبي هريرة: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: «ما تقولون... الحديث» رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف.

(٢) حديث سهيل بن عمرو: لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحوه: لم أجده.

(٣) حديث أنس: «إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أره على الله فليدخل الجنة» قيل من ذا الذي أجره على الله؟ قال: «العافون عن الناس... الحديث» أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه.

(٤) حديث ابن مسعود: «لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو... الحديث» أخرجه أحمد والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة.

(٥) حديث جابر: ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء... الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط في الدعاء بسند ضعيف.

حديثاً سمعته من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلت سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيقوم منادٍ فينادي من لهن عند الله يد فليقم، فلا يقوم إلا من عفا، فقال: والله لقد سمعته من الحسن؟ فقلت والله لسمعته منه، فقال: خلينا عنه. وقال معاوية: عليكم بالحلم والإحتلال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم بالصفح والإفضال. وروى أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين أكان نبياً؟ فقال. لا، ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا حدث صدق، ولا يجمع شغل اليوم لغد. وقال بعضهم: ليس الحليم من ظلم فحلم. حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا. وقال زياد، القدرة تذهب الحفيظة يعنى الحقد والغضب وأتى هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام: وتتكلم أيضاً؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين قال الله عزّ وجلّ (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاماً؟ قال هشام: بلى ويحك تكلم. وروي أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له إقطعه فإنه من أعدائنا، فقال بل إستر عليه لعل الله يستر علي يوم القيامة - وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللهم إقطع يد السارق الذي أخذها اللهم أفعل به كذا، فقال عبد الله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه. وقال الفضيل: ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إليَّ في المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكي فقلت أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا، ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله عزّ وجلّ فأشرف عقلي على إدحاض حجته فبكائي رحمة له؟ وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلاً وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصه يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب فقال: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال: أيها الأمير ماذا صنع الله به؟ أداله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله؟ ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه. قال الحكم فأنا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لواريتكم تحته. وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: فلان هارب من زلته إلى عفوك لألذ منك بك. وأعلم أنه لن يزداد الذنب عظماً إلا ازداد العفو فضلاً. وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة. ما ترى؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم. وروي أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارج فأفلت منه فأخذ أخاً له فقال له. إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك، فقال. أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي؟ قال نعم فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى) فقال زياد خلوا سبيله، هذا رجل قد لقن حجته، وقيل مكتوب في الإنجيل. من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان.

فضيلة الرفق

إعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة. والعنف نتيجه الغضب والفظاظة. والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة، وقد يكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال. ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ

فيه فقال: «يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة[1]» وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق[2]» وقال ﷺ: «إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى[3]» وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[4]» وقال ﷺ: « يا عائشة إرفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق[5]» وقال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله[6]» وقال ﷺ: «أيما والٍ ولي فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة[7]» وقال ﷺ: «تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب[8]» وقال ﷺ: «الرفق يمن والخرق شؤم[9]» وقال ﷺ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان[10]» وروي أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال يا رسول الله «إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصني منك بخير فقال: «الحمد لله» مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال: «هل أنت مستوصٍ» مرتين أو ثلاثاً قال: نعم. قال: «إن أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فانته[11]» وعن عائشة رضي الله عنها. أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه[12]».

الآثار: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته إشتكوا من عماله فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أيتها الرعية إن لنا عليكم حقاً النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة إن للرعية عليكم حقاً فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه، ليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرجه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه.

وقال وهب بن منبه: الرفق ثنى الحلم.

فضيلة الرفق

(١) حديث: «يا عائشة أنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة... الحديث» رواه أحمد والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضعفه عن القاسم عن عائشة. وفي الصحيحين من حديثها «يا عائشة أن الله يحب الرفق في الأمر كله».

(٢) حديث: «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق» أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة.

(٣) حديث: «إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق... الحديث» أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير بإسناد ضعيف.

(٤) حديث: «إن الله رفيق يحب الرفق... الحديث» أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٥) حديث: «يا عائشة أرفقي إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق» أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبي فاود «يا عائشة أرفقي».

(٦) حديث: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله «كله» فهي عند أبي داود.

(٧) حديث: «أيما وال ولي فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة» أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه: «ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

(٨) حديث: «تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب» أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب الصحبة.

(٩) حديث: «الرفق يمن والخرق شؤم». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف.

(١٠) حديث: «التأني من الله والعجلة من الشيطان» أخرجه أبو يعلي من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ «الأناة من الله» وقد تقدم.

(١١) حديث: أتاه رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك... الحديث» وفيه «فإذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه... الحديث» أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر هو المسمى عبد الله بن مسور الهاشمي ضعيف جداً ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده «إذا هممت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته» وإسناده ضعيف.

(١٢) حديث عائشة: «عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه... الحديث» رواه مسلم.

وفي الخبر موقوفاً ومرفوعاً «العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده[1]». وقال بعضهم: ما أحسن الإيمان يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم. وقال عمرو بن العاص لإبنه عبد الله. ما الرفق؟ قال: تكون ذا أناة فتلاين الولاة. قال فما الخرق؟ قال: معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك. وقال سفيان لأصحابه: تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور من مواضعها: الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيف في موضعه والسوط في موضعه؛ وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسناً كما أن الرفق في محله حسن، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهوألذ من الزبد بالشهد وهكذا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني فكتب إليه معاوية. أما بعد، فإن الفهم في الخير زيادة رشد، وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الجانب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العجل مخطىء أو كاد أن يكون مخطئاً، وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي. وعن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها. وقال أبو حمزة الكوفي: لا تتخذ منَ الخدم إلا ما لا بد منه فإن مع كل إنسان شيطاناً. واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل نه. وقال الحسن: المؤمن وقاف متأنّ وليس كحاطب ليل. فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور، وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجح معه في الأكثر.

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغايه الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى. وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة: قال رسول الله ﷺ؛ «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[2]» وقال ﷺ: «في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً[3]» وقال أنس: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة» قال: فطلع رجل من الأنصار

---

(١) حديث: «العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده» أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف.

القول في ذم الحسد

(٢) حديث: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم.
(٣) حديث: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا. . . الحديث» متفق عليه وقد تقدم.

ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان الغد قال ﷺ: «مثل ذلك فطلع ذلك الرجل، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت، فقال: «نعم» فبات عنده ثلاث ليالٍ فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم لصلاة الفجر، قال: غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: «يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبد الله؛ فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق[1]. وقال ﷺ: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن والطيرة والحسد، وسأحدّثكم بالمخرج من ذلك: إذا ظننت فلا تحقق؛ وإذا تطيرت فامضِ، وإذا حسدت فلا تبغِ[2]» وفي رواية «ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن» فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة. وقال ﷺ؛ «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم[3]» وقال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر[4]» وقال ﷺ: «إنه سيصيب أمتي داء الأمم» قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج[5]» وقال ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك[6]» وروي أن موسى عليك السلام لما تعجل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه فقال: إن هذا لكريم على ربه، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة. وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: (الحاسد عدوّ لنعمتي متسخط لقضائي غير راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي. وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون[7]» وقال ﷺ: «إستعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود[8]» وقال ﷺ: «إن لنعم الله أعداء» فقيل ومن هم؟ فقال:

---

(١) حديث أنس: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة... الحديث بطوله» وفيه: أن ذلك الرجل قال لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وسمي الرجل في رواية له سعداً وفيها ابن لهيعة.

(٢) حديث: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن والطعن والحسد الحديث» وفي رواية «وقل من ينجو منهن» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزمري وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه وتقدم في آفات اللسان.

(٣) حديث «دب إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء... الحديث. أخرجه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير.

(٤) حديث: «كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر» أخرجه أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ «كادت الحاجة أن تكون كفراً» وفيه ضعف أيضاً.

(٥) حديث: «إنه سيصيب أمتي داء الأمم قبلكم» قالوا وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

(٦) حديث: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعاقبه الله ويبتليك» أخرجه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا فيرحمه الله.

(٧) حديث «أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهلة أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» ولهما من حديث عمرو بن عوف البدري «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا... الحديث» ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «إذا افتحت عليكم فارس والروم. الحديث» وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون... الحديث. ولأحمد والبزار من حديث عمر «لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة»

(٨) حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني. من حديث معاذ بسند ضعيف.

«الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله[1]» وقال ﷺ: «ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة» قيل يا رسول الله من هم؟ قال: «الأمراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالتكبر والتجار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد[2]».

الآثار، قال بعض السلف: أول خطيئة هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله على الحسد والمعصية. وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذٍ على واسط فقال: إني أريد أن أعظك بشيء فقال: وما هو؟ قال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عصى الله به، ثم قرأ ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾ الآية، (وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السمٰوات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها، ثم قرأ (اهبطوا منها) إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق)، الآيات وإذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ فأمسك، وإذا ذكر القدر فاسكت، وإذا ذكرت النجوم فاسكت.) وقال بكر بن عبد الله: كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلي المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحدائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر، فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر، فقال له: إنصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فقال له الملك: أدن مني فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا قد صدق؟ قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به إلي فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة، فقال: هبه لي! فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل: فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لي فالله الله في أمري حتى تراجع الملك؛ فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله؛ فعجب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له، قال له الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر، قال: ما قلت ذلك قال: فلم وضعت يدك على فيك؟ قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمه، قال: صدقت إرجع إلى مكانك فقد كفى المسيء إساءته. وقال ابن سيرين رحمه الله: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟ وقال رجل للحسن: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ نعم، ولكن غمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولا لساناً. وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل:

كل العداوات قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد

---

(١) حديث: «إن لنعم الله أعداء «قيل ومن أولئك؟ قال: «الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس «إن لأهل النعم حساد فاحذروهم».

(٢) حديث: «ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة» قيل يا رسول الله ومن هم؟ قال: «الأمراء بالجور. . . الحديث» وفيه «والعلماء بالحسد» أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين.

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقي. وقال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه. وقال الحسن: يا ابن آدم لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار؟ وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمه وذلاً، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغمّا، ولا ينال عند النزع إلا شدّة وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً.

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

إعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسداً. فالحسد حدّه كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها. وهذه تسمى غبطة، وقد تختص باسم المنافسة.

وقد تسمى المنافسة حسداً والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني. وقد قال ﷺ: «إنّ المؤمن يغبط والمنافق يحسد[1]».

فإما الأوّل فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته، ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان. وقال تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسكم﴾ فأخبر تعالى أن حبهم زوال الإيمان حسد. وقال عزّ وجلّ ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين. إقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه غيبوه عنه وقال تعالى ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أتوا﴾ أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد. وقال تعالى في معرض الإنكار ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ وقال تعالى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ إلى قوله ﴿ إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ قيل في التفسير: حسداً وقال تعالى ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض. قال ابن عباس: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا: (نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا[2]) . فكانوا

---

(١) حديث: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» لم أجد له أصلاً مرفوعاً، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد.

بيان حقيقة الحسد وحكمه

(٢) حديث ابن عباس: قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله... الحديث: في =

ينصرون. فلما جاء النبي ﷺ من ولد إسمٰعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾إلى قوله﴿أن يكفروا بما أنزل الله بغياً﴾أي حسداً. وقالت صفية بنت حي للنبي ﷺ: جاء أبي وعمي من عندك يوماً، فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنه النبي الذي بشر به موسى. قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة[1] فهذا حكم الحسد في التحريم.

وإما المنافسة: فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد، قال قثم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة ـ قالا لعلي حين قال لهما: لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها ـ فقالا له: ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك أبنته فما نفسنا ذلك عليك[2] أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة.

والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) وقال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها، فكيف وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك فقال: «لا حسد إلا في إثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه عليّ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله تعالى علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس[3]» ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال: «مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فيقول رب لو أن لي مالاً مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء ـ وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال ـ ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو ينفقه في معاصي الله، ورجل لم يؤته علماً ولم يؤته مالاً فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكنت أنفقه في مثل ما أنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء[4]» فذمه رسول الله ﷺ من جهة تمنية للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله. فإذاً لا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له. نعم إن كانت تلك النعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة، وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللحوق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة، وكان تحت هذه النعمة أمران، أحدهما: راحة المنعم عليه، والآخر. ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له.

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد

= نزول قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أخرجه ابن إسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ، فذكره نحوه وهو منقطع.

(1) حديث: قالت صفية بنت حيى للنبي ﷺ جاء أبي وعمي من عندك يوماً فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى... الحديث. أخرجه ابن إسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً.

(2) حديث قال قم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي... الحديث» هكذا وقع للمصنف أنه قم والفضل وإنما هو الفضل والمطلب ابن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة ابن الحارث قال: اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس ائتيا إلى رسول الله ﷺ فكلماه؛ فذكر الحديث.

(3) حديث «لا حسد إلا في اثنتين... الحديث» متفق عليه من حديث ابن عمرو وقد تقدم في العلم.

(4) حديث أبي كبشة: مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالاً... الحديث» رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح.

والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا دقيقة غامضة: وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة هو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود، فإذا انسدّ أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره، وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسداً مذموماً، وإن كان تدعه التقوّى عن إزالة ذلك، فيعفى عما يجده في طبعه من الإرتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارهاً لذلك من نفسه بعقله ودينه، ولعله المعنى بقوله ﷺ: «ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة[1]» ثم قال وله منهن مخرج: «إذا حسدت فلا تبغ» أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به. وبعيد أن يكون الإنسان مريداً للحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة؛ إذ يجد لا محالة ترجيحاً له على دوامها. فهذا الحدّ من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغي أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوي الإيمان رزين التقوى. ومهما كان محرّكه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه، حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة، وذلك لا رخصة فيه أصلاً بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا، ولكن يعفى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له. فهذه هي حقيقة الحسد وأحكامه.

وأما مراتبه فأربع (الأولى) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الخبث. (الثانية) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها (الثالثة) أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما. (الرابعة) أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه.

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم، والثانية أخف من الثالثة، والأولى مذموم محض. وتسمية الرتبة حسداً فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم.

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسببه حب الله تعالى وحب طاعته، وإن كان دنيوياً حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب: العداوة، والكبر، والتعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها. فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير، وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه، أو إلى من يحبه. وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه، وهو المراد بالتعزز. وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد

(١) حديث «ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والغيرة... الحديث» تقدم غير مرة.

بالتكبر. وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيم فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب. وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه. وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبني على الإختصاص بنعمة لا يساوي فيها. وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى. ولا بد من شرح هذه الأسباب.

السبب الأول: العداوة والبغضاء، وهذا أشدّ أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والإنتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه. وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقها، وإنما غاية التقي أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعني الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسسكم حسنة تسؤهم) الآية. وكذلك قال (ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه.

السبب الثاني: التعزز؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره. فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

السبب الثالث: الكبر؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الإنقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوّف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه. ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطىء رؤسنا؟ فقالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)[1] أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيماً وقال تعالى يصف قول قريش ﴿أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾ كالاستحقار لهم والأنفة منهم.

السبب الرابع: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ ﴿وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً الخاسرون﴾ فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم، وأحبوا زوال النبوّة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدّم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب، وقالوا متعجبين (أبعث الله بشراً رسولاً﴾ وقالوا ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ وقال تعالى ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ الآية.

(١) سبب نزول قوله تعالى ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ذكره ابن إسحاق في السيرة، وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين، فأنزل الله فيما بلغني هذه الآية. ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردوية في تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالا مسعود بن عمرو، وفي رواية لابن مردوية حبيب بن عمير الثقفي وهو ضعيف.

السبب الخامس: الخوف لغز فوّت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الإنفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم، وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهه محصورين، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له.

السبب السادس: حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود. وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرّد هو به ويفرح بسبب تفرّده، وليس السبب في هذا عداوة ولا تعزز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الإنفراد. وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة. وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته. ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقعت الجبلة، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصوّر زوالها فيطمع في إزالتها، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته. فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوى قوّة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة. وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب، وقلما يتجرّد سبب واحد منها.

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عدوّ ولغير ذلك من الأسباب. وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وتترادف جملة من هذه الأسباب، إذ لا رابطة بين شخصين في

بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين، نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور من التناقض التنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الإجتماع في الحرفة، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته. لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر؛ إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز. ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر. وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع. ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص. فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة والتزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهما. نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإنّ الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين: أما الآخرة فلا ضيق فيها، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين. بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الإستفادة والإفادة. فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً، فيما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم. نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخرة، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم إنصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة: فيكون ذلك سبباً للمحاسدة، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره بها وأن يفرح بذلك. والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يتصوّر إستيعابه، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم، ولم يكن ممنوعاته ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة، فإن نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته، يأمن زوالها وهو أبداً يجنى ثمارها؛ فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهي فاكة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى؟ فإذن لا يتصوّر أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محاسدة، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً، فأهل الجنة بالضرورة براء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً، بل الحسد من صفات المبعدين عن

سعة عليين إلى مضيق سجين، ولذلك وسم به الشيطان اللعين، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الإجتباء، ولما دعي إلى السجود استكبر وأبى وتمرّد وعصى. فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل. ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً. فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها؟ ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عزّ وجلّ ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض. ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً. فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفترة عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور؛ إذ العنين لا يشتاق إلى لذة الوقاع، والصبي لا يشتاق إلى لذة الملك، فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها الرجال ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾.

بيان الدواء الذي يشفي مرضى الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوّك فارقت الحسد لا محالة. أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم. وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل النهار. وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم إد أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموماً محروماً متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوّك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقداً، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرّض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بدّ أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدّره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه، بل كل شيء عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب. ولذلك شكا نبي من الأنبياء من إمرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحىٰ الله إليه: فرّ من قدامها حتى تنقضي أيامها أي ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره فأصبر حتى تنقضي المدّة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها. ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة،

ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أوّلاً لنفسك، فإنك أيضاً لا تخلو عن عدوّ يحسدك، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الإيمان أيضاً، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان. قال الله تعالى﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ إذ ما يريد الحسود لا يكون. نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره فإن أراد الكفر كفر. فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم. وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة، فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضاً يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك، فنعمة الله تعالى عليك في إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها.

وإما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح. أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل. نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة.

وإما منفعته في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ،ولا عذاب أشدّ مما أنت فيه من ألم الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوّك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسداً. ولذلك قيل:

لا مـاتَ أعـداؤك بـل خـلدوا	حتى يـروا فيـك الـذي يـكمـد
لازلـت محـسـوداً عـلى نـعـمـة	فـإنمـا الـكـامـل مـن يحـسـد

ففرح عدوّك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوّك، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدوّ نفسك وصديق عدوّك إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوّك في الدنيا والآخرة. وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق شقياً في الحال والمآل، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوّك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك، لأنه لما رآك محروماً من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوّك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك، فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك.

وقد قال أعرابي للنبي ﷺ: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبي ﷺ: «المرء مع من أحب[1]» قام إعرابي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا إني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت[2]» قال أنس: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذٍ. إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب

(١) حديث: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال «هو مع من أحب» متفق عليه من حديث ابن مسعود.
(٢) حديث: سؤال الأعرابي متى الساعة؟ فقال: «ما أعددت لها... الحديث» متفق عليه من حديث أنس.

الله ورسوله. قال أنس. فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم. وقال أبو موسى: قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي ويحب الصوام ولا يصوم، حتى عدّ أشياء. فقال النبي ﷺ: «هو مع من أحب[1]» وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالماً فكن عالماً، فإن لم تستطع أن تكون عالماً فكن متعلمًا، فإن لم تستطع أن تكون متعلمًا فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال: سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجاً.

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوّت عليك ثواب الحب، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت، وكيف لا وعساك تحاسد رجلاً من أهل العلم وتحب أن يخطىء في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي إثم يزيد على ذلك؟ فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث «أهل الجنة ثلاثة: المحسن والمحب له والكاف عنه[2]» أي من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك أبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك، بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي سهمًا إلى عدوّه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشدّ من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظة فيعود على رأسه فيشجه، وعدوّه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه. وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه، بل حالك في الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تفوّت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة. والحسد يعود بالإثم والإثم لا يفوت بالموت، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار. فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ وربما يبتلي بعين ما يشتهيه لعدوّه، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما تمنيت لعثمان شيئاً إلا نزل بي، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت. فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجرّ إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء؟ وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة.

فهذه هي الأدوية العلمية فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صافٍ وقلب حاضر إنطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه.

وإما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والإعتذار إليه، وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه

(١) حديث أبي موسى: قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي... الحديث» وفيه «وهو مع من أحب» متفق عليه من حديث بلفظ آخر مختصراً: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال: «المرء مع من أحب».

(٢) حديث: «أهل الجنة ثلاثة: المحسن والمحب له والكاف عنه» لم أجد له أصلاً.

ويصير ما تكلفه أولاً: طبعاً آخراً ولا يصدّنه عن ذلك قول الشيطان له: لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة - تكلفاً كانت أو طبعاً - تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء المرّ. فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء؛ وإنما تهون مرارة هذا الدواء، أعني التواضع للأعداء والتقرّب إليهم، بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه. وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل، وعند ذلك يريد ما لا يكون، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين: إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه. وأما الثاني: فللمجاهدة فيه مدخل، وتحصيله بالرياضة ممكن، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي.

فأما الدواء المفصل: فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغني - وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى - فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده، فإنه ما دام محباً للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه، ويغمه ذلك لا محالة، وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الموفق.

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له، ولكن إن قوي ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الإختيارية فأنت حسود عاص بحسدك، وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، قال الله تعالى ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أتوا﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ وقال ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم﴾ أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد، بل محل الحسد القلب دون الجوارح. نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى، وإنما يجب الإستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح، فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أديت الواجب عليك، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا، فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذي والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا، إلا أن يصير مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة، ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالاً لله، ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا

يدوم، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدوّ إلى منازعته ـ أعني الشيطان ـ فإنه ينازع بالوسوسة. فمهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه. وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال: غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده. وروى عنه موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي ﷺ إنه قال: «ثلاثة لا يخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج» فمخرجه من الحسد أن لا يبغي، والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو، وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء، فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال. فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد. فإذن كونه آثمًا بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الإجتهاد، والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآقات والأخبار ومن حيث المعنى، إذ يبعد أن يعفي عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة.

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال، أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك، وهذا معفو عنه قطعاً لأنه لا يدخل تحت الإختيار أكثر منه.

الثاني: أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور قطعاً.

الثالث: وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك، ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه، وهذا في محل الخلاف. والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه. والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها. وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها. ولكنها في صورة إمرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فرارة عن طلابها شحيحه بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة. وإن أساءت مرة جعلتها سنة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة. فكل مغرور بها إلى الذل مصيره. وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره. شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم فهي خداعة مكارة، طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها، كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها؛ وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها؛ ورشقتهم بصوائب سهامها. بينما أصحابها منها في سرور

وإنعام إذ ولت عنها كانها أضغاث أحلام. ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد، إن ملكت واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس. تمنى أصحابها سروراً وتعدهم غروراً حتى يأملون كثيراً ويبنون قصوراً. فتصبح قصورهم قبوراً وجمعهم بوراً. وسعيهم هباءً منثوراً ودعاؤهم ثبوراً، هذه صفتها وكان أمر الله قدراً مقدوراً. والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً. وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيراً وعلى الظالمين نصيراً وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد: فإن الدنيا عدوة لله وعدوة لأولياء الله وعدوة لأعداء الله. أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله. ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها. وأما عداوتها لأولياء الله عزّ وجلّ: فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعداء الله: فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها. وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد. ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد. فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها يستغيثون ولا يعاثون. بل يقال لهم﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ .

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بدّ أولاً من معرفة حقيقة الدنيا وما هي؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها؟ وما مدخل غرورها وشرورها؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه. ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلتها، وحقيقتها وتفصيل معانيها، وأصناف الأشغال المتعلقة بها، ووجه الحاجة إلى أصولها وبسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى. وهو المعين على مايرتضيه.

بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة. وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة. بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك، فلا حاجة إلى الإستشهاد بآيات القرآن لظهورها، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها. فقد روي أن رسول الله ﷺ مرّ على شاة ميتة فقال: «أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟» قالوا: من هوانها ألقوها. قال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء[1]» وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[2]» وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها[3]» وقال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى[4]» وقال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة[5]» وقال زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى

كتاب ذم الدنيا

(١) حديث: مرّ على شاة ميتة فقال: «أترون هذه الشاة هينة على صاحبها. . الحديث» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة، ولمسلم نحوه من حديث جابر.

(٢) حديث «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد «إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم».

(٤) حديث أبي موسى الأشعري «من أحب دنياه أضر بآخرته. . . الحديث» أخرجه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه.

(٥) حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلاً.

أصحابه وسكتوا وما سكت: ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً؛ فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «هذه الدنيا مثلت لي فقلت لها: إليك عني ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلت مني لم يفلت مني من بعدك[1]» وقال ﷺ: «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور[2]» وروي أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة فقال: «هلموا إلى الدنيا وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت فقال: هذه الدنيا[3]» وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاماً بالية. وقال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب[4]» وقال عيسى عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً كنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة. وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: يا معشر الحواريين إني قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي فإن من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً. وقال أيضاً: بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة. وقال أيضاً: الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيئه الموت فيأخذ بعنقه. وقال موسى ابن يسار: قال النبي ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها[5]» وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال: فمر بعابد من بني إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً، قال: فسمع سليمان وقال: لتسبيحه في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود، فإن ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى. وقال ﷺ: «ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأبقيت؟[6]» وقال ﷺ: «إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له[7]» وقال ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبرهمه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال: هما لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً[8] » وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ألا

---

(١) حديث زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى... الحديث: وفيه: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً... الحديث. أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصحح إسناده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه.

(٢) حديث «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلاً.

(٣) حديث: إنه وقف على مزبلة فقال «هلموا إلى الدنيا... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلاً، وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس.

(٤) حديث «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون... الحديث» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله «إن بني إسرائيل... إلخ» والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلاً بالزيادة التي في آخره.

(٥) حديث موسى بن يسار «إن الله جلّ ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها» أخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغاً وللبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل.

(٦) حديث «ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي... الحديث» أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير.

(٧) حديث «الدنيا دار من لا دار له... الحديث» أخرجه أحمد من حديث عائشة مقتصراً على هذا وعلى قوله «ولها يجمع من لا عقل له» دون بقيته وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه «ومال من لا مال له» وإسناده جيد.

(٨) حديث «من أصبح والدنيا أكثر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال... الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث =

أريك الدنيا جميعها بما فيها» فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيده وأتى بي وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤس أناس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم ثم هي اليوم عظام بلا جلد ثم هي صائرة رماداً، وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم إكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانو ينتجعون عليها أطراف البلاد؛ فمن كان باكياً على الدنيا فليبكِ» قال: فما برحنا حتى أشتد بكاؤنا[1] ويروى أن الله عزّ وجلّ لما أهبط آدم إلى الأرض قال له: (ابن للخراب ولد للفناء. وقال داود بن هلال مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام: يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت تزينت لهم، إني قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك وما خلقت خلقاً أهون علي منك، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد ولا يدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والإستقامة، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلى من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي. وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها، وتقول يوم القيامة يا رب إجعلني لأدنى أوليائك اليوم نصيباً فيقول أسكتي يا لا شيء إني لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم[2]» وروى في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها، قال فجعل يدور في الجنة، فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له: قل له أي شيء تريد؟ قال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى، فقيل للملك: قل له في أي مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك؟ إهبط إلى الدنيا وقال ﷺ: «ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار» قالوا يا رسول الله مصلين؟ قال: «نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه[3]» وقال ﷺ في بعض خطبه: «المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه؟ فليتزوّد العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار[4]» وقال عيسى عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد. وروي أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الأخر. قيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذت بيتاً يكنك. قال: يكفينا خلقان من كان قبلنا. وقال نبينا ﷺ: «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت[5]» وعن الحسن: قال خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال: «هل منكم من يريد

= أبي ذر دون قوله «وألزم الله قلبه... إلخ» وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف.

(١) حديث أبي هريرة «ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها» قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة... الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها... الحديث» تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلاً ولم أجد باقية.

(٣) حديث «ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار... الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً.

(٤) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى... الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع.

(٥) حديث «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت» أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء =

أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً: ألا إنه من رَغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علمًا بغير تعلم، وهدى بغير هداية: ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا بإتباع الهوى؛ إلا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبرِ على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقاً[(١)]» وروي أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوماً فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمه من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى، فأوحى الله تعالى إليه: مأواك في مستقر رحمتي لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرن منادياً ينادي أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم. وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها، وتغرهَ ويأمنها، ويثق بها وتخذله، وويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون؟ وويل لمن الدنيا همه والخطايات عمله كيف يفتضح غداً بذنبه؟ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى مالك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك، فبئست الدار هي إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي، يا موسى إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم «وروى أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين؛ فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ إنصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم[(٢)]» وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض» فقيل ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا[(٣)]». وقال ﷺ؛ «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا[(٤)]» فنهى عن ذكرها فضلاً عن إصابة عينها. وقال عمار بن سعيد: مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق، فقال: يا معشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا، فقالوا: يا روح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم. فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم يجيبوك، فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى: يا أهل القرية فأجابه مجيب لبيك يا روح الله! فقال: ما حالكم وما قصتكم؟ قال: بتنافي عافية وأصبحنا في الهاوية، قال: وكيف ذلك؟ قال: بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي، قال: وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال: حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها، قال: فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد، قال: فكيف أجبتني أنت من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أأنجـو منها أم أكبكب فيها؟ فقال المسيح للحواريين: لأكل خبز الشعير بالملح

= الرهاوي مرسلاً، وقال البيهقي إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة قال الذهبي لا يدري من أبو الدرداء قال وهكذا منكر لا أصل له.

(١) حديث الحسن «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسلاً وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم.

حديث: بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء (٢) من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة. متفق عليه من حديث عمرو ابن عوف البدوي.

(٣) حديث أبي سعيد «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض... الحديث» متفق عليه.

(٤) حديث «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا» أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسلاً.

الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة. وقال أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق فجاء أعرابي بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين فقال ﷺ: «إنه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه[1]» وقال عيسى عليه السلام: من الـذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً. وقيل لعيسى عليه السلام: علمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه، قال: إبغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى. وقال أبو الدرداء؛ قال: رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة[2]» ثم قال أبو الدرداء - من قبل نفسه - لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته، مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم، ما لكم تناصحون في أمر الدنيا ولا يتناصحون في أمر الآخرة؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم. فإن قلتم: حب العاجلة غالب؟ فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها، تكدون أنفسكم بالمشقة والإحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه. فبئس القوم أنتم ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم! فإن كنتم في شك مما جاء به محمد ﷺ فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم! والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم، مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم، وعامتكم قد تركوا كثيراً من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم، إني لأرى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضاً بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الأجل، ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته ولو كان حياً لم يصابركم، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً، وبالله أستعين على نفسي وعليكم. وقال عيسى عليه السلام؛ يا معشر الحواريين أرضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدني كما رضى أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا. وفي معناه قيل:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ... وما أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استـ ... ـغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر. وقال نبينا ﷺ: «لتأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب[3]» وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى لا تركنن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها. ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي، فقال موسى: يا رب عبدك يبكي من مخافتك فقال: يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا.

---

(١) حديث أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق... الحديث» وفيه «حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه» أخرجه البخاري.

(٢) حديث أبي الدرداء «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة» أخرجه الطبراني دون قوله «ولهانت... إلخ» وزاد «ولخرجتم إلى الصعدات... الحديث». وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر «وما تلذذتم بالنساء على الفرش» وأول الحديث متفق عليه عن حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة.

(٣)حديث «لتأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب» لم أجد له أصلاً.

الآثار: قال علي رضي الله عنه: من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً؛ أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها. وقال الحسن: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعه فأدّوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً. وقال أيضاً رحمه الله: من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره. وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيه تقوى الله عزّ وجلّ، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عزّ وجلّ، لعلك تنجو وما أراك ناجياً. وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآية (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً) وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك في أكله، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار. وقيل لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ يخلق الأبدان ويجدّد الآمال ويقرّب المنية ويبعد الأمنية. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب ومن فاته نصب. وفي ذلك قيل:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ... فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية. وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص. وقال سفيان: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها. وقال أبو سليمان الداراني: من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر. ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر. وليس لهذا غاية. وقال رجل لأبي حازم: أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار، فقال: أنظر ما آتاكه الله عزّ وجلّ منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه. ولا يضرك حب الدنيا. وإنما قال هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك. وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى. فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى؟ وقال أبو حازم: إياكم والدنيا فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظّماً الدنيا فيقال: هذا عظم ما حقره الله. وقال ابن مسعود: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيَف مرتحل والعارية مردودة. وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت: إسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها. ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره. وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه ... وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضاً في ذلك:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سروراً وأنعما

كـبـان بـنى بـنـيـانـه فـأقـامـه فلما استـوى ما قـد بناه تهدّمـا

وقيل أيضاً في ذلك:

هب الـدنيـا تسـاق إليـك عفـواً ألـيس مـصـير ذاك إلى انـتـقـال
ومـا دنـيـاك إلا مـثـل فيء أظـلـك ثـم آذن بـالـزوال

وقال لقمان لابنه: يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً. وقال مطرف ابن الشخير؛ لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. وقال بعضهم: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب. وفي ذلك قيل:

يـا خـاطب الـدنيـا الى نـفسـهـا تـنـحَّ عـن خـطـبـتـهـا تـسـلم
إن الـتي تخـطـب غـدارة قـريـبـة الـعـرس مـن المـأتـم

وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها. وفي ذلك قيل:

إذا امتحن الـدنيـا لبيب تكشفت لـه عـن عـدوّ في ثيـاب صـديـق

وقيل أيضاً:

يـا راقـد الليـل مسـروراً بـأوّلـه إن الحـوادث قـد يـطرقن أسحـاراً
أفنى الـقرون التي كـانت منعـمـة كـر الجـديـديـن إقبـالاً وإدبـاراً
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قـد كان في الـدهـر نفـاعاً وضـراراً
يـا من يعـانق دنيـا لا بقـاء لهـا يمسي ويصبـح في دنيـاه سفـاراً
هـلا تـركت من الـدنيـا معـانقـة حتى تعـانـق في الفـردوس أبكـاراً
إن كنت تبغى جنـان الخلدِ تسكنها فينبغي لـك أن لا تـأمن الـنـاراً

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: لما بعث محمد ﷺ أتت إبليس جنوده فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة، قال: يحبون الدنيا؟ قالوا نعم، قال: لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان، وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث: أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله من هذا نبع. وقال رجل لعلى كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا، قال: وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، ومتشابهها العتاب. وقيل له ذلك مرة أخرى فقال: أطول أم أقصر؟ فقيل: قصر فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب. وقال مالك بن دينار: إتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا. وقال أبو سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة. وهذا تشديد عظيم ونرجو أن بكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح، إذ قال: الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له. وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك. وهذا اقتباس ما قاله على كرم الله وجهه حيث قال: الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى. وقال الحسن: والله لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت

الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا؟ وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آتاه الله مالاً فهو يتصدق منه ويصل منه، أيحسن له أن يتعيش فيه؟ - يعني يتنعم - فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره وقال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه وقيل: لما قدم عمر رضي الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على الناقة مخطومة بحبل، فسلم وسأله، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضي الله عنه: لو اتخذت متاعاً؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل. وقال سفيان: خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك. وقال الحسن: والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا. وقال وهب: قرأت في بعض الكتب، الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا. وقال لقمان لابنه: يا بني إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها. وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راضٍ فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر. وقال عمرو بن العاص على المنبر: والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم، والله ما مر برسول الله ﷺ ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له[1] وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ من قال ذا؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب. وقال أيضاً: مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب وحرامها عذاب، إن أخذه من حله حوسب به، وإن أخذه من حرام عذب به، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه ويجزع من مصيبته في دنياه وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: سلام عليك، أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات. فأجابه عمر: سلام عليك، كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل. وقال الفضيل بن عياض الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد. وقال بعضهم. عجباً لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح؟ وعجباً لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك؟ وعجباً لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها؟ وعجباً لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب!؟ وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال: سنيات بلاء وسنيات رخاء، يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك، فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها. فقال له: سل ما شئت، قال: عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه، قال: لا أملك ذلك، قال: لا حاجة لي إليك. وقال داود الطائي رحمه الله: يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوّفت بعملك كان منفعته لغيرك. وقال بشر: من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يدي. وقال ابو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوءك. وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه. وقيل لبعض العباد؛ قد نلت الغنى، فقال: إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا. وقال أبو سليمان. لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة. وقال مالك بن دينار: إصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهي بعضنا بعضاً، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا؟ وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة، وقال الحسن. أهينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها. وقال أيضاً: إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك، فإذا نفد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً. وكان

(١) حديث عمرو بن العاص: والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم... الحديث» أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه.

بعضهم يقول في دعائه: يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني. وقال محمد بن المنكدر: أرأيت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا ينام، وتصدق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال: إن هذا عظم في عينه ما صغره الله، وصغر في عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا؟ وقال أبو حازم: إشتدّت مؤنة الدنيا والآخرة، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه. وقال أبو هريرة: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالي تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها. يا رب يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: أسكتي يا لا شيء وقال عبد الله بن المبارك: حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته، فمتى يصل الخير إليه؟ وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب. وقيل لبشر: مات فلان فقال: جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة، ضيع نفسه قيل له: إنه كان يفعل ويفعل ـ وذكروا أبواباً من البر ـ فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا؟ وقال بعضهم: الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت إلينا؟ وقيل لحكيم: الدنيا لمن هي قال: لمن تركها؟ فقيل الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها وقال حكيم: الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد: كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظ أخاًله في الله وخوفه بالله فقال: يا أخي إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فأفزع إلى الله وأرض برزق الله لا تتسلف من دار بقائك إلى دار فنائك، فإن عيشتك فيء زائل وجدار مائل، أكثر من عملك وأقصر من أملك وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة. فقال دينار في اليقظة فقال: كذبت، لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام، والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن إسمعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إليك عنا يا خنزيرة، فلو وجدوا لها أسماء أقبح من هذا لسموها به. وقال كعب: لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها. وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: العقلاء ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضاً: الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها. و قال بكر بن عبد الله: من أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا كان كمطفىء النار بالتبن. وقال بندار: إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان. وقال أيضاً: من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها ـ يعني الحرص ـ حتى يصير رماداً؛ ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به، ومن أقبل على الله عزّ وجلّ أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لا حدّ لقيمته. وقال علي كرم الله وجهه: إنما الدنيا ستة أشياء، مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم، فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب، وأشرف المشروبات الماء ويستوي فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبالٌ في مبال، وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها، وأشرف المشمومات المسك وهو دم.

بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم: يا أيها الناس إعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خدّاعة، قد تزخرف لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها

قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها وذمها خالقها، جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقل، ودها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل، وهل إلى الطبيب من سبيل؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولما له أحصى، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه، وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك، وقيل لك هذا إبنك فلان، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطلق، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك، فغسلوك وكفنوك، فانقطع عوّادك واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهناً بأعمالك. وقال بعضهم لبعض الملوك: إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه، أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه، فالدنيا أحق بالذم، هي الآخذة ما تعطى، الراجعة فيما تهب، بينما هي تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره، وبينما تبكي له إذ أبكت عليه، وبينما هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالإسترداد، فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غداً، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً، وترضى بكل من كل بدلاً. وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإنّ الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإنّ الزاد منها تركها. والغني منها فقرها. لها في كل حين قتيل. تذل من أعزها. وتفقر من جمعها. هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كمالداوي جراحه يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً. ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء. فاحذر هذه الدار الغدّارة الختالة الخدّاعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوّفت بخطابها. فأصبحت كالعروس المجلية. العيون إليها ناظرة والقلوب عليها وآلهة النفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قالية. فلا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخر بالأوّل مزدجر. ولا العارف بالله عزّ وجلّ حين أخبره عنها مذّكر. فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد، فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته. وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السارّ في أهلها غار، والنافع فيها غدّار ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها فناء، فسُروها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ما ولى وأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر. أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر، إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على الحذر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزّ وجلّ عنها زاجر وفيها واعظ؟ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها[1]» إذكره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختباراً وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؛ ونسي ما صنع الله عزّ

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز: عرضت أي الدنيا على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها. . . الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورواه أحمد والطبراني متصلاً من حديث أبي مويهبة في أثناء حديث فيه «إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة. . . الحديث» وسنده صحيح وللترمذي من حديث أبي أمامة «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً. . . الحديث».

وجل بمحمد ﷺ حين شدّ الحجر على بطنه[1] ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، وصلائي في الشتاء في مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودابتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما أنبتت الأرض، أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على الأرض أحد أغنى مني. وقال وهب بن منبه: لما بعث الله عزّ وجلّ موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون قال: لا يروعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هي زهرة الحياة الدنيا وزينه المترفين، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن منازل الغرة، وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً، إنما يتزين لي أوليائي بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت في قلوبهم وتظهر على أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبَسون ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذي يستشعرون ونجاتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إياه يأملون، ومجدهم الذي به يفخرون، وسيماهم التي بها يعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة.

وخطب علي كرم الله وجهه يوماً خطبة فقال فيها: إعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها، بينما أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور. أحوال مختلفة وتارات منصرفة. العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة. ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها. وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور. واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً وأشدّ منكم بطشاً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً. فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية. واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة. الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاطئة الملحدة. فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين. لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنوّ الدار. وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكلة البلا وأكلتهم الجنادل والثرى؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً وبعد نضارة العيش رفاتاً فجع بهم الأحباب وسكنوا تحت التراب ضعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار المثوى وأرتهنتم في ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع. فكيف بكم لو عاينتم الأمور وبعثرت القبور وحصل ما في الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والأستار وظهرت منكم العيوب والأسرار؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عزّ وجلّ يقول (ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابة متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد.

---

(١) حديث الحسن مرسلاً في شدة الحجر على بطنه. أخرجه ابن أبي الدنيا أيضاً هكذا وللبخاري من حديث أنس: رفعنا عن بطوننا حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ حجرين. وقال حديث غريب.

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدنك؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممرّ الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الإعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها، وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ، اللهم أرشدنا إلى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال. الدنيا وقتك الذي يرجع إليك فيه طرفك، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأت فلا علم لك به، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل الدول، والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور.

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال: يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدّقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذّبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون، عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

قال علي كرّم الله وجهه في خطبته: أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً وكأنهم قطعوه، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية؟ وكم عسى أن يبقي من له يوم في الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه.

وقال محمد بن الحسين: لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عزّ وجلّ قد أهان الدنيا، وأنه لم يرضها لأوليائه، وأنها عنده حقيرة قليلة، وأنّ رسول الله ﷺ زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها، أكلوا منها قصداً وقدّموا فضلاً، وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي، لبسوا من الثياب ما ستر العورة، وأكلوا من الطعام أدناه مما سدّ الجوعة، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية؛ وإلى الآخرة أنها باقية، فتزوّدوا من الدنيا كزاد الراكب فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم، تعبوا قليلاً وتنعموا طويلاً، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم، احبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم.

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أنّ الدنيا سريعة الفناء قريبة الإنقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة، وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها، ومثالها الظل فإنه متحرّك ساكن متحرّك في الحقيقة ساكن الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال:

أحلام نوم أو كظل زائل   إنّ اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيراً ويقول:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   إن اغتراراً بظل زائل حمق

وقيل إن هذا من قوله. ويقال: إن إعرابياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم

فنام هناك فاقتلعو الخيمه فاصابته الشمس فانتبه، فقام وهو يقول:

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوماً أن ظلك زائل

وكذلك قيل:

وإن أمرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها. تشبه خيالات المنام وأصغاث الأحلام قال رسول الله ﷺ: «الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون[1]» وقال يونس بن عبيد. ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك إذا انتبه، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به. وقيل لبعض الحكماء. أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال أحلام النائم.

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها. إعلم أن طبع الدنيا التلطف في الإستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. وقد روي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها. كم تزوجت؟ قالت. لا أحصيهم، قال فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين! كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر!؟.

مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها: أعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على إتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الإغترار بظاهرها. وقال العلاء بن زياد: رأيت في المنام عجوزاً كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها، فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أو ما تعرفني؟ قلت: لا أدري! من أنت؟ قالت: أنا الدنيا، قلت: أعوذ بالله من شرك! قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم. قال أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوّهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت علي فقالت: لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر وقال: رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد وقال الفضيل بن عياض: قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية ومشوّه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه الدنيا التي تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عزّ وجلّ؟ ألحقوا بها أتباعها وأشياعها. وقال الفضيل: بلغني أن رجلاً عرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرّحته، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس، عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال: فقلت: أعوذ بالله منك! قالت: لا والله. لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم! قال: فقلت من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها: إعلم أن الأحوال ثلاثة: حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهي أيام حياتك في الدنيا؛ فانظر إلى مقدار طولها وأنسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم إنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد. ولذلك قال ﷺ: «ما لي وللدنيا! وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف

(١) حديث «الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون» لم أجد له أصلاً.

فرفعت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها[1]» ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية، بل لا يبني لبنة على لبنة. توفي رسول الله ﷺ وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[2] ورأى بعض الصحابة يبني بيتاً من جص فقال: «أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك[3]» وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة، واللحد هو الميل الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق لم إلا خطوة واحدة هو غافل عنها. وكيفما كان فلا بد له من العبور، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان.

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها: إعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات! فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثالها فقال: مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام.

مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل صاحب الدنيا كالماشي في الماء هي يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه[4]» وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة، وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها، فكما أن المشي على الماء يقتضي بللاً لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة. قال عيسى عليه السلام: بحق أقول لكم، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما جيد من حب الدنيا، وبحق أقول لكم، إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ، وبحق أقول لكم، إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب ما لم تحرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة. وقال النبي ﷺ: «إنما بقى من الدنيا وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله[5]».

مثال آخر لما بقى من الدنيا وقلته بالإضافة لما سبق: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوّله إلى آخره فبقي متعلقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع[6]».

---

(١) حديث «ما لي وللدنيا وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب... الحديث» أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس.

(٢) حديث: ما وضع لبنة على لبنة... الحديث. أخرجه ابن حبان في الثقات وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف «من سأل عني أو سره أن ينظر إليّ فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة... الحديث».

(٣) حديث: رأى بعض أصحابه يبني بيتاً من جص فقال «أرى الأمر أعجل من هذا» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح.

(٤) حديث «إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الملشي في الماء... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال فذكره. ووصله البيهقي في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس.

(٥) حديث «إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين ورجاله ثقات.

(٦) حديث «مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف.

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك: قال عيسى عليه السلام: مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها، أعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها، وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعمًا وأكثر دسمًا وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتناً، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى، فنتنها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشدّ بل هي في الدنيا مشاهدة، فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا. وقد روي أن النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان الكلابي: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء؟، قال: بلى؛ قال: «فالإم يصير» قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله ، قال: «فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير اليه طعام ابن آدم[1]» وقال أبي بن كعب: قال رسول الله ﷺ «إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر الى ما يخرج من ابن آدم وإن قزحه وملحه إلام يصير[2]» وقال ﷺ «ان الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم وضرب مطعم بن آدم للدنيا مثلاً وان قزحه وملحه[3]» وقال الحسن: قد رأيتهم يطيبونه بالأفاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم وقد قال الله عز وجل ﴿فلينظر الإنسان إليَّ طعامه﴾ قال ابن عباس الى رجيعه وقال رجل لابن عمر اني أريد أن أسألك وأستحي قال فلا تستحِ وأسأل قال اذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر الى ذلك منه قال نعم ان الملك يقول له أنظر الى ما بخلت به أنظر الى ماذا صار. وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم الى مزبلة فيقول أنظروا الى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدهكم أصبعه في اليم فلينظر أحدكم بم يرجع إليه[4]».

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها: أعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوّفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظر بن بحسن برجدها وعجائب صورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقرّ فيه: وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقاً وصار ثقيلاً عليه ووبالاً، فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكاناً لوضعه، فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على

---

(١) حديث: أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابي ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح... الحديث. وفيه: «فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم» أخرجه أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه.

(٢) حديث أبي بن كعب: إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم... الحديث. أخرجه الطبراني وابن حبان بلفظ: إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً ورواه عبد الله بن أحمد في زياداته بلفظ «جعل».

(٣) حديث «إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً... الحديث» الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحاك بن سفيان «إن الله ضرب ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا».

(٤) حديث «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع إليه» أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد.

أخذه وليس ينفعه التأسف. وبعضهم تولج الغياض ونسى المركب وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واشتشمام تلك الأنوار والتفرّج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خالٍ من السقطات والنكبات، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغضن يجرح بدنه وشوكة تدخل في رجله وصوت هائلٍ يفزع منه وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الإنصراف لو أراده، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً فبقى في الشط حتى مات جوعاً. وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيات، فتفرقوا كالجيف المنتنة.

وأما من وصل إلى المركب بثل ما أخذه من الأزهاء والأحجار، فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكمدت تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها. فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هرباً منها، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيًما مدبراً. ومن رجع قريباً ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن إستراح، ومن رجع أوّلاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً. فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم. وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغرّه أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم النبت وهي زينة الدنيا، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلا ووبالا عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه. وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عزّ وجلّ.

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم: قال الحسن رحمه الله بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا، ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي؟ أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه، فقالوا: هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، فقالوا: يا هذا! فقال علام أنتم؟ فقالوا: على ما ترى، فقال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياش خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً قال: فأوردهم ماء رواءً ورياضاً خضراً فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء! قالوا: يا هذا! قال: الرحيل! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال أكثرهم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أنا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة - وهم أقلهم - ألم تعطوا هذا الرجل عهدكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره؟ فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل[1]».

ومثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها: أعلم أنّ مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجلٍ هيأ داراً وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً، واحداً بعد واحد، فدخل واحد داره فقدّم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فجهل رسمه وظن أنه قد وهب

(١) حديث الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث وفيه «فقال أي أحد الملكين إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة» فذكر فحوه أخصر منه وإسناده حسن.

ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتفجع، ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر، وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزوّدوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها. فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

اعلم أنّ معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي؟ فنقول: دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت، فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك إلا أنّ جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام. القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان: العلم والعمل فقط؛ وأعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعني بالعمل. العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظاً عاجلاً في الدنيا. ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلاً بل قلنا إنه من الآخرة، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه، حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل، وكان آخر يقول: اللهم ارزقني قوّة الصلاة والركوع والسجود في القبر. فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الإشتقاق من الدنو، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك، وقد قال ﷺ: «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وقرّة عيني في الصلاة[1]» فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا. وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة، فنقول هذه ليست من الدنيا.

القسم الثاني: وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً، كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحاة الزائدة على قدر الحاجات، والضرورات الداخلة في جمله الرفاهية والرعونات، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث والغلمان والجواري والخيول والمواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة وفيما يعدّ فضولاً أو في محل الحاجة نظر طويل، إذ روي عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفاً أنفق عليه درهمين، فكتب إليه عمر: من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك. فلم يزل بها حتى مات. فهذا رآه فضولاً من الدنيا فتأمل فيه.

القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من

---

(١) حديث «حبب إلّي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله «ثلاث» وتقدم في النكاح.

الطعام والقميص الواحد الخشن «وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل. وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه. فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانه به على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الإستعانة على التقوى إلتحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا. ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب؛ أعني طهارته عن الأدناس، وأنسه بذكر الله تعالى، وحبه لله عزّ وجلّ. وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة. ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت.

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الأخبار «إن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه[1]» الحديث.

وأما الأنس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أو أن الرؤية في الجنة، فيصير القبر روضة من رياض الجنة، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد؟ وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله، فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسروراً سليمًا من الموانع آمناً من العوائق؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذباً ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه؟ ولذلك قيل:

ما حال من كان له واحد   غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدماً إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى. فإذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذكر والفكر والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلا بقوت وملبس ومسكن، ويحتاج كل واحد إلى أسباب. فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها، إلا أنّ الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراماً، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالاً. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب فمن نوقش الحساب عذب[2] إذ قال رسول الله ﷺ: «حلالها حساب وحرامها عذاب[3]» وقد قال أيضاً: «حلالها عذاب» إلا إنه عذاب أخف من عذاب الحرام، بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدرجات العلا في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفوتها لحظوظ حقيرة خسيسة لإبقاء لها هو أيضاً عذاب، وقس به حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات

---

(١) حديث: مناضلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي ضعفه البخاري وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر «إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أحزبه عمله الصلاة والصيام... الحديث» وإسناده صحيح.

(٢) حديث «من نوقش الحساب عذب» متفق عليه من حديث عائشة.

(٣) حديث «حلالها حساب وحرامها عذاب» أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ «وحرامها النار» ولم أجده مرفوعاً.

منصرمة لا بقاء لها منغصه بكدورات لا صفاء لها فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون غايتها؟ فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه، وهو المعنى بقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «هذا من النعيم الذي تسئل عنه[1]» أشاربه إلى الماء البارد. والتعرض لجواب، السوال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار، وكل ذلك من نقصان الحظ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: اعزلوا عني حسابها، حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدينا أشد، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه، إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا! وحتى إن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق إمتهاناً وشدّة، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روي أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوي أياماً[2] وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع[3]« ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل، كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه، ويلزم ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباله لا بخلاً عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو فذلك ليس من الدنيا.

فإن قلت: فما الذي هو لله؟ فأقول: الأشياء ثلاثة أقسام: منها مالا يتصوّر أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التنعمات في المباحات، وهي الدنيا المحضة المذمومة، فهي الدنيا صورة ومعنى ومنها ماصورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة: الفكر والذكر والكف عن الشهوات فإن هذه الثلاثة إذا جرت سراً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والإشتهار بالزهد، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى. ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله، وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده، فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الإستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته الدنيا. قال ﷺ: «من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان ومن طلبها إستعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر[4]» فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد، فإذاً الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى﴾ ومجامع الهوى خمسة أمور: وهي ما جمعه الله تعالى في قوله ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة: يجمعها قوله تعالى ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ فقد عرفت أنّ كل ما هو لله فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت وما لا بدّ منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله،

---

(١) حديث هذا من النعليم الذي تسئل عنه تقدم في الأطعمة.

(٢) حديث: روى الله الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوي أياماً أخرجه محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال: قلت يا رسول الله عجباً لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك... الحديث. وهو من طريق إسحاق معنعناً وللترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس: إن النبي ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله... الحديث. قال الترمذي حسن صحيح.

(٣) حديث: كان يشد الحجر على بطنه من الجوع. تقدم.

(٤) حديث «من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان... الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

والإستكثار منه تنعم وهو لغير الله. وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة. ولها طرفان وواسطة: طرف يقرب من حدّ الضرورة فلا يضر فإنّ الإقتصار على حدّ الضرورة غير ممكن، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغي أن يحذر منه، وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

والحزم في الحذر والتقوّى والتقرّب من حدّ الضرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حدّ الضرورة حتى إن أويسا القرني كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه، فبنوا له بيتاً على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهاً، وكان يخرج أوّل الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة، وكان طعامه أن يلتقط النوى، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوّته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوّته، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها، فكان ذلك لباسه وكان ربما مر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون، فيقول لهم يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارموني بأحجار صغار فإني أخاف أن تدموا عقبي، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء، فهكذا كانت سيرته. ولقد عظم رسول الله ﷺ أمره فقال: «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن إشارة إليه رحمه الله[1]» ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم قال: فقاموا. فقال: إجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة، فجلسوا، فقال: إجلسوا إلا من كان من مراد، فجلسوا فقال: إجلسوا إلا من كان من قرن، فجلسوا كلهم إلا رجلًا واحداً فقال له عمر: أقرني أنت؟ فقال: نعم فقال: أتعرف أويس بن عامر القرني؟ فوصفه له، فقال: نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين! والله ما فينا أحمق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه، فبكى عمر رضي الله تعالى عنه ثم قال: ما قلت إلا لأني سمعت رسول الله يقول: «يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر[2]» فقال هرم بن حيان: لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي هم إلا أن أطلب أويساً القرني وأسأل عنه، حتى سقطت عليه جالساً على شاطىء الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه، فعرفته بالنعت الذي نعت لي، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جداً كريه الوجه متهيب المنظر قال: فسلمت عليه فرد علي السلام ونظر إلي، فقلت: حياك الله من رجل ومددت يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني، فقلت: رحمك الله يا أويساً وغفر لك كيف أنت رحمك الله؟ ثم خنقتني العبرة من حبي إياه ورقتي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى، فقال: وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخي ومن دلك علي؟ قال: قلت الله فقال: لا إله إلا الله سبحان الله ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ قال: فعجبت حين عرفني ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني! فقلت: من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم؟ ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾ وعرفت روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وإنّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل، قال: قلت حدّثني رحمك الله عن رسول الله ﷺ بحديث أسمعه منك قال إني لم أدرك رسول الله ﷺ ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله، ولكن رأيت رجالاً قد صحبوه وبلغني من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محدثاً أو مفتياً أو قاضياً في نفسي شغل عن الناس يا هرم بن حيان! فقلت: يا أخي اقرأ علي آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك فإني أحبك في الله حباً شديداً، قال: فقام وأخذ بيدي على شاطىء الفرات ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم بكى.

---

(١) حديث «إني لأجد نفسي الرحمن من جانب اليمن» أشار به إلى أويس القربي تقدم في قواعد العقائد لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث عمر «يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر» يريد أويسا ورويناه في جزء ابن السماء من حديث أبي أمامة «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» وإسناده حسن، وليس فيه ذكر لأويس بل في آخره: فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان.

ثم قال: قال ربي والحق قول ربي وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه، ثم قرأ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلاّ بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿إنه هو العزيز الرحيم﴾ فشهق شهقة ظننت أنه قد غشي عليه ثم قال: يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فإما إلى جنة وإما إلى نار، ومات أبوك آدم وماتت أمك حوّاء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجي الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد ﷺ وهو رسول رب العالمين، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخي وصفي، ثم قال: يا عمراه يا عمراه، قال: فقلت رحمك الله أن عمر لم يمت، قال: فقد نعاه إلى ربي ونعى إليّ نفسي! ثم قال: أنا وأنت في الموتى كأنه قد كان، ثم صلى على النبي ﷺ، ثم دعا بدعوات خفيات، ثم قال. هذه وصيتي إياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إلى نفسي ونفسك، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعاً، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة، إدع لي ولنفسك، ثم قال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك فعرفني وجهه في الجنة وأدخله علي في دارك دار السلام واحفظه ما دام في الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيراً واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين وأجزه عني خير الجزاء ثم قال: أستودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني فإني أكره الشهرة والوحدة أحب إلي إني كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس ما دمت حياً فلا تسأل عني ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك ولم ترني فاذكرني وادع لي فإني سأذكرك وأدعولك إن شاء الله، إنطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا. فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى علي وفارقته فبكى وأبكاني وجعلت أنظر في قفاه حتى دخل بعض السكك، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له.

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا.

وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء إلا ما كان لله عزّ وجلّ من ذلك وضدّ الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا الأجل قوّة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا. ويتبين هذا بمثال وهو أنّ الحاج إذ حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتجرّد له، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولاً بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر، فتعهد البدن بما تبقى به قوّته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا. نعم إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنافسي: كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً فسمعت في الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر ما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه. فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك. فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى.

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

إعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما

عليها قال الله تعالى ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقرّ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح.

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن والنبات والحيوان. أما النبات: فيطلبه الآدمي للإقتيات والتداوي وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني، كالنحاس والرصاص، وللنقد، كالذهب والفضة، ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم. أما البهائم: فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة. وأما الإنسان: فقد يطلب الآدمي: أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان؛ أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان؛ ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾ وهذا من الإنس ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ وهذا من الجواهر والمعادن؛ وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء واليواقيت وغيرها ﴿والخيل المسومة والأنعام﴾ وهي البهائم والحيوانات ﴿والحرث﴾ وهو النبات والزرع.

فهذه هي أعيان الدنيا، إلا أن لها مع العبد علاقتين: علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا. ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر، وهذه هي الدنيا الباطنة. وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية مع البدن؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين: علاقة القلب بالحب، وعلاقة البدن بالشغل. ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى، وأعني بالدابة البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال.

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده: مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج، حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته. والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي، فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج. وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة. فكذلك البصير في السفر إلا الآخرة لا يشغل بتعهد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة، ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها. وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن، فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدود، فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها.

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا، وكيفية حدوث الحاجة إليها، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم؟ فنقول: الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها. وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث: القوت، والمسكن، والملبس، فالقوت: للغذاء والبقاء. والملبس: لدفع الحر والبرد.

والمسكن: لدفع الحرّ والبرد، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال. ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحاً بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه.

نعم خلق ذلك للبهائم، فإن النبات يغذي الحيوان من غير طبخ. والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء، ولباسها شعورها وجلودها، فتستغني عن اللباس.

والإنسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات، وأوائل الأشغال الدنيوية، وهي الفلاحة، والرعاية، والإقتناص، والحياكة، والبناء. أما البناء فللمسكن. والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس. والفلاحة للمطعم. والرعاية للمواشي والخيل أيضاً للمطعم والمركب. والإقتناص نعني به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب، فالفلاح يحصل النباتات والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها. والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمي، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي، ونعني بالإقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدّة. ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والإقتناص، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما، أو من جلود الحيوانات. فحدثت الحاجة إلى ثلاث أنواع أخر من الصناعات: النجارة، والحدادة، والخرز. وهؤلاءهم عمال الآلات، ونعني بالنجارة؛ كل عامل في الخشب كيفما كان. وبالحداد؛ كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والإبرى وغيرهما. وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة. وأما الخراز؛ فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها. فهذه أمهات الصناعات.

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الإجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين؛ أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتها. والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس، ولتربية الولد، فإن الإجتماع يفضي إلى الولد لا محالة، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد تهيئة أسباب القوت. ثم ليس يكفيه الإجتماع مع الأهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة. فإنّ الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها، وتحتاج الآلة إلى حدّاد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز؟ وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الإجتماع. ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحرّ والبرد والمطر واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحرّ والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل، فحدثت البلاد لهذه الضرورة.

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات، إذ تحدث رياسة وولاية الزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به. ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم، إذ ليس لها قوّة المخاصمة وإن ظلمت. فأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين. هذا في المنزل.

وأما أهل البلد أيضاً فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة. ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعاً لهلك،

ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له.

فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالإجتماع صناعات أخرى. فمنها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل. ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم. ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها. فهذه أمور سياسية لا بدّ منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرّغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلاً تعطلت الصناعات، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس، فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مالك لها إن كانت، أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وإن أرادوا التوسع فتمس الحاجة لا محالة إلى أن يمدّهم أهل البلد بأموالهم ليمدوهم بالحراسة، فتحدث الحاجة إلى الخراج. ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخر؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال. وإلى من يستوفي منهم بالرفق وهم الجباة والمتخرجون، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان، وإلى من يفرّق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر. وهذه الأعمال لوتولاها عدد لاتجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصاً، ويختار لكل واحد ما يليق به ويراعي النصفة في أخذ الخراج وإعطائه، واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذين يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال. ثم هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الإشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج. وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف؛ الفلاحون والرعاة والمحترفون: والثانية: الجندية الحماة بالسيوف. والثالثة: المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم. فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن وإلى ماذا انتهى. وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب ألا وينفتح بسببه أبواباً أخر. وهكذا تتناهى إلى غير حدّ محصور كأنها هاوية لا نهاية لعمقها، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى، وهكذا على التوالي. فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات. والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به، وأعلاها الأغذية، ثم الأمكنة التي يأوي الإنسان إليها وهي الدور، ثم الأمكنة التي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته، ثم آلات الآلات، وقد يكون الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد، والبقر آلة الحراثة، والفرس آلة الركوب في الحرب. ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة. فالبضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح، فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة، إلا أن النجار مثلاً إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آلته فَلا يبيعه، والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتعوّق الأغراض، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات؛ وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات، فظهرت لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجاً باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات طمعاً في الربح، وكذلك في جميع الأمتعة والأموال. ثم يحدث

لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات، وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس في البلاد بسببهم؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام، فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة، فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم، ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لا محالة غيرهم؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم، ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاماً للبلاد ومصلحة للعباد. بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة. ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا في الدنيا، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش، ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضاً.

ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة، ويصير الكراء نوعاً من الإكتساب أيضاً، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين فإن من يريد أن يشتري طعاماً بثوب فمن أين يدري المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو؟ والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب، فلا بدّ من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال، يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم. وأبقى الأموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس، ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة إلى دار الضرب والصيارفة. وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ما تراه. فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم. وشيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الإبتداء.

وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزاً عن الإكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره، فيحدث منه حرفتان خسيستان: اللصوصية والكداية؛ إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدّين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير.

أما اللصوص: فمنهم من يطلب أعواناً ويكون في يديه شوكة وقوّة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراف والأكراد. وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة، وإما بأن يكون طرّاراً أو سلالاً، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها.

وأما المكدي فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له إتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطي شيئاً، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم في البطالة، فاحتالوا للتعلل بالعجز إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون، وإما بالتعامي والتفالج والتجانن والتمارض، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق، ليكون ذلك سبب الرحمة، وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالاً يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها، فيسخوا برفع اليدعن قليل من المال في حال التعجب، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم. وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت. والشعر الموزون أشدّ تأثيراً في النفس لا سيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت، أو الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين في الأسواق، وصنعة ما يشبه العوض وليس يعوض كبيع التعويذات، والحشيش الذي يخيل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين. ويدخل في هذا الجنس الوعاظ والمكدون على

رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمي وكان غرضهم إستمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين. وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة. فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم وآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدّرتها زحمة الإشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه:

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا: المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم في الدنيا ولا قدم في الدين؛ فإنه يتعب نهاراً ليأكل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً، وذلك كسير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا؛ بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى إتباع النسوان وجمع لذائد الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر.

وطائفة ظنوا أنّ السعادة في كثرة المال والإستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً عليها أن تنقص. وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت؛ فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات؛ فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته. ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الإسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة؛ فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصر الناس حتى يقال إنه غني وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة، فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس وانقياداً لخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة، وأن ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وإنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها. وانجرّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعي بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل إندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة إلى الإستعداد له، وإن تعدّى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية، فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي وادٍ أهلكه منها. فهذا شأن

المنهمكين في أشغال الدنيا. وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف:

فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا.

وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية، وأنّ السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة وشدّدوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدّة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن. وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة. وبعضهم هجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وأن الله تعالى مستغنٍ عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغنٍ عن عبادة العباد.

وظن طائفة أنّ المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا التكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق.

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة، وإنما الناجي منها فرقة واحدة؛ وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل. ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حدّ مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالإقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال: «الناجي منها واحدة» قالوا: يا رسول الله ومن هم؟ قال: «أهل السنة والجماعة» فقيل: ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي[1]» وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى ـ كما سبق ذكره في مواضع ـ والله أعلم.

تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أوّلاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) حديث: افتراق الأمة وفيه «الناجي منهم واحدة» قالوا: ومن هم؟ قال: «أهل السنة والجماعة... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة» فقالوا: من هي يا رسول الله؟ قال «ما أنا عليه وأصحابي» ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأسانيدها.

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط، وكاشف الضر بعد القنوط، الذي خلق الخلق، ووسع الرزق، وأفاض على العالمين أصناف الأموال، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال، وردهم فيها بين العسر واليسر، والغنى والفقر، والطمع واليأس، والثروة والإفلاس، والعجز والإستطاعة، والحرص والقناعة، والبخل والجود، والفرح بالموجود، والأسف على المفقود، والإيثار والإنفاق، والتوسع والإملاق، والتبذير والتقتير، والرضا بالقليل واستحقار الكثير، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلاً، وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولاً. والصلاة على محمد الذي نسخ بملته مللاً، وطوى بشريعته أدياناً ونحلا، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللاً، وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد: فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطم محنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً. وبالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات، وفوائدها من المنجيات، وآفاتها من المهلكات، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المسترسمين المغترين. وشرح ذلك مهم على الإنفراد، فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة بل في الدنيا عامة؛ إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، والجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وتشفى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبر وطلب العلو بعضها. ولها أبعاض كثيرة، ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل. ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده، إذ فيه آفات وغوائل. وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى. وهما حالتان يحصل بهما الإختبار والإمتحان.

ثم للفاقد حالتان: القناعة والحرص، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة. وللحريص حالتان: طمع فيما في أيدي الناس، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق، والطمع شر الحالتين.

وللواجد حالتان: إمساك بحكم البخل والشح، وإنفاق. وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة. وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد، والمحمود هو الإقتصاد.

وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم. ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلاً إن شاء الله تعالى وهو: بيان ذم المال، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع. ثم فضيلة السخاء. ثم حكايات الأسخياء، ثم ذم البخل، ثم حكايات البخلاء. ثم الإيثار وفضله. ثم حد السخاء والبخل. ثم علاج البخل. ثم مجموع الوظائف في المال. ثم ذم الغنى ومدح الفقر؛ إن شاء الله تعالى.

بيان ذم المال وكراهة حبه

— قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ وقال تعالى ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسراناً عظيمًا وقال عزّ وجلّ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ الآية. وقال تعالى

﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى (ألهاكم التكاثر).

وقال رسول الله ﷺ: «حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[1]» وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم[2]» وقال ﷺ: «هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم[3]» وقيل؛ يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال: «الأغنياء[4]» وقال ﷺ: «سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فرّه الخيل وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفون على الدنيا يغدون ويروحون إليها، إتخذوها آلهة من دون إلهم ورباً دون ربهم، إلى أمرها ينتهون ولهواهم يتبعون، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام[5]» وقال ﷺ: «دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر[6]» وقال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت؟[7]» وقال رجل: يا رسول الله مالي لا أحب الموت! فقال: «هل معك من مال؟» قال: نعم يا رسول الله؛ قال: «قدّم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله، إن قدّمه أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه[8]» قال ﷺ: «أخلاء ابن آدم ثلاثة. واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره. فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله، والذي يتبعه إلى قبره فهو أهله، والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله[9]».

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟ فقال لهم؛ ما منزلة

كتاب ذم البخل وذم حب المال

(١) حديث «حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ «الجاه» بدل «الشرف».

(٢) حديث «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً لها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم» أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا «جائعان» مكان «ضاريان» ولم يقولا «في زريبة» وقالا «الشرف» بدل «الجاه» قال الترمذي حسن صحيح وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد «ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم... الحديث» وللبزار من حديث أبي هريرة «ضاربان جائعان» وإسناد الطبراني فيهما ضعيف.

(٣) حديث «هلك الأكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن ابن أبزي بلفظ «المكثرون» فقال أبو ذر: من هم؟ فقال «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا... الحديث».

(٤) حديث قيل يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال «الأغنياء» غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر «شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألواناً» وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السري في الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلاً وللبزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم وتنبت عليه أجسامهم».

(٥) حديث «سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها... الحديث» بطوله أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمتي» وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلاً.

(٦) حديث «دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر» أخرجه البزار من حديث أنس وفيه هانىء بن المتوكل ضعفه ابن حبان.

(٧) حديث «يقول العبد: مالي مالي.. الحديث» أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبي هريرة وقد تقدم.

(٨) حديث: قال رجل يا رسول الله مالي لا أحب الموت... الحديث. لم أقف عليه.

(٩) حديث «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره... الحديث» أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه، ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضاً وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد... الحديث».

الدينار والدرهم عندكم؟ قالوا: حسنة، قال: لكنهم والمدر عندي سواء. وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: يا أخي إياك أن تجمع من الدنيا مالاً تؤدي شكره، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله إمض فقد أديت حق الله في، ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله ويلك ألا أديت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور[1]».

وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال، فلا نطوّل بتكريره، وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم، لأن المال أعظم أركان الدنيا. وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة.

قال ﷺ: «إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدّم وقال الناس ما خلف[2]» وقال ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا[3]».

الآثار: روي أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً فقال: اللهم من فعل بي سوءاً فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله. فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر؟ لأنه لا بد وأن يفضي إلى الطغيان ووضع على كرم الله وجهه درهماً على كفه ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني. وروى أن عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت: ما هذا؟ قالوا: أرسل إليك عمر بن الخطاب، قالت: غفر الله له، ثم سلت ستراً كان لها فقطعته وجعلته صرراً وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها، ثم رفعت يديها وقالت اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فكانت أوّل نساء رسول الله ﷺ لحوقاً به. وقال الحسن: والله ما أعزّ الدرهم أحد إلا أذله الله. وقيل: إن أوّل ما ضرب الدينار والدرهم رفعها إبليس ثم وضعها على جبهته ثم قبلها وقال. من أحبكما فهو عبدي حقاً. وقال سميط بن عجلان: إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها إلى النار. وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه، قيل: وما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه. وقال العلاء بن زياد: تمثلت لي الدنيا وعليها من كل زينة فقلت: أعوذ بالله من شرك فقالت: إن سرك أن يعيذك الله مني فأبغض الدرهم والدينار. وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل:

إني وجدت فلا تظنوا غيره ... أن التورّع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفي ذلك قيل أيضاً:

لا يغرّنك من المرء قميص رقعه ... أو إزار فوق عظم الـ ساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه ... أره الدرهم تعرف حبه أو ورعه

ويروي عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال: يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ـ وكان له ثلاثة عشر من

(١) حديث: كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه... الحديث» قلت: ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان؛ كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل «الدنيا» «المال» وهو منقطع.

(٢) حديث «إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم... الحديث» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة يبلغ به وقد تقدم في آداب الصحبة.

(٣) حديث «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا» أخرجه الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ «فترغبوا».

الولد ـ فقال عمر: أقعدوني! فأقعدوه فقال: أماقولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً فإني لم امنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم! وإنما ولدي أحد رجلين: إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع. وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالاً كثيراً فقيل له: لو ادخرته لولدك من بعدك؟ قال: لا ولكني ادخره لنفسي عند ربي وادخر ربي لولدي. ويروي أن رجلاً قال لأبي عبد ربه: يا أخي لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير! فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم. وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته، قال: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله يسأل عنه كله.

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله تعالى قد سمّى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال جلّ وعزّ ﴿إن ترك خيراً﴾ الآية وقال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح[1]» وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به وقال تعالى ﴿ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك﴾ وقال تعالى ممتناً على عباده ﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ وقال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً[2]» وهو ثناء على المال. ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله؛ حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض، بل هو سبب للأمرين جميعاً وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة ويذم أخرى، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم، وبيانه بالإستمداد مما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم، والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك والمقيم. والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس، إذ قيل لرسول الله ﷺ: من أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال: «أكثرهم للموت ذكراً وأشدّهم له استعداداً[3]» وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية، كالعلم وحسن الخلق، والفضائل البدنية: كالصحة والسلامة، والفضائل الخارجة عن البدن: كالمال وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة.

فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات، وأدناها الدراهم والدنانير، فإنهما خادمان ولا خادم لهما، ومرادان لغيرهما. ولا يرادان لذاتهما؛ إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء، والمطاعم والملابس تخدم البدن. وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن. ومن المناكح إبقاء النسل، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع، وكان ما حصل له الغرض محموداً في حقه، فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسدّ سبيل العلم والعمل. فهو إذاً محمود

---

(١) حديث «نعم المال الصالح للرجل الصالح» أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ «نعمّا» وقالا «للمرء».

(٢) حديث «كاد الفقر أن يكون كفراً» أخرجه أبو مسلم الليثي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس وتقدم في كتاب ذم الغضب.

(٣) حديث: من أكرم الناس وأكيسهم؟ قال «أكثرهم للموت ذكراً... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ: أي المؤمنين أكيس؟ ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد.

مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم. فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر[1] كما ورد به الخبر.

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلاً لها وآلة إليها، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «اللهم إجعل قوت آل محمد كفافاً[2]» فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين[3]» واستعاذ إبراهيم ﷺ فقال ﴿وجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ وعني بها هذين الحجرين الذهب والفضة، إذ رتبة النبوّة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة، إذ قد كفى قبل النبوّة مع الصغر، وإنما معنى عبادتهما حبهما والإغترار بهما والركون إليهما قال نبينا ﷺ: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس ولا انتعش وإذا شيك فلا انتقش[4]» فبين أن محبهما عابدهما ومن عبد حجراً فهو عابد صنم. بل كل من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم، أي قطعه ذلك عن الله تعالى وعن إداء حقه فهو كعابد صنم، وهو شرك إلا أن الشرك شركان: شرك خفي لا يوجب الخلود في النار وقلما ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من دبيب النمل، وشرك جلّي يوجب الخلود في النار نعوذ بالله من الجميع.

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه. فمن عرف غوائله وفوائده امكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره.

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها. وأما الدينية فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع.

(النوع الأول) أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو في الإستعانة على عبادة. أما في العبادة: فهو كالإستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما، وأما فيما يقويه على العبادة: فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الإستعانة على الدين من الفوائد الدينية. ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط.

(النوع الثاني) ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: الصدقة، والمروءة، ووقاية العرض، وأجرة الإستخدام.

أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وإنها لتطفىء غضب الرب تعالى، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم.

وأما المروءة فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها، فإن هذه لا تسمى صدقة، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد

---

(١) حديث «من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر» تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية «احذروا الدنيا».

(٢) حديث «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً» أخرجه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

(٤) حديث: تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم... الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل «وانتقش» وإنما علق آخره بلفظ «تعس وانتكس» ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم.

الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء. فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها.

وأما وقاية العرض فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم، وهو أيضاً مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية. قال رسول الله ﷺ: «ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة[1]» وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافأة والإنتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

وأما الإستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه، وكل ما يتصوّر أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصوّر أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران.

(النوع الثالث) مالاً يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجبات في الطريق، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات، وهي من الخيرات المؤبدة الدارّة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية وناهيك بها خيراً. فهذه جمله فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والوقار والكرامة في القلوب، فكل ذلك مما يقتضيه المال في الحظوظ الدنيوية.

وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث.

(الأولى) أن تجرّ إلى المعاصي فإن الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية، ومن العصمة أن لا يجد. ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرّك داعيته، فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته والمال نوع من القدرة يحرّك داعية المعاصي وارتكاب الفجور، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك وإن صبر وقع في شدّة؛ إذ الصبر مع القدرة أشدّ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

(الثانية) أنه يجر إلى التنعم في المباحات، وهذا أوّل الدرجات، فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن لا يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه، فيصير التنعم مألوفاً عنده ومحبوباً لا يصبر عنه، ويجرّه البعض منه إلى البعض، فإذا أشتدّ أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض في المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة، لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلاً. ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان، ولا يخلو عن التعدي أيضاً إلى سائر الجوارح. وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.

---

(١) حديث «ما وقي المرء عرضه به فهو صدقة» رواه أبو يعلي من حديث جابر وقد تقدم.

(الثالثة) وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام: في المال ثلاث آفات، أن يأخذه من غير حله، فقيل: إن أخذه من حله؟ فقال: يضعه في غير حقه، فقيل: إن وضعه حقه؟ فقال: يشغله إصلاحه عن الله تعالى. وهذا هو الداء العضال. فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر في جلاله، وذلك يستدعي قلباً فارغاً وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود، وخصومة أعوان السلطان في الخراج، وخصومة الأجراء على التقصير في العمارة، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقته. وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل وتضييعه للمال. وكذلك صاحب المواشي. وهكذا سائر أصناف الأموال. وأبعدها عن كثرة الشغل: النقد المكنوز تحت الأرض، ولا يزال الفكر متردداً فيما يصرف إليه وفي كيفية حفظه وفي الخوف مما يعثر عليه وفي دفع أطماع الناس عنه. وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها، والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك. فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه، فإذن ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات. نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه إنه على ذلك قدير.

بيان ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود ـ كما أوردناه في كتاب الفقر ـ ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن، ويقتصر على أقله قدراً وأخسه نوعاً، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر. فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فاته عزّ القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص، وجرّه الحرص والطمع إلى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة، قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم وأديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على ما تاب[(١)]» وعن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه، فجئته ذات يوم فقال: «إن الله عزّ وجلّ يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له ثانٍ ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب[(٢)]» وقال أبو موسى الأشعري: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب[(٣)]. وقال ﷺ: «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال[(٤)]» وقال ﷺ: «يهرم ابن آدم ويشب معه إثنتان: الأمل وحب المال» أو كما قال[(٥)].

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال ﷺ: «طوبى

---

(١) حديث «لو كان لابن آدم وأدبان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً. . . الحديث» متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس.

(٢) حديث أبي واقد الليثي «إن الله عزّ وجل يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. . . الحديث» أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح.

(٣) حديث أبي موسى: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا أخلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال. . . الحديث» أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله «إن الله يؤيد هذا الدين» ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه علي بن زيد متكلم فيه.

(٤) حديث «منهومان لا يشبعان. . . الحديث» أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان. . . الحديث» متفق عليه من حديث أنس.

لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به[1]» وقال ﷺ: «ما من أحد فقير ولا غني إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا[2]» وقال ﷺ: «ليس الغني عن كثرة العرض إنما الغني غنى النفس[3]» ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال: «أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة[4]» وروي أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال: أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم بما أعطيته، قال: فأيهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[6] وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار» وقال أبو هريرة رضي الله عنه. قال رسول الله ﷺ؛ «كن ورعاً، تكن أعبد الناس وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً[5]» ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري: أنّ أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عظني وأوجز فقال: «إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس[7]» وقال عوف بن مالك الأشجعي: كنا عند رسول الله ﷺ ـ تسعة أو ثمانية أو سبعة ـ فقال: «ألا تبايعون رسول الله» قلنا: أو ليس قد بايعناك يا رسول الله؟ ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله» فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا: قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الخمس، وأن تسمعوا وتطيعوا» وأسر كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً[8]» قال: «فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه.

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إنّ الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك، وفي ذلك قيل:

العيش ساعات تمرّ وخطوب أيام تكرّ
اقنع بعيشك ترضه واترك هواك تعيش حرّ
فلرب حتف ساقه ذهب وياقوت ودرّ

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد. وقال سفيان: خير دنيا كم ما لم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود: ما من يوم إلا وملك ينادي؛ يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال سميط بن عجلان: إنما بطنك يا أبن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار؟ وقيل لحكيم: ما مالك؟ قال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما

---

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به» أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة ابن عبيد ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر «وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه».

(٢) حديث «ما من أحد غني ولا فقير إلا وديوم القيامة أنه كان أوتي في الدنيا قوتاً» أخرجه ابن ماجه من رواية نفيع بن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف.

(٣) حديث «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له» أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح إسناده، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش.

(٥) حديث ابن مسعود «إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه.

(٦) حديث أبي هريرة «كن ورعاً تكن أعبد الناس... الحديث» أخرجه ابن ماجه وقد تقدم.

(٧) حدث أبي أيوب «إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه واجمع اليأس مما في أيدي الناس» أخرجه ابن ماجه وتقدم في الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد.

(٨) حديث عوف بن مالك: كنا عند رسول الله ﷺ ـ سبعة أو ثمانية أو تسعة ـ فقال «ألا تبايعون... الحديث» وفيه «ولا تسألوا الناس» أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل: فقال قائل ولا قال: تسمعوا. وقال: سوط أحدهم. وهي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف.

في أيدي الناس. ويروي أن الله عزّ وجلّ قال: يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن. وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلباً يسيراً ولا يأتي الرجل فيقول: إنك وإنك فيقطع ظهره، فإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق. وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم - يعزم عليه إلا رفع أليه حوائجه - فكتب إليه: قد رفعت حوائجي إلى مولاي فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت. وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أسر للعاقل وإيما شيء أعون على دفع الحزن؟ فقال: أسرها إليه ما قدّم من صالح العمل، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غمًا الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرّط. وفي ذلك قيل:

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ... أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنّ القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في دهره شيئاً يؤرّقه

وقد قيل أيضاً:

حتى متى أنا في حل وترحال ... وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها ... لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعت أتاني الزرق في دعه ... إنّ القنوع الغنى لا كثرة المالِ

وقال عمر رضي الله عنه: ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى: حلتان لشتائي وقيظي، وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم، فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟ كأنه شك في أنّ هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها؟ وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال يا أخي أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته، وكأنّ ما غاب عنك كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه، كأنك يا أخي لم تر حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً. وفي ذلك قيل:

أراك يزيدك الإثراء حرصاً ... على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوماً ... إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي: حكى أنّ رجلاً صاد قنبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشفى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي: أما واحدة: فأعلمك وأنا في يدك، وأما الثانية: فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة: فإذا صرت على الجبل، قال: هات الأولى، قالت: لا تلهفن على ما فتك، فخلاها فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية: قالت لا تصدّقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درّتين زنة كل درّة عشرون مثقالاً، قال: فعض على شفته وتلهف وقال: هات الثالثة، قالت: أنت قد نسيت إثنتين فكيف أخبرك بالثالثة؟ ألم أقل لك: لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أن يكون، أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالاً؟ ثم طارت فذهبت. وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدّر ما لا يكون أنه يكون. وقال ابن

السماك: إن الرجاء حبل في قلبك وقيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك. وقال أبو محمد اليزيدي: دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب، فلما رآني تبسم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثاً وأنشدني:

إذا سدّ باب عنك من دون حاجة ... فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالاً لعرضك واجتنب ... ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب: ما يذهب العلوم من قلوب العلماء إذ وعوها وعقلوها؟ قال: الطمع وشره النفس وطلب الحوائج. وقال رجل للفضيل: فسر لي قول كعب، قال: يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه، وأما الشره فشره النفس في هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خرم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له. فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض؛ لم تسلم عليه لله عزّ وجلّ ولم تعده لله، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك. ثم قال: هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان. قال بعض الحكماء: من عجيب أمر الإنسان إنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدّة التمتع وتوقع الزوال. وقال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: من أين تأكل؟ قال: من بيدر اللطيف الخبير، الذي خلق الرحا يأتيها بالطحين - وأومأ بيده إلى رحا أضراسه - فسبحان القدير الخبير.

بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة

إعلم أنّ هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر والعلم والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأوّل: وهو العمل؛ الإقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عزّ القناعة فينبغي أن يسدّ عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلا مالاً بدّله منه، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة، بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، ويقنع بأي طعام كان؛ ويقلل من الإدام ما أمكنه، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد. ويمكن معه الإجمال في الطلب والإقتصاد في المعيشة وهو الأصل في القناعة؛ ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق فيه، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الرفق الأمر كله»[1] وقال ﷺ: «ما عال من اقتصد[2]» وقال ﷺ: «ثلاث منجيات؛ خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب[3]» وروى أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حباً من الأرض وهو يقول: إن من فقهك رفقك في معيشتك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «الإقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوّة[4]».

(١) حديث «إن الله يحب الرفق في الأمر كله» متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم.
(٢) حديث «ما عال من اقتصد» أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ «مقتصد».
(٣) حديث «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب» أخرجه البزاز والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف.
(٤) حديث ابن عباس «الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة» أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال «السمت الصالح» وقال «من خمسة وعشرين» ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال «التؤدة» بدل «الهدى الصالح» وقال «من أربعة».

وفي الخبر «التدبير نصف المعيشة[1]» وقال ﷺ: «من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عزّ وجلّ أحبه الله[2]» وقال ﷺ: « إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً[3]» والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور.

الثاني: أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الإضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدّر له لا بدّ وأن يأتيه وإن لم يشتدّ حرصه، فإن شدّة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بـوعد الله تعالى إذ قال عزّ وجلّ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والإدخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، ويضحك عليه في احتماله التعب نقداً مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون. وفي مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل: الفقر

وقد دخلا أبنا خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما: «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى[4]» ومرّ رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو حزين فقال له: «لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك[5]» وقال ﷺ: «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة[6]» ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله، وقال ﷺ: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب[7]» وقال سفيان: إتق الله فما رأيت تقياً محتاجاً. أي لا يترك التقي فاقداً لضرورته، بل يلقى الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه. وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي من أين معاشك؟ قال نذر الحاج، قلت: فإذا صدروا، فبكى وقال: لو لم نعش إلا من حيث ندري لم نعش. وقال أبو حازم رضي الله عنه: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً منهما هو لي، فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السماوات والأرض. وشيئاً منهما هو لغيري فلذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقى، يمنع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري، ففي أي هذين أفنى عمري؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان. وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عزّ الإستغناء وما في الحرص والطمع من الذل، فإذا تحقق عنده

---

(١) حديث «التدبير نصف المعيشة» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقلي ووثقة ابن معين.

(٢) حديث «من اقتصد أغناه الله. . . الحديث» أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله «ومن ذكر الله أحبه الله» وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال الذهبي: شيخ لا يعرف حالة أتى بخبر منكر أي هذا الحديث، ولأحمد وأبي يعلي في حديث لأبي سعيد «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله».

(٣) حديث «إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجاً ومخرجاً» رواه ابن المبارك في البر والصلة وقد تقدم.

(٤) حديث «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما. . . الحديث» رواه ابن ماجه من حديث: حبة وسواء ابني خالد، وقد تقدم.

(٥) حديث «لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك» قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافري مرسلاً.

(٦) حديث «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب. . . الحديث» تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثاً.

(٧) حديث «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث يحتسب» أخرجه ابن حيان في الضعفاء من حديث علي بإسناد رواه، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل. وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول. وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة. وذلك مما يضاف اليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم. ثم يفوته عزّ النفس والقدرة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثـرة حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداهنة، وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عزّ النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس[1]» ففي القناعة الحرّية والعزّ. ولذلك قيل: إستغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم. ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الإقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير، فإنه إن تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه وإن تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه، وإن تزين في الملبس والحلي ففي اليهود من هو أعلى زينة منه، وإن قنع بالقليل و رضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر - كما ذكرنا في آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع؛ وما في خلو اليد من الأمن والفرغ، ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء. ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه، فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول: لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس؟ ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول: ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم؟ قال أبو ذرّ: أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي[2] أي في الدنيا. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه[3]» فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة. وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلاً، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدّة طمعه في انتظار الشفاء.

بيان فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة. وعنه عبر النبي ﷺ حيث قال: «السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة[4]» وقال جابر. قال رسول الله

---

(١) حديث «عز المؤمن استغناؤه عن الناس» أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم وصحح إسناده، وأبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد: أن جبريل قاله للنبي ﷺ في أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعي في مسند الشهاب من قول النبي ﷺ.

(٢) حديث أبي ذر: أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي» أخرجه أحمد وابن حبان في أثناء حديث وقد تقدم.

(٣) حديث أبي هريرة «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه» متفق عليه وقد تقدم.

(٤) حديث «السخاء شجرة في الجنة... الحديث» أخرجه ابن حيان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدي والدارقطني في المستجاد من =

ﷺ: «قال جبريل عليه السلام. قال الله تعالى إن هذا دين أرتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم[١]» وفي رواية «فأكرموه بهما ما صحبتموه» وعن عائشة الصديقية رضي الله عنها قالت. قال رسول الله ﷺ: «ما جبل الله تعالى ولياً له إلا على حسن الخلق والسخاء[٢]» وعن جابر قال. قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة[٣]» وقال عبد الله بن عمرو. قال رسول الله ﷺ: «خلقان يحبهما الله عزّ وجلّ وخلقان يبغضهما الله عزّ وجلّ، فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيراً إستعمله في قضاء حوائج الناس[٤]» وروي المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال: «إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام[٥]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخياً أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة[٦]» وقال أبو سعيد الخدري. قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي[٧]» وعن ابن عباس قال. قال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر[٨]» وقال ابن مسعود قال ﷺ: «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى لباهي بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام[٩]» وقال ﷺ: «إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها[١٠]» وقال أنس. إن

= حديث أبي هريرة وسيأتي بعده وأبو نعيم من حدبث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد.

(١) حديث جابر مرفوعاً حكاية عن جبريل عن الله تعالى «إن هذا دين رضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق» أخرجه الدارقطني في المستجاد وقد تقدم.

(٢) حديث عائشة «ما جبل الله ولياله إلا على السخاء وحسن الخلق» أخرجه الدارقطني في المستجاد دون قوله «وحسن الخلق» بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة، ويوسف ضعيف جداً.

(٣) حديث جابر: أي الإيمان أفضل؟ قال «الصبر والسماحة» أخرجه أبو يعلي وابن حيان في الضعفاء بلفظ: سئل عن الإيمان وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ: ما الإيمان؟ قال «الصبر والسماحة» وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقي في الزهد بلفظ: أي الأعمال أفضل قال «الصبر والسماحة وحسن الخلق» وإسناده صحيح.

(٤) حديث عبد الله بن عمرو «خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي دون قوله في آخره «وإذا أراد الله بعبد خيراً» وقال فيه «الشجاعة» بدل «حسن الخلق» وفيه محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود وموسى بن هرون وغيرهما ووثقه الخطيب، وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفاً على عبد الله بن عمرو، وروى الديلمي أيضاً من حديث أنس «إذا أراد الله بعبده خيراً صير حوائج الناس إليه» وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حيان.

(٥) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده «إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام» أخرجه الطبراني بلفظ «بذل السلام وحسن الكلام» وفي رواية له «يوجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام» وفي رواية له «عليك بحسن الكلام وبذل الطعام».

(٦) حديث أبي هريرة «السخاء شجرة في الجنة... الحديث» وفيه «والشح شجرة في النار... الحديث» أخرجه الدارقطني في المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري ضعيف جداً.

(٧) حديث أبي سعيد «يقول الله تعالى أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم... الحديث» أخرجه ابن حيان في الضعفاء والخرائطي في مكارم الأخلاق والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف، ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدي وقال إنه مجهول، وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك ابن الخطاب وقد غمزه ابن القطان، وتابعه عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدي، ورواه الحاكم من حديث علي وقال إنه صحيح الإسناد وليس كما قال.

(٨) حديث ابن عباس «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر» أخرجه الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق. وقال الخرائطي «أقيلوا السخي زلته» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات عن طريق الدارقطني.

(٩) حديث ابن مسعود «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة العير... الحديث» لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ «الخير أسرع إلى البيت الذي يغشى» وفي حديث ابن عباس «يؤكل فيه عن الشفرة إلى سنام البعير» ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر «الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السخاء... الحديث» وكلها ضعيفه.

(١٠) حديث «إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفسافها» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله =

رسول الله لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة[(١)]» وقال ابن عمر: قال ﷺ: «إن لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحوّلها إلى غيره[(٢)]» وعن الهلالي قال: أتى رسول الله ﷺ بأسرى من بني العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منه رجلاً، فقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم؟ فقال ﷺ: «نزل عليّ جبريل فقال: «أقتل هؤلاء واترك هذا فإن الله تعالى شكر له سخاء فيه[(٣)]» وقال ﷺ: «إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح[(٤)]» وعن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء[(٥)]» وقال ﷺ: «من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه[(٦)]» فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال. وقال عيسى عليه السلام: إستكثروا من شيء لا تأكله النار، وقيل: وما هو؟ قال: المعروف. وقالت عائشة رضي الله عنها. قال رسول الله ﷺ: «الجنة دار الأسخياء[(٧)]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنّ السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، وإنّ البخيل بعيد من الله من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل، وأدوأ الداء البخل[(٨)]» وقال ﷺ: «اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله[(٩)]» وقال ﷺ: «إنّ بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين[(١٠)]» وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها

= ابن كريز وهذا مرسل وللطبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقي من حديث سهل بن سعد «إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور» وفي الكبير والبيهقي «معالي الأخلاق... الحديث» وإسناده صحيح وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة.

(١) حديث أنس: لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله، فأمر له بشاء كثير بين جبلين... الحديث. أخرجه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة.

(٢) حديث ابن عمر «إن لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد... الحديث» أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتي وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعفه الأزدي.

(٣) حديث الهلالي: أتى النبي ﷺ بأسرى من بني العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً... الحديث» وفيه «فإن الله شكر له سخاء فيه» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث «إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح» لم أقف له على أصل.

(٥) حديث نافع عن ابن عمر «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء» أخرجه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك وأبو علي الصدفي في عواليه رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه.

(٦) حديث «من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤونةالناس عليه» رواه ابن عدي وابن حيان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره» وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمر بإسناد منقطع، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين، ورواه العقيلي من حديث ابن عباس قال ابن عدي يروي من وجوه كلها غير محفوظة.

(٧) حديث عائشة «الجنة دار الأسخياء» أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد والخرائطي قال الدارقطني لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات. وقال الذهبي حديث منكر ما آفته سوى جحدر قلت رواه الدارقطني فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقري وهو ضعيف جداً.

(٨) حديث أبي هريرة «إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة... الحديث» أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر فيه «وأدوأ الداء البخل» ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه.

(٩) حديث «إصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله» أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً وتقدم في آداب المعيشة.

(١٠) حديث «إن بدلاء أمتي لم تدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس... الحديث» أخرجه الدارقطني في المستجاد وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس، وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينوري أورد ابن عدي له مناكير، وفي الميزان أنه ضعيف منكر الحديث، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المري متكلم فيه.

ويحيي به أهلها[١]» وقال ﷺ: «كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها[٢]» وقال ﷺ: «كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله الله يحب إغاثة اللهفان[٣]» وقال ﷺ: «كل معروف فعلته إلى غني أو فقير صدقة[٤]» وروي أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي وقال جابر: بعث رسول الله ﷺ بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدّثوا رسول الله ﷺ بذلك فقال ﷺ: «إنّ الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت[٥]». الآثار: قال علي كرم الله وجهه: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى وأنشد:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم عن المروءة والنجدة والكرم فقال: أما المروءة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية. وأما النجدة فالذب عن الجار والصبر في المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل. ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عزّ وجلّ عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته. وقال ابن السماك عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه. وسئل بعض الأعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال علي بن الحسين رضى الله عنهما من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخياً وإنما السخي من يبتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاماً. وقيل للحسن البصري ما السخاء؟ فقال أن تجودبما لك في الله عزّ وجلّ. قيل فما الحزم؟ قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الإسراف؟ قال الإنفاق لحب الرياسة. وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهر كالمشاورة ألا وإن الله عزّ وجلّ يقول: إني جواد كريم لا يجاورني لئيم واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة. وقال حذيفة رضي الله عنه رب فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسماحته. وروي أنّ الأحنف بن قيس رأى رجلاً في يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وسمى واصل بن عطاء: الغزال، لأنه كان يجلس إلى الغزالين؛ فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئاً.

---

(١) حديث أبي سعيد «إن الله جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب إليهم المعروف... الحديث» أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هرون العبدي عنه وأبي هرون ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه.

(٢) حديث «كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة... الحديث» أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد والخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالي وثقة ابن معين وضعفه الجمهور، والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة.

(٣) حديث «كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان» أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقاً فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلي من حديث أنس أيضاً وفيها زياد النميري ضعيف.

(٤) حديث «كل معروف فعلته إلى غني أو فقير صدقة» أخرجه الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والخرائطي وكلاهما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منبع من حديث ابن عمر بإسنادين ضعيفين.

(٥) حديث جابر: بعث رسول الله ﷺ بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم... الحديث. وفيه «فقال إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت» أخرجه الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله.

وقال الأصمعي كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ما وقى به العرض. وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء؟ قال السخاء البر بالإخوان والجود بالمال. قال وورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صرراً إلى إخوانه. وقال قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال؟ وقال الحسن بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود. وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي، قيل: فإن لم يكن، قال من كثرت أيادي عنده. وقال عبد العزيز بن مروان إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده. وقال المهدي لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس في داري؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّ الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راضياً وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا اصطنعت صنيعة فأعمد بها لله أو لذوي القرابة أو دع

فقال عبد الله بن جعفر إن هذين البيتين ليبخلان الناس، ولكن أمطر المعروف مطراً، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً.

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر عن أم درّة ـ وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها ـ قالت إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت يا جارية هلم بفطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة. ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت لو كنت ذكرتيني لفعلت.

وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبيد الله تغدوا عندي اليوم، فأتوه حتى ملؤا عليه الدار، فقال ما هذا؟ فأخبر الخبر، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة، وأمر قوماً فطبخوا وخبزوا، وقدّمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منهاحتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا، فقال عبيد الله لوكلائه أو موجود لنا هذا كل يوم؟ قالوا نعم، قال فليتغدّ عندنا هؤلاء في كل يوم.

وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر المدينة، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن لا تلقه ولا تسلم عليه، فلما خرج معاوية، قال الحسن إن علينا ديناً فلا بدّ لنا من إتيانه فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه، فمروا عليه ببختي عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه، فقال معاوية ما هذا؟ فذكر له، فقال أصرفوه بما عليه إلى أبي محمد.

وعن واقد بن محمد الواقدي قال حدّثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر رقعته إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، السخاء والحياء، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك، وإن لم أكن قد أصبت فجناياتك على نفسك. وأنت حدّثتني وكنت على قضاء الرشيد؛ عن محمد بن إسحٰق عن الزهري عن أنس: أن النبي ﷺ قال للزبير بن العوّام: «يا زبير أعلم أنّ مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله عزّ وجلّ إلى كل عبد بقدر نفقته، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل له وأنت أعلم[1]» قال الواقدي: فوالله لمذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إلي من الجائزة وهي مائة ألف درهم.

(١) حديث أنس «يا زبير إعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش... الحديث» وفي أوله قصة مع المأمون أخرجه الدارقطني فيه وفي إسناده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالعنعنة ولا يصح.

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له: يا هذا حق سؤالك إياي يعظم لدى ومعرفتي بما يجب لك تكبر علي، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله ؛ والكثير في ذات الله تعالى قليل، وما في ملكي وفاه لشكرك، فإن قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الإحتيال والإهتمام لما اتكلفه من واجب حقك فعلت، فقال: يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية، وأعذر على أربع، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم، فأحضر خمسين ألفاً قال: فما فعلت بالخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي، قال أحضرها، فأحضرها فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل وقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمل. فقال له مواليه: والله ما عندنا درهم! فقال: أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم.

واجتمع قرّاء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا لنا جار صوّام قوّام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوّج بنته من إبن أخيه وهو فقير وليس عنده مال يجهزها به، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلها داره وفتح صندوقاً فأخرج منه ست بدر فقال: احملوا، فحملوا فقال: ابن عباس ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، إرجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزه فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا.

وحكى أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال: والله لأعلمنّ الشيطان أني عدوّه؛ فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم» فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف، فلما تعذر عليه إرتجاعها كتب إليهم بيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته.

وكان أبو طاهر بن كثير شيعياً فقال له رجل. بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا، فقال: قد فعلت، وحقه لأعطينك ما يليها، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل.

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني إلى القاضي وادع علي بعشرة آلاف درهم حتى أقرّلك بها ثم أحبسني، فإن أهلي لا يتركوني محبوساً، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس.

وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدّة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يوماً لبعض خدّام معن: إذا دخل الأمير البستان فعرّفني، فلما دخل الأمير البستان أعلمه، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها.

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فما لي إلى معن سواك شفيع

فقال: من صاحب هذه؟ فدعى بالرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له، فأمر له بعشر بدر، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن: حق عليَّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي ولا دينار.

وقال أبو الحسن المدائني: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمرّوا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت نعم، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة فقالت: أحلبوها وامتذقوا لبنها. ففعلوا ذلك ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه

الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنا صانعون بك خيراً ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال: ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين نفر من قريش؟ قال: ثم بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه، فمرّت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها: يا أمة الله أتعرفيني؟ قالت: لا قال: أنا ضيفك يوم كذا ويوم كذا، فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي أنت هو؟ قال: نعم. ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر، فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار.

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال: إستنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك.

وحكي أنّ قوماً من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاءوا من سفر بعيد؛ فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له: هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي؟ وكان السخي الميت قد خلف نجيباً معروفاً به، ولهذا الرجل بعير سمين، فقال له في النوم: نعم، فباعه في النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره في النوم، فانتبه الرجل من نومه فإذا الدم يثج من نحر بعيره، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق إستقبلهم ركب، فقال رجل منهم: من فلان بن فلان منكم؟ ـ باسم ذلك الرجل ـ فقال: أنا، فقال له هل بعت من فلان بن فلان شيئاً؟ وذكر الميت صاحب القبر، قال: نعم بعت بعيري بنجيبه في النوم، فقال: خذ هذا نجيبه، ثم قال: هو أبي وقد رأيته في النوم وهو يقول: إن كنت إبني فأدفع نجيبي إلى فلان بن فلان وسماه.

وقدم رجل من قريش من السفر فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض، فقال: يا هذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه: ما بقى معك من النفقة فإدفعه إليه، فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف، فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك إستقللت ما أعطيناك؟ قال: لا، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا يبكون لدارهم، فقال يا غلام أئتهم فأعلمهم أنّ المال والدار لهم جميعاً.

وقيل بعث **هارون الرشيد** إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب هارون وقال أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيتي؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّ لي من غلتي كل يوم ألف دينار؛ فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم. وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة مع

أنّ دخله كل يوم ألف دينار. وحكى أنّ امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئاً من عسل، فأمر لها بزق من عسل، فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا؟ فقال. إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا. وكان الليث ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدّق على ثلثمائة وستين مسكيناً.

وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل إستوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إلي في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة: بلغني عنك خصال فحدّثني بها، فقال: هي من غيري أحسن منها مني، فقال: عزمت عليك إلا حدّثتني بها؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلا كانوا أمن على مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إياه.

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلاً جواداً فإذا لم يجد شيئاً كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال:

إني سمعت مـع الصبـاح مناديـاً   يـا من يعـين عـلى الفتى المعـوان

ثم قال: ما حاجتك؟ قال: ديني، قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: لك دينك ومثله.

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزي الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء، قال: فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من زاره وعاده.

وعن أبي إسحٰق قال: صليت العصر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريماً لي، فلما صليت وضع بين يدي حلة ونعلان، فقلت: لست من أهل هذا المسجد، فقالوا: إنّ الأشعث بن قيس الكندي قدم البارجة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين.

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي النيسابوري رحمه الله: سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول: كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئاً، فولد لبعضهم مولود قال: فجئت أليه وقلت له: ولد لي مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال: رحمك الله كنت تفعل وتصنع وإني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء، قال: ثم قام وأخرج ديناراً وقسمه نصفين وناولني نصفه، وقال: هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء، قال: فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال: فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال: سمعت جميع ما قلت وليس لنا أذن في الجواب، ولكن أحضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فأحملها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدّم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له: إجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه، فقال: هذا ما لكم وليس لرؤياي حكم، فقالوا: هو يتسخى ميتاً ولا نتسخى نحن أحياء؟ فلما ألحوا عليه حمل الدنانير ألى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة، قال: فأخذ منها ديناراً فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر، وقال: يكفيني هذا وتصدّق به على الفقراء، فقال أبو سعيد: فلا أدري أي هؤلاء أسخى؟

وروي أنّ الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال: مروا فلاناً يغسلني، فلما توفي بلغه خبر

وفاته فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأتي بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه، وقال هذا غسلي إياه؛ أي أراد به هذا. وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلاً بقوله تعالى ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه أنه كان ذات يوم راكباً حماره فحركه فانقطع زرّه، فمرّ على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوّي زرّه فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوّى زرّه فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قلتها، وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه:

يا لهف قلبي على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروءات
إنّ اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء. وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، وكان قلما يمسك شيئاً من سماحته، فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك، قال فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها، ولكني بنيت بمنى مضرباً يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه. وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول:

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ... ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي. دخل أبي على المأمون فوصله بمائه ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائة ألف أخرى.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى، فقال له سعيد: ما يبكيك! قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات إمتدحه بها فوجده عليلاً فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه، وقال: عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه، فأقام شهرين فوحشه طول المقام فكتب اليه يقول:

إن حراماً قبول مدحتنا ... وترك ما نرتجي من الصفد
كما الدراهم والدنانير في البيـ ... ـع حرام إلا يداً بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه. كم أقام بالباب؟ قال. شهرين، قال. أعطه ثلاثين ألفاً وجئني بدواة، فكتب إليه:

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قـ ... ـلا ولو أمهلتنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ... ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة. قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك. وقالت سعدى بنت

عوف. دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلاً فقلت له مالك؟ فقال اجتمع عندي مال وقد غمني، فقلت وما يغمك أدع قومك؟ فقال يا غلام علي بقومي، فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان؟ قال: أربعمائة ألف. وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرّب إليه برحم فقال: إنّ هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك، إنّ لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فإن شئت فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن.

وقيل بكى علي كرّم الله وجهه يوماً فقيل: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

وأتى رجل صديقاً له فدق عليه الباب فقال، ما جاء بك؟ قال علي أربعمائة درهم دين، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك؟ فقال إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى أحتاج إلى مفاتحتي فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين.

بيان ذم البخل

قال الله تعالى ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وقال تعالى ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ وقال تعالى ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ وقال ﷺ: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم[1]» وقال ﷺ: «إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم[2]» وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة[3]» وفي رواية «ولا جبار» وفي رواية «ولا منان» وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات؛ شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه[4]» وقال ﷺ: «إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ الزاني، والبخيل المنان، والمعيل المختال[5]» وقال ﷺ: «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع[6]» وقال ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن؛ البخل وسوء الخلق[7]» وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر[8]» وقال ﷺ؛ «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم

---

(١) حديث «إياكم والشح... الحديث» أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ «واتقوا الشح فإن الشح... الحديث» ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حيان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو «إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا».

(٢) حديث «إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم» أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ «حرماتهم» مكان «أرحامهم» وقال صحيح على شرط مسلم.

(٣) حديث «لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة» وفي رواية «ولا منان» أخرجه أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله «ولا منان» فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه «لا يدخل الجنة سيء الملكة».

(٤) حديث «ثلاث مهلكات... الحديث» تقدم في العلم.

(٥) حديث «إن الله يبغض ثلاثاً: الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال» أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله «البخيل المنان» وقال فيه «الغني المظلوم» وقد تقدم وللطبراني في الأوسط من حديث علي «إن الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال» وسنده ضعيف.

(٦) حديث «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب.

(٨) حديث «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن... الحديث» أخرجه البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار.

الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا[١]» وقال ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع[٢]» وقتل شهيد على عهد رسول الله ﷺ فبكته باكية فقالت: واشهيداه! فقال ﷺ: «وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه[٣]» وقال جبير بن مطعم: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: «أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العصاة نعمًا لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً[٤]» وقال عمر رضي الله عنه: قسم رسول الله ﷺ قسمًا فقلت غير هؤلاء كان أحق به منهم؟ فقال: «إنهم يخيروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل[٥]» وقال أبو سعيد الخدري: دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين؛ فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفاً وشكرا ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا. فقال ﷺ: «لكن فلان أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار؛ فقال عمر فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: «يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل[٦]» وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم إلا أن الله عزّ وجلّ خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة طوبى، وشدّ أغصانها بأغصان سدرة المنتهى، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة، ألا إنّ السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة. وخلق البخل من مقته وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدينا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار، ألا إنّ البخل من الكفر والكفر في النار[٧]» وقال ﷺ: «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخي، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيل[٨]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ لوفد بني لحيان: «من سيدكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جدّ بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل، فقال ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح[٩]» وفي رواية أنهم قالوا: سيدنا جدّ بن قيس، فقال: «بم تسودونه؟» قالوا: إنه أكثر مالاً وأنا على ذلك لنرى منه البخل، فقال عليه السلام: «وأي داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم» قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟. قال: «سيدكم بشر بن البراء» وقال علي رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبغض البخيل في حياته

---

(١) حديث «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. . . الحديث» أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله «أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا» قال عوضاً عنها «وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا» وكذا رواه أبو داود على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح» فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش.

(٢) حديث «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع» أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد.

(٣) حديث «وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه» أخرجه أبو يعلي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وللبيهقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت ليهنك الشهادة وهو عند الترمذي: إلا أن رجلاً قال له إبشر بالجنة.

(٤) حديث جبير بن مطعم: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به. . . الحديث، أخرجه البخاري وتقدم في أخلاق النبوة.

(٥) حديث عمر: قسم النبي ﷺ قسمًا. . . الحديث» وفيه «ولست بباخل» أخرجه مسلم.

(٦) حديث أبي سعيد: في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله ﷺ دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفاً. . . الحديث. وفيه «ويأبى الله لي البخل» رواه أحمد وأبو يعلي والبزار نحوه ولم يقل أحمد: إنهما سألاه ثمن بعير ورواه الزار من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات.

(٧) حديث ابن عباس «الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم. . . الحديث» بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أقف له على إسناد.

(٨) حديث «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج في الجنة إلا سخي. . . الحديث» تقدم دون قوله «فلا يلج في الجنة» إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٩) حديث أبي هريرة «من سيدكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جد بن قيس. . . الحديث» أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ «يا بني سلمة» «وقال سيدكم بشر بن البراء» وأما الرواية التي قال فيها «سيدكم عمرو بن الجموح» فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن.

السخي عنه موته[1]» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل[2]» وقال أيضاً: قال ﷺ: « الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد » وقال أيضاً: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق[3]» وقال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً[4] » وقال ﷺ: «يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأي ظلم أظلم عند الله من الشح، حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل[5]».

وروى أن رسول الله ﷺ: كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي فقال ﷺ: «وما ذنبك صفه لي؟» فقال: هو أعظم من أن أصفه لك! فقال: «ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟» فقال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «فذنبك أعظم أم الجبال؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «فذنبك أعظم أم البحار؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «فذنبك أعظم أم السموات؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «فذنبك أعظم أم العرش؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «فذنبك أعظم أم الله؟» قال: بل الله أعظم وأعلى، قال: «ويحك فصف لي ذنبك» قال: يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال وإنّ السائل ليأتيني يسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من نار، فقال ﷺ: «إليك عني لا تحرقني بنارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صليت ألفي ألف عام ثم بكيت حتى تجري من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم لأكبك الله في النار، ويحك! أما علمت أنّ البخل كفر وأنّ الكفر في النار، ويحك! أما علمت أن الله تعالى يقول ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه... ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[6]».

الآثار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما خلق الله جنة عدن قال لها تزيني فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك فأظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم قال لها أظهري سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك فأظهرت فنظر إليها فقال تكلمي فقالت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزتي لا أسكنك بخيلاً. وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز: أف للبخيل لو كان البخل قميصاً ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته. وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر. وقال محمد بن المنكدر: كان يقال إذا أراد الله بقوم شراً أمر الله عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم. وقال علي كرّم الله وجهه في خطبته: إنه سيأتي على الناس زمان عضوض يعض الموسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ وقال عبد الله بن عمرو: الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل هو الذي يبخل بما في يده. وقال الشعبي لا أدري أيها أبعد غوراً في نار جهنم البخل أو الكذب؟ وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي: تكلم، فقال: خير الناس من ألفي سخياً وعند الغضب وقوراً وفي القول متأنياً وفي الرفعة متواضعاً وعلى كل ذي رحم

---

(١) حديث علي «إن الله ليبغض البخيل في حياته السخي عند موته» ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أجد له إسناداً.

(٢) حديث أبي هريرة «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل» «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد» أخرجه النسائي وفي إسناده اختلاف.

(٣) حديث «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

(٤) حديث «لا ينبغي لمؤمن أن يكون جباناً ولا بخيلاً» لم أره بهذا اللفظ.

(٥) حديث «يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأي ظلم أظلم من الشح... الحديث» وفيه «لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل» لم أجده بتمامه وللترمذي من حديث أبي بكر «لا يدخل الجنة بخيل» وقد تقدم.

(٦) حديث: كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي... الحديث» في ذم البخل وفيه قال «إليك عني لا تحرقني بنارك... الحديث» بطوله وهو باطل لا أصل له.

مشفقاً. وقام الرومي فقال: من كان بخيلاً ورث عدوّه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه. وقال الضحاك في قوله تعالى ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ قال: البخل، أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى. وقال كعب: ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان اللهم عجل لممسك تلفاً وعجل لمنفق خلفاً. وقال الأصمعي سمعت أعرابياً وقد وصف رجلاً فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه. وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلاً لأن البخل يحمله على الإستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة. وقال علي كرّم الله وجهه والله ما استقصى كريم قط حقه. قال الله تعالى (عرّف بعضه وأعرض عن بعض) وقال الجاحظ ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء، وأكل القديد، وحك الجرب. وقال بشر بن الحارث البخيل لا غيبة له قال النبي ﷺ: «إنك إذا لبخيل» ومدحت إمرأة عند رسول الله ﷺ فقالوا صوّامة قوامة إلا أنّ فيها بخلاً قال: «فما خيرها إذاً[1]» وقال بشر النظر إلى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين. وقال يحيى بن مغاذ ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا بجاراً، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً. وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه ولقى يحيى بن زكريا عليهما السلام. إبليس في صورته فقال له: يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال: أحب الناس إلى المؤمن البخيل، وأبغض الناس إلى الفاسق السخي، قال له: لم؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله، ثم ولى وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك.

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل، فدعاه بعض جيرانه وقدّم إليه طباهجة ببيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت، فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال: لا بأس عليك؛ تقيأ ما أكلت، فقال: هاه! أتقيأ طباهجة ببيض!؟ الموت ولا ذلك. وقيل: أقبل أعرابي يطلب رجلاً، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه، فجلس الأعرابي فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، فقرأ ﴿. . . والزيتون وطور سينين﴾ فقال: وأين التين؟ قال: هو تحت كسائك. ودعا بعضهم أخاً له ولم يطعمه شيئاً، فحبسه إلى العصر حتى اشتدّ جوعه وأخذه مثل الجنون، فأخذ صاحب البيت العود وقال له: بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال: صوت المقلي. ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل: صف لي مائدته فقال: هي فترة في فتر، وصحافه منقورة من حب الخشخاش، قيل فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون! قال: فما يأكل معه أحد؟ قال: بلى الذباب، فقال: سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق، قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه إبرة ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قدّ من دبر ما فعل ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم إليه فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له. نراك لا تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك؟ قال نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه، إن مس عيناً أو أذناً أو خدّاً وقفت على ذلك، وآكل منه ألواناً، عينه لوناً، وأذنه لوناً، ولسانه لوناً، وغلصمته لوناً، ودماغه لوناً،

---

(١) حديث: مدحت امرأة عند النبي ﷺ فقالوا: صوامة قوامة إلا أن فيها بخلاً. . . الحديث. تقدم في آفات اللسان.

وأكفى مؤونة طبخه؛ فقد اجتمعت لي فيه مرافق. وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي فقالت له إمرأة من أهله: مالي عليك إن رجعت بالجائزة؟ فقال: إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهماً! فأعطى ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانق. واشترى مرّة لحمًا بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق! وقال: أكره الإسراف. وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول: لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً! فيأبى عليه الأعمش، فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال: سر بنا، فدخل منزله فقرّب إليه كسرة وملحاً، فجاء سائل فقال له رب المنزل: بورك فيك، فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك، فلما سأل الثالثة قال له إذهب والله وإلا خرجت إليك بالعصا! قال فناداه الأعمش وقال إذهب ويحك! فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه! هو منذ مدّة يدعوني على كسرة وملح فوالله ما زادني عليهما!

بيان الإيثار وفضله

إعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجة السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة. وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشدّ. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن؛ ولو وجدها مجاناً لأكلها. فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة؛ وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين؟ إن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾وقال النبي ﷺ: «أيما أمرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له[1]» وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا[2] ونزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر إمرأته بإطفاء السراج، وجعل يمدّ يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل، حتى أكل الضيف، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم» ونزلت (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[3] فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى؛ والإيثار أعلى درجات السخاء. وكان ذلك من أدب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيمًا فقال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال سهل بن عبد الله التستري قال موسى عليه السلام، يا رب أرني بعض درجات محمد ﷺ وأمته! فقال يا موسى إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي، قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى، فقال: يا رب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال؛ بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار، يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتي حيث يشاء: وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه؛ إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام

---

(١) حديث «أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له» أخرجه ابن حيان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم.

(٢) حديث عائشة: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا. أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: ولكنه كان يؤثر على نفسه. وأول الحديث عند مسلم باللفظ: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى لسبيله. وللشيخين: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعاً حتى قبض زاد مسلم: من طعام.

(٣) حديث: نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله... الحديث. في نزول قوله تعالى ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال ما رأيت! قال فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال! قال فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء! إنّ هذا الغلام لأسخى مني، فأشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه. وقال عمر رضي الله عنه: أهدى إلى رجل من أصحاب رسو ل الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج مني إليه فبعث بـه إليـه، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع الأوّل. وبات علي كرّم الله وجهه على فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام: إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختارا كلاهما الحياة وأحباها؛ فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد ﷺ فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثر بالحياة؟ إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عن رجليه وجبريل عليه السلام يقول: بخ بخ من مثلك يا بن أبي طالب، والله تعالى يباهي بك الملائكة! فانزل الله تعالى ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاةِ اللهِ والله رؤوف بالعباد﴾ (1) وعن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً ـ وكانوا في قرية بقرب الريّ ـ ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم «فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام، فلما رفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه. وروي أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء؛ فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه: وقال حذيفة العدوي: إنطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه، فاذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فإذا رجل يقول: آه... فأشار ابن عمي إلى أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه... فأشار هشام إنطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إن ابن عمي فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين. وقال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه، واستعار ثوباً فمات فيه. وعن بعض الصوفية قال: كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد، فتبعنا كلب من البلد، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بدابة ميتة فصعدنا إلى موضع عالٍ وقعدنا. فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب في الميتة، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد، فقام ذلك الكلب وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقي عليها قليلاً ثم انصرف.

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههناوبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عزّ وجلّ.

بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات، ولكن ما حدّ البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً، وقد يصدر فعل من إنسان

---

(1) حديث: بات علي على فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل إني آخيت بينكما وجعلت عمر احدكما اطول من الأخر... الحديث. في نزول قوله تعالى ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ أخرجه أحمد مختصراً من حديث ابن عباس: شري على نفسه فلبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه... الحديث. وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على اصل، وفيه ابو بلج مختلف فيه والحديث منكر.

فيختلف فيه الناس فيقول قوم؛ هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل. وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حباً للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً فإذاً لا ينفك أحد عن البخل. و إذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك؟ وما حدّ السخاء الذي يستحق به البعد صفة السخاوة وثوابها؟ فنقول: قد قال قائلون حدّ البخل منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل، وهذا غير كافٍ؛ فإن من يرد اللحم مثلاً إلى القصاب للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعدّ بخيٌ لإتفاف. وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يفرضه القاضي ثم يضايقهم في لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله يعد بخيلاً. ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عدّ بخيلاً. وقال قائلون البخيل هو الذي يستعصب العطية، وهو أيضاً قاصر، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستعصب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها، ويستصعب ما فوق ذلك؟ وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد وقد يستصعب بعض العطايا؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم. فهذا لا يوجب الحكم بالبخل. وكذلك تكلموا في الجود، فقيل الجود عطاء بلا منّ وإسعاف من غير روية. وقيل: الجود عطاء من غير مسألة على رؤية، وقيل: الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن. وقيل: الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عزّ وجلّ فيعطي عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر. وقيل: من أعطى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل.

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود البخل، بل نقول: المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل. فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير. وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه؛ إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء، وقد قيل له ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ وقال تعالى ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

فإن قلت: فقد صار هذا موقوفاً على معرفة الواجب فما الذي يجب بذله؟

فأقول: إن الواجب قسمان: واجب بالشرع، وواجب بالمرؤة والعادة. والسخي هو الذي يمنع واجب الشرع ولا واجب المرؤة، فإن منع واحداً منها فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع، وإنما يتسخى بالتكلف، أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطي ماله، أو من وسطه، فهذا كله بخل.

وأما واجب المرؤة فهو ترك المضايقة والإستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص. فمن كثر ماله إستقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد،

ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب، إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها، ويستقبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضحية او شراء خبز الصدقة ما لا يستقبح في غيره من المضايقة. وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي. وبمن منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير. فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أو لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره. ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال، فإنّ صيانة الدين أهم من حفظ المال، فمانع الزكاة والنفقة بخيل. وصيانة المروءة أهم من حفظ المال، والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل. ثم تبقى درجة أخرى، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدّة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعاً لدرجاته في الآخرة، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس ببخل عند عوام الخلق، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهماً، وربما يظهر عند العوام أيضاً سمة البخل عليه إن كان في جواره فمنعه وقال: قد أديت الزكاة الواجبة وليس على غيرها. ويختلف إستقباح ذلك باختلاف مقدار ماله، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه. فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل. نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير. ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد، فإنه يشتري المدح بماله والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه، والجود هو بذل الشيء من غير عوض. هذا هو الحقيقة ولا يتصوّر ذلك إلا من الله تعالى، أما الآدمى فاسم الجود عليه مجاز إذ لايبذل الشيء إلا لغرض، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يترقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث، وهي أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد، كما روى عن بعض المتعبدات أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت: هل فيكم من أسأله عن مسألة؟ فقالوا لها: سلي عما شئت ـ وأشاروا إلى حبان بن هلال ـ فقالت: ما السخاء عندكم؟ قالوا: العطاء والبذل والإيثار، قالت: هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين؟ قالوا: أن نعبد الله سبحانه سخية به أنفسنا غير مكرهة، فتريدون على ذلك اجراً؟ قالوا: قالت ولم؟ قالوا: لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها: سبحان الله! أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأي شيء تسخيتم عليه؟ قالوا: لها فما السخاء عندك يرحمك الله؟ قالت: السخاء عندي أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء! ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء؟ إن هذا الدينا لقبيح! وقالت بعض المتعبدات أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط؟ قالت: السخاء عندي في المهج. وقال: المحاسبي السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عزّ وجلّ ويسخو قلبك ببذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً، وإن كنت غير مستغنٍ عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك.

بيان علاج البخل

إعلم أن البخل سببه حب المال. ولحب المال سببان أحدهما حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بمال، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم. ولذلك قال عليه السلام: «الولد مبخلة مجبنة مجهلة[1]» فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: أن يحب عين المال؛ فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عن المرض بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا لا تسمح بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة، وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه. ومثال صاحبه: مثال رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة. فهذه أسباب حب المال. وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير والصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه معه رزقه، وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر، وأن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته إليه. ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم. ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له، فإنه من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه. ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله. فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً، فإن تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه.

حكي أنّ أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال: إنزع عني القميص وادفعه إلى فلان، فقال: هلا صبرت حتى تخرج؟ قال: لم آمن على نفسي أن تتغير، وكان قد خطر لي بذلة! ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقرّه؛ حتى إذا سافر وفارق تكلفاً وصبر عنه مدّة تسلى عنه قلبه، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفاً بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له. ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الإسم والإشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود، فيكون قد

---

(١) حديث «الولد مبخلة» زاد في رواية «محزنة» ابن ماجه من حديث يعلي بن مردة دون قوله «محزنة» رواه بهذه الزيادة أبو يعلي والبزار من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح.

أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الإسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما يسلي الصبي عند الفطام عن الثدي بالعصافير وغيرها لا ليخلي واللعب، ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم ينقل عنه إلى غيره، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به، إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء، فيبذل الأقوى بالأضعف، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها، إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء، فلذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه، فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه.

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دوداً ثم يأكل بعض الديدان البعض، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى إثنتين قويتين عظيمتين، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت، فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها، ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها. ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة أعمالاً، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت. مثل البخل فإنه يقتضي إمساك المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه، فإن علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان إستعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت.

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريدين أن يمنع من الإختصاص بزواياهم. وكان إذا توهم في مريد فرحه بزاويته وما ليها، نقله إلى زاوية غيرها، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوباً خلقاً لا يميل إليه قلبه.

فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا. فمن لم يسلك هذا السبيل أنسى بالدنيا وأحبها، فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه يحب الكل وقد سلب عنه، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك.

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: آراه مصيبة أو فقراً، قال: كيف؟ قال: إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، ثم إتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا! وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار، وعدوّة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها، وعدوّة الله إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوّة نفسها فإنها تأكل نفسها، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس. والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير، فالمال يأكل نفسه ويضادّ ذاته حتى يفنى، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل، ولا يحتاج إليه، فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله، بل هو كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه. ومثاله مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف.

الأولى: أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب ولا يحافظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية: أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروؤة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة وما يجري مجراه.

الثالثة: في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم. ولكل واحد ثلاث درجات: أدنى، وأوسط وأعلى. وما دام مائلاً إلى جانب القلة ومتقرّباً من حد الضرورة كان محقاً ويجيء من جملة المحقين، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها. وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد.

الرابعة: أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء.

الخامسة: أن يصلح نيته لا الأخذ والترك والإنفاق والإمساك، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجوده المال، ولذلك قال علي رضي الله عنه: لو أنّ رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد. فلتكن حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة في حقك. وكذلك ينبغي إن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه. والعامي إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبي الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدي به، ويظن أنه أخذها مستحسناً صورتها وشكلها ومستليناً جلدها، فيأخذها اقتداء به فقتله في الحال، إلا أنّ قتيل الحية يدري أنه قتيل، وقتيل المال قد لا يعرف. وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل:

هي دنيا كحية تنفث السم ... وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطى قلل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل في تناول المال.

بيان ذم الغني ومدح الفقير

إعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر ـ وقد أوردنا في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ـ ولكنا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل من الغنى على الجملة من غير

التفات إلى تفصيل الأحوال، ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضي الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم المحاسبي رحمه الله حبر الأمة في علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه. وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء: بلغنا أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال: يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدّقون ولا تفعلون ما تؤمرون، وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة؛ كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم؛ يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكن إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم؛ بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة؛ فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون؟ ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محل المتحيرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم؟ كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة! يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام؛ توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم. ثم قال الحارث رحمه الله: إخواني فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة، وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وشين، وفي الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله.

وبعد: فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصي وإلى البوار والتلف مصيره، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه ﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ فيا لها من مصيبة ما أفظعها، ورزية ما أجلّها، ألا فراقبوا الله إخواني ولا يغرّنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج، ويزعمون أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون. ويحك أيها المفتون إنّ احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك! لأنك متى زعمت أنّ أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم، ومتى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد إزدريت محمداً والمرسلين؟ ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت، ومتى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى من تركه، فقد زعمت أنّ رسول الله ﷺ لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال[1] وقد علم أنّ جمع المال خير للأمة؟ فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال، كذبت ورب السماء على رسول الله ﷺ! فلقد كان للأمة ناصحاً وعليهم مشفقاً وبهم رؤفاً. ومتى زعمت أنّ جمع المال أفضل فقد زعمت أنّ الله عزّ وجلّ لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أنّ جمع المال خير لهم؟ أو زعمت أنّ الله تعالى لم يعلم

(١) حديث: النهي عن جمع المال. أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود «ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين. . . الحديث» ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث «لا تجمعوا ما لا تأكلون» وكلاهما ضعيف.

أن الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل لذلك رغبت في الإستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون؟ تدبر بعقلك ما دهاك به الشيطان حين زين لك الإحتجاج بمال الصحابة! ويحك ما ينفعك الإحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتاً؟

وقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك! فقال كعب: سبحان الله! وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأنفق طيباً وترك طيباً! وبلغ أبا ذرّ فخرج مغضباً يريد كعباً فمر بعظم لحي بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعباً، فقيل لكعب. إن أبا ذرّ يطلبك فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر، وأقبل أبو ذرّ يقص الأثر في طلب كعب حتى انتهى الى دار عثمان، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذرّ: فقال له أبو ذرّ: هيه يا ابن اليهودية! تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف، ولقد خرج رسول الله ﷺ يوماً نحو أحد وأنا معه فقال: «يا أبا ذرّ» فقلت: لبيك يا رسول الله فقال: «الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدّامه وخلفه وقليل ما هم» ثم قال: «يا أبا ذرّ» قلت: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: «ما يسرني أن لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين» قلت أو قنطارين يا رسول الله؟ قال: «بل قيراطين» ثم قال: «يا أبا ذرّ أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل[1]» فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف؟ كذبت وكذب من قال! فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج.

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضي الله عنها: ما هذا؟ قيل عير قدمت لعبد الرحمن، قالت: صدق الله ورسوله ﷺ، فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً، ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم حبواً[2]» فقال عبد الرحمن: إن العير وما عليها في سبيل الله، وإن أرقاءها أحراراً لعلى أدخلها معهم سعياً.

وبلغنا أن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن عوف: «أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت أن تدخلها إلا حبواً[3]».

ويحك أيها المفتون، فما احتاج بالمال وهذا عبد الرحمن في فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الأموال في سبيل الله مع صحبته لرسول الله ﷺ وبشراه بالجنة[4] أيضاً يوقف في عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه

---

(١) حديث أبي ذر «الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا... الحديث» متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف: كسب طيباً وترك طيباً. وإنكار أبي ذر عليه؛ فلم أقف على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف، وقد رواها أحمد وأبو يعلي أخصر من هذا ولفظ كعب: إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لي ذهباً... الحديث. وفيه ابن لهيعة.

(٢) حديث عائشة «رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً... الحديث» في أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصراً في كون عبد الرحمن يدخل حبواً دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين، وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه.

(٣) حديث: أنه قال «أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت تدخلها إلا حبواً» أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف «يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً» وقال صحيح الإسناد قلت: بل ضعيف فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور.

(٤) حديث: بشر النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف بالجنة. أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه «أبو بكر في الجنة... الحديث» وفيه «وعبد الرحمن بن عوف في الجنة» وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخاري والترمذي وهذا أصح.

من حلال للتعفف ولصنائع المعروف، وأنفق منه قصداً، وأعطى في سبيل الله مسحاً، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو في آثارهم حبواً؟ فما ظنك بأمثالنا في فتن الدنيا؟ وبعد: فالعجب كل العجب لك يا مفتون تتمرّغ في تخاليط الشبهات والسحت، وتتكالب على أوساخ الناس، وتتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة، وتتقلب في فتن الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم؟ ويحك وإن هذا من قياس إبليس ومن فتياه لأوليائه! وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائحك وفضل الصحابة. ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله، فكسبوا حلالاً وأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً، وقدموا فضلاً، ولم يمنعوا منها حقاً، ولم يبخلوا بها، لكنهم جادوا الله بأكثرها، وجاد بعضهم بجميعها، وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيراً، فبالله أكذلك أنت؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم.

وبعد: فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله في أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله مسرورين، وفي البلاء راضين، وفي الرخاء شاكرين، وفي الضراء صابرين، وفي السراء حامدين» وكانوا لله متواضعين، وعن حب العار والتكاثر ورعين. لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهرتها. فبالله أكذلك أنت؟.

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته من الله، وإذ رأوا الفقر مقبلاً قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيباً حزيناً، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحا مسروراً، فقيل له: إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا، إذا كان عندهم شيء فرحوا، وأنت لست كذلك! قال: إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت إذ كان لي برسول الله ﷺ أسوة، وإذا كان عند عيالي شيء إغتممت إذ لم يكن لي بآل محمد أسوة. وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا: مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا: الآن تعاهدنا ربنا. فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا. فبالله أكذلك أنت؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم.

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضداً لأحوالهم، وذلك أنك تطغى عند الغني، وتبطر عند الرخاء، وتمرح عند السراء، وتغفل عن شكر ذي النعماء، وتقنط عند الضراء، وتسخط عند البلاء، ولا ترضى بالقضاء. نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة؛ وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم. وأنت تدّخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر وذلك من سوء الظنّ بالله عزّ وجلّ وقلة اليقين بضمانه، وكفى به إثما، وعساك تجمع المال لنعيم الدينا وزهرتها وشهواتها ولذاتها. ولقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم فربت عليهم أجسامهم[1]» وبلغنا أنّ بعض أهل العلم قال: ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيا لها حسرة ومصيبة! نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزنية في الدنيا، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو نعم وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله، فأنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره، وأنت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا؛ وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة شهر. وقيل سنة.» وأنت تأسف على ما فاتك غير

(١) حديث «شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم... الحديث» تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه «من أسف على دنيا فاتتة اقترب من النار مسيرة سنة».

مكترث بقربك من عذاب الله. نعم ولعلك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سروراً بها، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه[1]» وبلغنا أنّ بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا، وتحاسب بفرحك في الدينا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى، وعساك تعني بأمور دنياك أضعاف ما تعني بأمور آخرتك، وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك، ونعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب، وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا، وعساك ترضي المخلوقين مساخطاً لله تعالى كيما تكرم وتعظم. ويحك! فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك، وعساك تخفي من المخلوقين مساويك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس، فكأن العبيد أعلى عندك قدراً من الله، تعالى الله عن جهلك! فكيف تنطق عند ذوي الألباب وهذه المثالب فيك؟ أف لك! متلوثاً بالأقذار وتحتج بمال الأبرار؟ هيهات هيهات ما أبعدك عن السلف الأخيار، والله لقد بلغني أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرّم عليكم، إن الذي لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم، وكانوا للزلة الصغيرة أشدّ استعظاماً منكم لكبائر المعاصي، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم؟ وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل؟ ليت صومك على مثال إفطارهم؟ وليت اجتهادك في العبادة مثل فتورهم ونومهم؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم. وقد بلغني عن بعض الصحابة أنه قال: غنيمة الصدّيقين ما فاتهم من الدنيا ونهمتهم ما زوي عنهم منها، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة، فسبحان الله! كم بين الفريقين من التفاوت؟ فريق خيار الصحابة في العلو عند الله وفريق أمثالكم في السفالة، أو يعفو الله الكريم بفضله.

وبعد: فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك، ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما أحتاطوا، لقد بلغني أن بعض الصحابة قال: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام، أفتطمع من نفسك في مثل هذا الإحتياط ؟ لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك! ويحك! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام[2]» أيها المغرور، أما علمت أنّ خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات، وبذلها في سبيل الله وسبيل البر؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال: لأن تدع درهماً واحداً مخافة أن يكون حلالاً خير لك من أن تتصدّق بألف دينار من شبهة لا تدري أيحل لك أم لا ؟ فإن زعمت أنك أتقي وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله! ويحك! إن كنت كما زعمت بالغاً في الورع فلا تتعرّض للحساب، فإن خيار الصحابة خافوا المسألة، وبلغنا أن بعض الصحابة قال: ما سرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجمعة، قالوا: ولم ذاك رحمك الله؟ قال: لأني غني عن مقام يوم القيامة فيقول عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت؟ فهؤلاء المتقون كانوا في جدّة الإسلام والحلال موجود لديهم، تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره،

---

(1) حديث «من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه» لم أجده إلا بلاغاً للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه.

(2) حديث «من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام» متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث.

وأنت بغاية الأمن والحلال في دهرك مفقود. تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال، ويحك! أين الحلال فتجمعه.

وبعد: فلو كان الحلال موجوداً لديك أما تخاف أن يتغير عند الغني قلبك، وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه؟ أفتطمع أن يكون قلبك أنقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الخلق في أمرك وأحوالك؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء، ويحك! إني لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تتعرض للحساب، فإنه بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من نوقش الحساب عذب[1]» وقال عليه السلام: «يؤتى برجل يوم القيامة وقد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حرام فيقال إذهبوا به إلى النار، ويؤتى برجل قد جمع مالاً من حلال وأنفقه في حرام فيقال إذهبوا به إلى النار، ويؤتى برجل قد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حلال فيقال إذهبوا به إلى النار، ويؤتى برجل قد جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلال فيقال له: قف لعلك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها، وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول: لا يا رب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئاً فرضت علي، فيقال: لعلك إختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول: لا يا رب لم أختل ولم أباه في شيء، فيقال: لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقول: لا يا رب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئاً مما فرضت علي ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حق أحد أمرتني أن أعطيه، قال: فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون؛ يا رب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا، فإن كان أعطاهم وما ضيع من ذلك شيئاً من الفرائض ولم يختل في شيء فيقال: قف، الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسئل[2]» ويحك فيمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها، حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدنيا وتخاليطها وشبانها وشهواتها وزينتها؟ ويحك، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال، فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى، ولم تجمع المال إلا من حلال ـ بزعمك ـ للتعفف والبذل في سبيل الله، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلا بحق، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله، ولم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلانيتك ويحك فإن كنت كذلك، ولست كذلك، فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوي الأموال إذا وقفوا لسؤال وتسق مع الرعيل الأول في زمرة المصطفى، لا حبس عليك للمسألة والحساب، فإما سلامة وإما عطب. فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام[3]» وقال عليه السلام: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتي أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتم فيما أعطيتكم[4]».

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال. ما سرني أن لي حمر النعم وأكون في الرعيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه. يا قوم فاستبقوا السباق مع المخفين في زمرة المرسلين عليهم السلام، وكونوا وجلين من

---

(١) حديث «من نوقش الحساب عذب» متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم.

(٢) حديث «يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حرام فيقال إذهبوا به إلى النار... الحديث» بطوله لم أقف له على أصل.

(٣) حديث «يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام» أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ «فقراء» مكان «صعاليك» ولهما وللنسائي في الكبرى من حديث أبي هريرة «يدخل الفقراء الجنة... الحديث» ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خريفاً».

(٤) حديث «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون... الحديث» لم أر له أصلاً.

التخلف والإنقطاع عن رسول الله ﷺ وجل المتقين. لقد بلغني أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضي الله عنه عطش فاستسقى فأتي بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خنقته العبرة ثم بكى وأبكى، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد في البكاء، فلما أكثر البكاء قيل له: أكل هذا من أجل هذه الشربة؟ قال: نعم، بينما أنا ذات يوم عند رسول الله ﷺ وما معه أحد في البيت غيري، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول: «إليك عني!» فقلت له. فداك أبي وأمي ما أرى بين يديك أحداً فمن تخاطب؟ فقال: هذه الدنيا تطاولت إلي بعنقها ورأسها فقالت لي. يا محمد خذني، فقلت. إليك عني، فقالت. إن تنج مني يا محمد فإنه لا ينجو مني من بعدك» فأخاف أن تكون هذه قد لحقتني تقطعني عن رسول الله ﷺ[1]» يا قوم فهؤلاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله ﷺ شربة من حلال! ويحك أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع؟ أف لك ما أعظم جهلك! ويحك فإن تخلفت في القيامة عن رسول الله ﷺ محمد المصطفى لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء، ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير، ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل؛ ولئن رضيت بأحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتنعمين، ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين في أهوال يوم الدين. فتدبر ويحك ما سمعت وبعد. فإن زعمت أنك في مثال خيار السلف، قانع بالقليل، زاهد في الحلال، بذول لمالك، مؤثر على نفسك، لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئاً لغدك، مبغض للتكاثر والغنى، راضٍ بالفقر والبلاء، فرح بالقلة والمسكنة، مسرور بالذل والضعة، كاره للعلو والرفعة قوي في أمرك لا يتغير عن الرشد قلبك، قد حاسبت نفسك في الله، وحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ولن توقف في المسألة، ولن يحاسب مثلك من المتقين. وإنما تجمع المال الحلال للبذل في سبيل الله، ويحك أيها المغرور فتدبر الأمر وأمعن النظر! أما علمت أن ترك الإشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والإعتبار. أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأحزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله أضعافاً. بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال. لو أن رجلاً في حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان الذاكر أفضل. وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه أبرّ به. وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين، أحدهما. طلب الدنيا حلالاً فأصابها، فوصل بها رحمه وقدم لنفسه. وأما الآخر. فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها، فأيهما أفضل؟ قال: بعيد والله ما بينهما الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها. ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها، ولك في العاجل إن تركت الإستغال بالمال، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأقل لهمومك، فما عذرك في جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر؟ نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل في الآجل.

وبعد. فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا. ويحك! تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانبة الدنيا، فسر مع لواء المصطفى سابقاً إلى جنة المأوى. فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء، وإذا استقرض لم يجد قرضاً، وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه، ولم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه، يمسي مع ذلك ويصبح راضياً عن ربه ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[2] ألا يا أخي متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك

---

(١) حديث: إن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل... الحديث. في دفع النبي ﷺ الدنيا عن نفسه وقوله «إليك عني... الحديث» أخرجه البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال: كنا عند أبي بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل... الحديث. قال الحاكم صحيح الإسناد، قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا الكتاب.

(٢) حديث «سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء... الحديث» عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن

مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه، لا! ولكنك خوفاً من الفقر تجمعه، وللنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال: ويحك راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور. ويحك إن كنت مفتوناً بحب المال والدنيا فكن مقرّاً أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول، نعم وكن عند جمع المال مزرياً على نفسك معترفاً بإساءتك وجلا من الحساب، فذلك أنجى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال. إخواني اعلموا أن دهر الصحابة كان الحال فيه موجوداً وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم في المباح لهم، ونحن في دهر الحلال فيه مفقوداً، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة. فأما جمع المال في هدرنا فأعاذنا الله وإياكم منه.

وبعد: فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم؟ وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم؟ دهينا ورب السماء بإدواء النفوس وأهوائها، وعن قريب يكون الـورود، فيا سعادة المخفين يوم النشور وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط، وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل. وفقنا الله وإياكم فكل خير برحمته آمين. هذا آخر كلامه وفيه كفاية في اظهارها فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه. ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا، وفي كتاب الفقر والزهد.

ويشهد له أيضاً ما روي عن أبي أمامة الباهلي: أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله إدع الله أن يرزقني مالاً، قال: «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: يا رسول الله إدع الله أن يرزقني مالاً، قال: «يا ثعلبة أمالك في أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى؟ أما والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت» قال: والذي بعثك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، ولأفعلن ولأفعلن، قال رسول الله ﷺ: «اللهم أرزق ثعلبة مالاً» فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ويدع ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وطفق يلقي الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة، وسأل رسول الله ﷺ عنه فقال: «ما فعل ثعلبة بن حاطب؟» فقيل: يا رسول الله إتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة؛ وأخبر بأمره كله، فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» وقال وأنزل الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم على الصدقة، وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا من المسلمين: وقال: «مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان - رجل من بني سليم - وخذا صدقاتهما» فخرجا حتى اتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية! إنطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلي فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها؛ فلما رأوها قالوا: لا يجب عليك ذلك وما نريد نأخذ هذا منك، قال بلى خذوها، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: هذه أخت الجزية! إنطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلماه ودعا للسليمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبه وبالذي صنع السليمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال: لا أم لك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي

= أبي هريرة مختصراً بلفظ «سادة الفقراء في الجنة. . . الحديث» ولم أره في معاجم الطبراني.

ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثو التراب على رأسه فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك أمرتك فلم تطعني» فلما أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان[1] فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث، ولأجل بركة الفقر وشؤم الغني آثر رسول الله ﷺ الفقر لنفسه ولأهل بيته، حتى روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال: كانت لي من رسول الله منزلة وجاء فقال : «يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟» فقلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال، فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال: «السلام عليكم أأدخل؟» فقالت: أدخل يا رسول الله قال أنا ومن معي؟» قالت ومن معك يا رسول الله؟ فقال عمران بن حصين» فقالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما على إلا عباءة! فقال، أصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي فقد واريته، فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «شدّي بها على رأسك» ثم أذنت له فدخل، فقال: «السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت؟» قالت: أصبحت والله وجهة وزادني وجعاً على مابي أني لست أقدر على طعام آكله، فقد أجهدني الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاثة، وإني لأكرم على الله منك ولو سألت ربي لأطعمني، ولكني آثرت الأخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: «أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة» فقالت: فأين آسية إمرأة فرعون ومريم إبنة عمران؟ فقال: «آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وخديجة سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب» ثم قال لها: «إقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً في الدنيا سيداً في الآخرة[2]» فانظر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها وهي بضعة من رسول الله ﷺ كيف آثرت الفقر وتركت المال.؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم؛ لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات؛ إذ أقل ما فيه من إداء الحقوق والتوقي من الشبهات والصرف إلى الخيرات إشتغال الهم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ، ولا فراغ مع شغل المال.

وقد روي عن جرير عن ليث قال: صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام فقال: أكون معك وأصحابك، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، قال: فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها، قال: فدعا أحدهما فأتاه، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل، ثم قال للخشف: قم بإذن الله فقام فذهب، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، ثم انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء، فلما جاوزا قال له أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال لا أدري، فانتهيا إلى مفازة فجلسا، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً ثم قال كن ذهباً بإذن الله تعالى، فصار ذهباً، فقسمه ثلاثة أثلاث ثم قال ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف، فقال أنا الذي أخذت الرغيف، فقال كله لك،

---

(١) حديث أبي أمامة: أن ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً قال «يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه... الحديث بطوله» أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

(٢) حديث عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاء فقال: «فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ... الحديث بطوله وفيه «لقد زوجتك سيداً في الدنيا وسيداً في الآخرة» لم أجده من حديث عمران، ولأحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار: وضأت النبي ﷺ ذات يوم فقال «هل لك في فاطمة تعودها... الحديث» وفيه «أما ترضين إن زوجتك أقدم أمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً وإسناده صحيح.

وفارقه عيسى عليه السلام، فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه، فقال هو بينا أثلاثاً، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله، قال فبعثوا أحدهم فقال الذي بعث لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال؟ لكني أضع في هذا الطعام سمّاً فأقتلهما وآخذ المال وحدي، قال ففعل، وقال ذانك الرجلان لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا، قال فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى، فمرّ بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه هذه الدنيا فاحذروها.

وحكي أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبوراً، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قيض لهم في ذلك معايش من نبات الأرض، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له اجب ذو القرنين، فقال مالي إليه حاجة، فإن كان له حاجة فيأتني! فقال ذو القرنين صدق. فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأتيني فأبيت، فها أنا قد جئت، فقال لو كان لي إليك حاجة لأتيتك، فقال له ذو القرنين مالي أراكم على حالة لم أر أحداً من الأمم عليها؟ قال وما ذاك؟ قال ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما؟ قالوا إنما كرهناهما لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه. فقال ما بالكم قد احتفرتم قبوراً فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها؟ قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل. قال وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها؟ قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها ورأينا في نبات الأرض بلاغاً وإنما يكفي ابن أدنى العيش من الطعام وإيما ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام؟ ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة؛ فقال: ياذا القرنين أتدري من هذا؟ قال: لا؛ ومن هو؟ قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا؛ فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى؛ وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته. ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال: ياذا القرنين هل تدري من هذا؟ قال: لا أدري ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعده؛ قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر؛ فتواضع وخشع لله عزّ وجلّ وأمر بالعدل في أهل مملكته؛ فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله، حتى يجزيه به في آخرته. ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال. وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع؟ فقال له ذو القرنين: هل لك في صحبتي فاتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني الله في هذا المال؟ قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً، قال ذو القرنين: ولم؟ قال: من أجل أن الناس كلهم لك عدّو ولي صديق، قال:) ولَمِ؟ قال: يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا! ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء، قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به، فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدّمناه من قبل وبالله التوفيق.

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب، المطلع على سرائر القلوب، المتجاوز عن كبائر الذنوب، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات، الذي لا يقبلُ من الأعمال إلا ما كمل ووفي، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا، فإنه المنفرد بالملكوت، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك. والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك، وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: «إنّ أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء[1]» ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلاً عن عامة العباد والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها. وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة. فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم؛ فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى إطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركه دعائه، وحرصوا على إتباع رأيه فاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات، وقدموه في المجالس وآثروه بالطعام والملابس، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال، وقد أثبتت أسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقرّبين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقرّبون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة.

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه، ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين؛ الشطر

كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث «إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية» أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا «الشرك» بدل «الرياء» وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد، قلت بل ضعيفة وهو عند ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف.

الأول: في حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول، وبيان ذم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوباً أشدّ من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم. وبيان العلاج في حب الجاه وبيان علاج حب المدح، وبيان علاج كراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم. فهي إثنا عشر فصلاً منها تنشأ معاني الرياء، فلا بدّ من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه.

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

إعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم، بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه. قال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «حسب امرىء من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله[1]» وقال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[2]» ولكن ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلاً، ولا بأس به، إذ روى هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد إن الناس إذ رأوك أشاروا إليك بالأصابع، فقال: إنه لم يعن هذا وإنما عنى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه وقال علي كرّم الله وجهه: تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم ابن أدهم رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه. وعن خالد بن معدان. أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة. وعن أبي العالية. أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام. ورأى طلحة قوماً يمشون معه نحواً من عشرة، فقال: ذباب طمع وفراش نار. وقال سليم بن حنظلة: بينما نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرّة. فقال أنظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم فقال: علام تتبعوني فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان؟ وقال الحسن: إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى. وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن. وروى أن رجلاً صحب ابن محيريز في سفر فلما فارقه قال: أوصني، فقال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشى إليك وتسأل ولا تسئل فافعل. وخرج أيوب في سفر فشيعه ناس كثيرون فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عزّ وجلّ. وقال معمر: عاتبت أيوب على طول قميصه فقال. إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره. وقال بعضهم: كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسيَة فقال: إياكم وهذا الحمار الناهق! يشير به إلى طلب الشهرة. وقال الثوري: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً. وقال رجل لبشر بن الحارث. أوصني، فقال أخمل ذكرك وطيب مطعمك. وكان حوشب يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع. وقال بشر: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح. وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس. رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) حديث أنس «حسب امرىء من الشر إلا من عصمة أن يشير الناس إليه بالاصابع في دينه ودنياه» أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٢) حديث جابر «بحسب امرىء من الشر... الحديث» مثله وزاد في آخره «إن الله لا ينظر إلى صوركم... الحديث» هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصراً على الزيادة التي في آخره، وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ «كفى بالمرء إثما» ورواه ابن يونس في تاريخ الغرباء من حديث ابن عمران بلفظ «هلاك بالرجل» وفسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق وإسنادهما ضعيف.

بيان فضيلة الخمول

قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره[1] منهم البراء بن مالك» وقال ابن مسعود؛ قال النبي ﷺ: «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً[2]» وقال ﷺ: «ألا أدلكم على أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبرّه وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ[3]» وقال أبو هريرة: قال ﷺ: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتخلل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم» وقال ﷺ: «إن من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إياه ولو سأله درهماً لم يعطه إياه ولو سأله فلساً لم يعطه إياه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها، وما منعها إياه إلا لهوانها عليه، رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره[4]» وروي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال ما يبكيك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة[5]»

وقال محمد بن سويد: قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي ﷺ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال: يا رب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة! فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رَبِّ إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم، وسكن، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال إني أتيتك في حاجة! فقال ما هي؟ قال تخصني بدعوة، قال: سبحان الله! أنت أنت تسألني أن أخصك بدعوة؟ ثم قال ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني. وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض. وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: «يقول تعالى. إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر كان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك» قال: ثم نقر رسول الله ﷺ بيده فقال: «عجلت منينه وقل تراثه وقلت بواكيه[6]» وقال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما. أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء، قال: الفارّون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده؛ (

---

(١) حديث «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» وللحاكم «رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره» وقال صحيح الإسناد ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس ضعيف «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك» وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفة.

(٢) حديث ابن مسعود «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً» أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.

(٣) حديث «ألا أدلكم على أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف. . . الحديث» متفق عليه من حديث حارثة بن وهب

(٤) حديث « إن من أمتي من لو أتى أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه. . . الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله «ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه إلا لهوانها عليه».

(٥) حديث معاذ بن جبل «إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء. . . الحديث» أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد، قلت بل ضعيفة فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقي متروك.

(٦) حديث أبي أمامة «إن أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ. . . الحديث» أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسنادين ضعيفين.

ألم أنعم عليك! ألم أسترك! ألم أخمل ذكرك!) وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك. وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء. وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرّت عيني يوماً في الدنيا قط إلا مرة، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن، فجرّني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد. وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف وما عليك أن لا يثني عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

فإن قلت: فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء! فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك.

بيان ذم الجاه ومعناه

قال الله تعالى ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً. وقال عزّ وجلّ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها. وقال رسول الله ﷺ: «حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[1]» وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأسرع إفساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم[2]» وقال ﷺ لعلي كرّم الله وجهه: «إنما هلاك الناس بإتباع الهوى وحب الثناء[3]» نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه.

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا. ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها. وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه. وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والإعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال أنقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد

---

(١) حديث «المال والجاه ينبتان النفاق... الحديث» تقدم في أول هذا الباب ولم أجده.

(٢) حديث «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم... الحديث» تقدم أيضاً هناك.

(٣) حديث «إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء» لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع... الحديث» ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف «حب الثناء من الناس يعمي ويصم».

القلب وبحسب درجه ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويذعن قلبه للموصوف بها انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب. وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم، لأن المالك يملك العبد قهر أو العبد متأب بطبعه، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً يبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير. فإذاً معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده، فيثنى عليه، وكالخدمة والإعانه فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب ومعنى قيام الجاه في القلب إشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محلة في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه والله تعالى أعلم.

بيان سبب كون الجاه محبوباً

اعلم أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون أحب من المال، كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانها إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس، وإنما هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه، فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض، فالإشتراك في السبب إقتضى الإشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال إقتضى أن يكون الجاه أحب من المال، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه.

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصيل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له، فإذاً الجاه آلة ووسيلة إلى المال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن، ويتطرق إليه أخطار كثيرة، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب، وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ، وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها، والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها. نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال

وتغيير الإعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله.

الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمي ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر. لأن ذلك إذا استطار في الأقطار إقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظم، فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين، وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة، والجاه أبداً في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء إستحقرت الأموال في مقابلته، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال. وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح.

فإن قلت فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه. نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلي بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه، فحبه المال والجاه معلوم، إذ كل مالا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا يبتغي لهما ثالثاً، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه؛ ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الإلتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع، ويكاد يظن أن ذلك جهل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ فنقول: نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب. وله سببان؟ أحدهما: جلي تدركه الكافة. والآخر: خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن إفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون.

فأما السبب الأول: فهو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أنّ المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جانحة، فهو أبداً لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدّر طول الحياة؛ ويقدر هجوم الحاجات؛ ويقدّر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال[1]» ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الإستعانة بهم؛ ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

وأما السبب الثاني وهو الأقوى: لأن الروح أمر رباني، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ أو معنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذا لم

---

(١) حديث «منهومان لا يشبعان. . . الحديث» أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبزار والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم.

يظهره رسول الله ﷺ[1] ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أنّ للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء؛ وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الإستعلاء، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرّد بالوجود على سبيل الاستقلال. فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوباً بالطبع للإنسان، والكمال بالتفرّد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً في حقها، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، فلم يكن موجوداً معه لأن المعية توجب المساواة في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال، بل الكامل من لا نظير له في رتبته. وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الإستغناء عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً ولا يكون متبعاً فإذن معنى الربوبية التفرّد بالوجود وهو الكمال. وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ولكنه ليس يجد له مجالاً وهو كما قال، فإن العبودية قهرٌ على النفس. والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي أومأ إليها قوله تعالى ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته؛ ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته. وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرّد بالوجود في الإستيلاء على كل الموجودات؛ فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك فإن تكون مستولياً عليه، فصار الإستيلاء على الكل محبوباً بالطبع، لأنه نوع كمال. وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به، إلا أن الإستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء، فأحب الانسان أن يكون له إستيلاء على كل الأشياء الموجودة معه. إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته. وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق، كالأملاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين؛ وكالجبال والبحار. وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات.

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات، أحب الإنسان أن يستولي على السموات بالعلم والإحاطة والإطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم، والعالم كالمستولي عليه، فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب. وجميع عجائب السموات، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال. وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها، كمن يعجز عن وضع الشطرنج، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع؟ وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جرّ الثقيل أو غيره وهو مستشرق في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه.

---

(١) حديث «أنه ﷺ لم يظهر سر الروح أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

وأما القسم الثاني: وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان: أجساد وأرواح.

(أما الأجساد) فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيحب أن يكون قادراً عليها يفعل فيها ما شاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فإن ذلك قدرة والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع، فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالإستسخار، وإن لم يملك قلوبهم، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوباً لها ويقوم القهر منزلته فيها، فإن الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة.

(القسم الثاني) نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية، والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان، وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه فإذن معنى الجاه تسخير القلوب، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها، والقدرة والإستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية. فإذن محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدره، والمال والجاه من أسباب القدرة، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقى معلوم، أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول. ولذلك قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان» فإذن مطلوب القلوب الكمال، والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوباً بالطبع، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى.

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرّد بالوجود إلا في العلم والقدره، ولكن الكمال الحقيقي فيه متلبس بالكمال الوهمي، وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه: (أحدها) من حيث كثرة المعلومات وسعتها، فإنه محيط بجميع المعلومات، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى (الثاني) من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به، وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى (الثالث) من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول، فإن علم الله تعالى باقٍ لا يتصور أن يتغير، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والإنقلاب كان أقرب إلى الله تعالى.

والمعلومات قسمان: متغيرات وأزليات.

أما المتغيرات: فمثالها العلم بكون زيد في الدار، فإنه علم له معلوم، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من

الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلاً، فيكون نقصاناً لا كمالاً، فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً، ويعود علمك جهلاً. ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم، كعلمك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض، وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب.

القسم الثاني: هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أزلية أبدية، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً. فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له، وما يستحيل في صفاته، ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت، وتكون هذه المعرفة نور للعارفين بعد الموت ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور الخفي على سبيل الإستتمام، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل ﴿كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾ فإذن لا سعادة إلا في معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما، ومنها ما له منفعة في الإعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى. ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، فهي من تكملة معرفة الله تعالى، وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد، بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله ـ كما قرّرناه في كتاب الصبر والشكر، وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات ـ فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامه أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للإدراك، فإن هذه القوة آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن، وذلك إلى قدر معلوم، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب، ومن ظن ذلك كمالاً فقد جهل، فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه؛ كمال، فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به

وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية (أما العلم) فما ذكرناه من معرفة الله تعالى (وأما الحرّية) فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والإستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة الذي لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال لله تعالى إستحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب بالملائكة أشبه، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان، فإنّ التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها، والهلاك نقص في اللذات وفي صفات الكمال.

فإذن الكمالات ثلاثة ـ إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الإنقياد لها) كمالاً ككمال العلم وكمال الحرية؛وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية ـ وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت، ومعرفته وحرّيته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالاً فيه ووسيله إلى القرب من الله تعالى. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم إنكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال، وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له، وهؤلاءهم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً في النفس، والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ الآية وقال تعالى ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ إلى قوله ﴿فأصبح هشيمًا تذروه الرياح﴾ وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل مالا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات. فقد عرفت بهذا أن كمال القدره بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل، وإليه أشار أبو الطيب بقوله:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل: الفقر

إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقي اللهم إجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك.

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب والقدره عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بدّ من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال، فلا فرق بينهما إلا أنّ

التحقيق في هذا يفضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطّر إليه لقضاء حاجته، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء، فهذا على التحقيق ليس محباً لبيت الماء فلك ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه. وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أنّ الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام، ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها؛ فهذا هو الحب دون الأوّل، وكذلك الجاه والمال. وقد يحب كل واحد منها على هذين الوجهين، فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية. وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة، فإنّ التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي.

فإن قلت: طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان؛ أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة أوجه؛ وجهان مباحان، ووجه محظور.

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها، مثل العلم والورع والنسب، فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك، فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس أما بالقول أو بالمعاملة.

أما أحد المباحين: فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف ﷺ فيما أخبر عنه الرب تعالى (إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فإنه طلب المنزلة فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليًما، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه (والثاني) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا أيضاً مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح. وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى إليه أنه ورع، فإن قوله: إني ورع، تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب إعتقاده الورع بل يمنع العلم بالشرب

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله، فكيف يكون مخلصاً؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

السبب الأوّل: وهو الأقوى: شعور النفس بالكمال فإنا بيّنا أن الكمال محبوب، وكل محبوب

فإدراكه لذيذ. فمهما شعرت النفس بكمالها إرتاحت واعتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه، فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به أقل، ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته. فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق، فإن الإنسان ربما يكون شاكاً في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذاته، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه في غاية اللذة، وإن صدر ممن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيراً بذلك الوصف ضعفت اللذة، وبهذه العلة يبغض الذم أيضاً ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت الشعور به مؤلم، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر، ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدره قاصرة، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم.

السبب الثالث: أن ثناء ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذ كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس.

السبب الرابع: أن المدح يدل على حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلى أطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد.

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الإلتذاذ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها. أما العلة الأولى وهي استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك، فتزول اللذة التي سببها إستشعار الكمال وتبقى لذة الإستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لذة لفوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة إلتذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم. وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض. والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى.

بيان علاج حب الجاه

إعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين وقال عليه السلام: «إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» إذا النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خالٍ عنها، وذلك هو عين النفاق.

فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال؛ وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وقد بينا أنّ ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا إنقطاع لها، ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي - كما سبق - صغر الجاه في عينه، إلا أنّ ذلك إنما يصغر في عين من ينظر ألى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز (أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات) فانظر كيف مدّ نظره نحو المستقبل وقدره كائناً. وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه (أما بعد: فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل) فهؤلاء كان إلتفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وإبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة﴾ فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الذم أم على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشدّ تغيراً من القدر في غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له، والإشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه، فلا يفي في الدنيا مرجوّها بمخوفها فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة. وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا، فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما من حيث العمل: فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق. وهذا هو مذهب الملامتية؛ إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه، وهذا غير جائز لمن يقتدي به فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس؛ كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه

وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني. ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس. وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلا أنّ أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير، كما فعل بعضهم، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا: إنه طرّار وهجروه وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول، فإنّ المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت، وربما توصلت إلى الإعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، ويتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإنّ فتنة الجاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمن استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن، ولا يتم الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع. ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة. وينظر في أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

إعلم أنّ أكبر النّاس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصار حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم.

أما السبب الأول: فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيمًا تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشدّ الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه إنتقالاً

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها. وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باقٍ ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح، فإن اللذة في استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح

بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلاً وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خالٍ عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه وما أطيب الروائح التي تفوح منه؟ إذا قضى حاجته، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك ـ كان ذلك من غاية الجهل؛ فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

وأما السبب الثاني: وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب آخر، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب ـ وقد سبق وجه معالجته، وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله! فكيف تفرح به؟

وأما السبب الثالث: وهو الحشمة التي اضطرّت المادح إلى المدح، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لإثبات لها ولا تستحق الفرح، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ـ كما نقل ذلك عن السلف ـ لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ـ كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان ـ قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه. وقال بعضهم: إذا قيل لك: نعم الرجل أنت، فكان أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل. وروي في بعض الأخبار ـ فإن صح فهو قاصم للظهور ـ أنّ رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ فقال: «لو كان صاحبك حاضراً فرضي الذي قلت فمات على ذلك دخل النار[1]» وقال ﷺ مرّة للمادح: «ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة[2]» وقال عليه السلام: «ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب[3]» فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم، فغضب وقال: إني لم آمرك بأن تزكيني وقيل لبعض الصحابة: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله، فغضب وقال: إني لأحسبك عراقياً. وقال بعضهم ـ لما مدح ـ اللهم إن عبدك تقرّب إلي بمقتك فأشهدك على مقته. وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق، لأن الممدوح هو المقرّب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق. ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه. والله الموفق للصواب برحمته.

بيان علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة في كراهة الذم هو ضدّ العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه. والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال.

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة؛ وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنت وإما أن يكون كاذباً.

---

(١) حديث: إن رجلاً أثنى على رجل خيراً فقال: «لو كان صاحبك حاضراً فرضي الذي قلت ومات على ذلك دخل النار» لم أجد له أصلاً.
(٢) حديث «ويحك قطعت ظهره. . . الحديث» قاله للمادح تقدم.
(٣) حديث «ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» تقدم دون قوله «ألا لا تمادحوا».

فإن كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وأذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة. فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لا تدري، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال قائل: أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك، فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة، وجميع مساوىء الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن يغتنمه. وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به؟

الحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، بل تنفكر في ثلاثة أمور (أحدها) أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه. (والثاني) إن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك. فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقرّبك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله. (وأما الثالث) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرّض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم إرحمه، كما قال ﷺ: «اللهم اغفر لقومي اللهم إهدِ قومي فإنهم لا يعلمون[1]» لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد. ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال: علمت أني مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي. ومما يهوّن عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

إعلم أنّ للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح:

الحالة الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية أن يمتعض في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه، ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

---

(١) حديث «اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» قاله لما ضربه قومه. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وقد تقدم والحديث في الصحيح أنه ﷺ قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه.

الحالة الثالثة: وهي أوّل درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره استثقالاً. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته. وعلاماته أن لا يجد في نفسه إستثقالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت المادح المطرى له أشدّ نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام. فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشدّه على القلوب! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام، والشيطان يحسن له ذلك ويقول: الذام قد عصى الله بمذمتك، والمادح قد أطاع الله بمدحك، فكيف تسوّي بينهما؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض. وهنا محض التلبيس، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره. ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه، والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره. فإذا العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بعداً من الله، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوّت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة، وفيهم قال الله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

الحالة الرابعة: وهي الصدق في العبادة؛ أن يكره المدح ويمقت المادح، إذا يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته. فقد قال ﷺ: «رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى[1]» وقد روى في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح، إذ روى أنه ﷺ قال: «ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا من. . .» فقيل يا رسول الله إلا من؟ فقال: «إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة[2]» وهذا شديد جداً، وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل؛ فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها. ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لا تفي بها، لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه، ولا نقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى، فيكف بما بعده من المرتبتين؟ وكل واحدة من هذه ألرتب أيضاً فيها درجات. أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيها درجات. أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائى بالعبادات، ولا يبالى بمفارقة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين. ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شرف جرف هار، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه

---

(١) حديث «رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث «ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف. . . الحديث» لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس «ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله» ولم يخرجه ولد في مسنده.

أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً. ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجر، فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح، فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه. ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغنم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص. ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين النفاق، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام، وأوّل درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن في قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو، والإنسان يفرح ممن يذم عدوّه، وهذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها، فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس، وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

الشطر الثاني من الكتاب: في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء: وفيه بيان ذم الرياء، وبيان حقيقة الرياء وما يرائى، وبيان درجات الرياء؛ وبيان الرياء الخفي؛ وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط؛ وبيان دواء الرياء وعلاجه؛ وبيان الرخصة في إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب؛ وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء الآفات، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق؛ وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها. وهي عشرة فصول وبالله التوفيق.

بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال مجاهدهم أهل الرياء. وقال تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾ فمدح المخلصين ينفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً[1] ﴾ نزل بعد ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله.

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ حين سأله رجل فقال: يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال: «أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس» وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة ـ المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء

(١) حديث: نزول قوله تعالى ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الآية فمن يطلب الآخرة بعباداته وأعماله. أخرجه الحاكم من حديث طاوس: قال رجل إنبي أقف الموقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية. هكذا في نسختي من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة، وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف «من صام رياء فقد أشرك... الحديث» وفيه: أنه ﷺ تلا هذه الآية.

لكتاب الله، كما أوردناه في كتاب الإخلاص ـ؛ وإن الله عزّ وجلّ يقول لكل واحد منهم: كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارىء. فأخبر ﷺ أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم[1] وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به[2]» وفي حديث آخر طويل: «إن الله تعالى يقول لملائكته إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين[3]» وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ «قال الرياء» يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: إذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء[4]» وقال ﷺ: «استعيذوا بالله عزّ وجلّ من جب الحزن» قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: «وادٍ في جهنم أعد للقراء المرائين[5]» وقال ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ: من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك[6]» وقال عيسى المسيح ﷺ: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتية لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق وقال نبينا ﷺ: «لا يقبل الله عزّ وجلّ عملاً فيه مثقال ذرة من رياء[7]» وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي ﷺ يقول: «إن أدنى الرياء شرك» وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية[8]» وهي أيضاً ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه وقال ﷺ: «إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله[9]» ولذلك ورد «أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفاً[10]» وقال ﷺ: «إن المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك إذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له[11]» وقال شدّاد بن أوس: رأيت النبي ﷺ يبكي فقلت ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراؤون بأعمالهم[12]» وقال ﷺ: «لما خلق الله الأرض مادت بأهلها فخلق

(١) حديث: أبي هريرة في الثلاثة: المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتابه فإن الله تعالى يقول لكل واحد منهم كذبت. رواه مسلم وسيأتي في كتاب الإخلاص.

(٢) حديث ابن عمر «من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به» متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ «من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره» وفي الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع إنه من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) حديث «إن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين» أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلاً ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٤) حديث «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر... الحديث» أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج.

(٥) حديث «استعيذوا بالله من جب الحزن» قيل وما هو؟ قال «واد في جهنم أعد للقراء المرائين» أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي.

(٦) حديث «يقول الله من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله... الحديث» أخرجه مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله «وأنا منه بريء» ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضاً وهي عند ابن ماجه بسند صحيح.

(٧) حديث «لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من رياء» لم أجده هكذا.

(٨) حديث «خوف ما أخاف عليكم الرياء... الحديث» تقدم في أول هذا الكتاب.

(٩) حديث «إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله» متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث «سبعة يظلهم الله في ظله».

(١٠) حديث: تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين، ضعفه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء، «إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً» قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف «يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة».

(١١) حديث «إن المرائي ينادي يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد «يا كافر يا خاسر» ولم يقل «يا مرائي» وإسناده ضعيف.

(١٢) حديث شداد بن أوس «إني تخوفت على أمتي الشرك... الحديث» أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريباً.

الجبال فصيرها أوتاداً للأرض، فقالت الملائكة: ما خلق ربنا خلقاً هو أشدّ من الجبال» فخلق الله الحديد فقطع الجبال، ثم خلق النار فأذابت الحديد، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار، وأمر الريح فكدرت الماء، فاختلفت الملائكة فقالت: نسأل الله تعالى؛ قالوا: يا رب ما أشدّ ما خلقت من خلقك؟ قال الله تعالى لم أخلق خلقاً هو أشدّ على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشدّ خلقاً خلقه[1]» وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت النبي ﷺ قال لي: «يا معاذ» قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: «إني محدّثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة، يا معاذ إنّ الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض، ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها قد جللها عظمًا فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى، له نور كنور الشمس، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة: أضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري» قال: «ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمرّ به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم» قال: «وتصعد الحفظة بعمل يبتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذاالعمل وجه صاحبه، أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرى له دوي من تسبيح وصلاة وحج وعمره حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أضربوا به ظهره وبطنه، أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به، أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أضربوا به جوارحه أقفلوا به على قلبه إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد بعمله غير الله تعالى، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصيتاً في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عزّ وجلّ فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله» قال: «فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم

---

(١) حديث «لما خلق الله الأرض مادت بأهلها... الحديث» وفيه «لم أخلق خلقاً هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله» أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب.

يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلهم: عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السماوات كلها: عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السماوات السبع والأرض ومن فيهن» قال معاذ: قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال: «إقتد بي وإن كان في عملك نقص، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تناج رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار قال الله تعالى (والناشطات نشطاً) أتدري من هن يا معاذ»؟ قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «كلاب في النار تنشط اللحم والعظم» قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: «يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه[1]» قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث.

وأما الآثار: فيروى أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته فقال: يا صاحب الرقبة أرفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك. وقال علي كرّم الله وجهه: للمرائي ثلاث علامات؛ يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذم. وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك... الحديث. وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر، فقال له: أتحب أن تمقت؟ قال: لا، قال: فإذا عملت لله عملاً فأخلصه، وقال الضحّاك. لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له. وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له: إقتص مني! فقال: لا بل أدعها لله ولك. فقال له عمر: ما صنعت شيئاً إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده، فقال: ودعتها لله وحده، فقال: فنعم إذن. وقال الحسن: لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة ويقال: إن المرائي ينادي يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي يا غادر يا خاسر يا فاجر إذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا. وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون. وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لا رياء فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء؟ فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه. وقال قتادة: إذا رأى العبد يقول الله تعالى أنظروا إلى عبدي يستهزىء بي. وقال مالك بن دينار الفرّاء: ثلاثة قرّاء الرحمن وقرّاء الدنيا وقرّاء الملوك، وأن محمد بن واسع من قرّاء الرحمن. وقال الفضل: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلي. وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار لأنّ السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان: التوقي عن العمل أشدّ من العمل. وقال ابن المبارك: إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان، فقيل له وكيف ذاك؟ قال يحب أن لا يذكر أنه مجاور بمكة. وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أراد أن يشتهر.

---

(١) حديث معاذ الطويل «إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها... الحديث بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء والله تعالى له بعد ذلك عزاء المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

بيان حقيقة الرياء وما يراءي به

إعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أنّ الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات. واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها فحدّ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو: البدن، والزي والقول، والعمل، والأتباع والأشياء الخارجة. وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة إلا أنّ طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات.

(القسم الأوّل) الرياء في الدين بالبدن: وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدّة الإجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الإجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرّغ لتسريح الشعر. وهذه الأسباب مهما ظهرت إستدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة. ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأنّ وقار الشرع هو الذي خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته. وعن هذا قال المسيح عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه. وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء؛ ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياماً مدهنين. فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن.

فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظامة البدن وقوّة الأعضاء وتناسبها.

(الثاني) الرياء بالهيئة والزي: أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوّف في الباطن. ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة. ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خالٍ عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم.

والمراءون بالزي على طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا، ولو كلف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كانّ السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا. وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيأته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خش أو وسخ لكان

عندهم كالذبح خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الديبقى والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم - لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زي أهل الدنيا. وكل طبقة منهم رأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الإنتقال إلى ما دونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحاً خيفة من المذمة.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشتدّ عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة.

(الثالث) الرياء بالقول: ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لأجل الإستعمال في المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدّة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس المعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أنّ الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوّته علم الدين. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

(الرابع) الرياء بالعمل: كمراءاة المصلي بطول القيام ومدّ الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الإلتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى إنّ المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرّجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدّد الخشوع له، بل هو لإطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً، فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياءً منه.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

(الخامس) المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين: كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين. وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقى شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد وخدمت الشيوخ؟ وما يجري مجراه فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة؟ وكم من عابد إعتزل إلى قلة جبل مدّة مديدة، وإنما خبأته من

حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرّد الجاه ـ فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه ـ فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه. ومنهم من يريد الإشتهار عن الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراؤون بالأسباب التي ذكرناها. فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال﴿إني حفيظ عليم﴾وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه، وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشدّ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز، نعم إنصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه ورسول الله ﷺ وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم، فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم. والدليل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة فكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم إنّ الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم[1]» نعم هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الإتباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه، فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم، فإنّ أعين عوام الخلق تمتدّ إلى الظواهر دون السرائر، فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان. ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

فإذن المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها. ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخي فهذا مراءاة وليس بحرام وكذلك أمثاله.

---

(١) حديث عائشة: أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره. . . الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل وقد تقدم في الطهارة.

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان إحداهما: أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيات، وهذا ليس بقصد العبادة، لا يقتصر، على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات.

والمعنى فيه أمران (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر. (والثاني) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزىء بالله. ولذلك قال قتادة: إذا رأى العبد قال الله لملائكته أنظروا إليه كيف يستهزىء بي.

ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقريب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته؟ وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله ﷺ الشرك الأصغر[1].

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض ـ كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ـ ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجهه، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله، فعن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم، ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا؟ فيكف في يوم لا يجزي والد عن ولد ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً بل تقول الأنبياء فيه نفسي نفسي؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس؟ فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص، ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت: إنه لا أجر له فيه أصلاً.

---

(١) حديث: سمي الرياء الشرك الأصغر. أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم قريباً وللحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس: كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر.

بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه. وأركانه ثلاثة: المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً:

(الأولى) وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرّد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى. وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولا خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء.

(الثانية) أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل، فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والإثم.

(الثالثة) أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين، بحيث لو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا إنبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو ان يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص.

(الرابعة) أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله ﷺ: «يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك» فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول وهو الأغلظ: الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات.

(الأولى) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عزّ وجلّ ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم وقال تعالى ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ وقال تعالى ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ وقال تعالى (يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً مذبذبين بين ذلك) والآيات فيهم كثيرة. وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام إبتداءً لغرض، وذلك مما يقل في زماننا، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلاً إلى قول الملحدة، أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار، وليس وراء هذا الرياء

رياء، وحال هؤلاء أشدّ حالاً من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

(الثانية) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضاً عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير. ومثاله: أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمه، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة ولكن خوفاً من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك. فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند إطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في محمدتهم أشدّ من رغبته في ثواب الله، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الإعتقاد.

(الثالثة) أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب، ثم يبعثه الرياء على فعلها، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت، وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الإثنين والخميس. فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض. فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله، فإن الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق. وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذمّ الخلق دون ذم الخالق، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها، وكأنه على شطر من الأوّل وعقابه نصف عقابه. فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضاً على ثلاثة درجات.

(الأولى) أن يرائى بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الإلتفات وتمم القعود بين السجدتين، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عزّ وجلّ؛ أي أنه ليس يبالي بإطلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة، ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديماً للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأدون الخلوة. وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيدّ خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة، فهذا أيضاً من الرياء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوّعات.

فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية؟ فيقال له: مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك على نفسك أكثر، وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها، فيديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض غلمانه إمتنع خوفاً من مذمة غلمانه؛ وذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان: إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً. والثانية: أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود، ولو خففت كانت صلاتي عندهم ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم، فاستفيد بتحسين الهيبة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر. والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص، فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق.

(الدرجة الثانية) أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود ومدّ القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الإعتدال والزيادة في القراءة على السور المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة. وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

(الثالثة) أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه. وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يـرائي به وبعضه أشدّ من بعض. والكل مذموم.

الركن الثالث: المرائي لأجلة، فإن للمرائي مقصوداً لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات:

(الأولى) وهي أشدّها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولي القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يظهر بعضهم زي التصوّف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام. وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلمًا إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمه عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى.

(الثانية) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة، وكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه إبنته. فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه.

(الثالثة) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين

النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو السهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الإحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن، ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الإحتقار لا بعين التوقير، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم إمتنع عن الأكل لأجله، أو يدعى إلى الطعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم، أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أن يعتذر رياء، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً؛ مثل أن يقول: إن فلاناً محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح عليَّ اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه. ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب مشفقة علي تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن. أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره، وقد يخطر له أنّ في إظهاره إقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور - وسيأتي شرح ذلك وشروطه.

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات وإن من شدّته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر، يزل فيه فحول العلماء فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أنّ الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه، وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر فأظهر عنه إطلاع الخلق أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالإطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً وغذاءً للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرّك على نفسه حركة خفية، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح، وقد يخفي فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً

ولكن بالشمائل، كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد، وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الإطلاع ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أو يبدءوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد ذلك استبعاداً في نفسه كأنه يتقاضى الإحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل[1] وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقد روي عن علي كرّم الله وجهه أنه قال: إن الله عزّ وجلّ يقول للقراء يوم القيامة، ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتدؤون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج. وفي الحديث: «لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم» وقال عبد الله بن المبارك. روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلاً من السوّاح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح ما هذا؟ قيل هذا الملك قد أظلك، فقال لغلام ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفاً فقال الملك أين صاحبكم؟ فقالوا هذا، قال كيف أنت؟ قال كالناس، وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك ما عند هذا من خير! فانصرف عنه، فقال السائح الحمد الله الذي صرفك عني وأنت لي ذام. فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق، إذ علموا أنّ الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلموا شدّة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وإنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزى والد عن ولده، ويشتغل الصدّيقون بأنفسهم فيقول كل واحد. نفسي نفسي! فضلاً عن غيرهم فكانوا كزوّار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم أن أرباب البوادي لا يروح عندهم الزائف والبهرج، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجى إلا الخالص من النقد، فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزوّدونه له من التقوى. فإذن شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبالِ حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا، أطلعوا على حركته أم لم يطلعوا، فلو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أنّ العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر مفسداً للعمل بل فيه تفضيل.

فإن قلت: فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول. أولاً، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم.

---

(١) حديث «في الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل» اخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري «اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل» ورواه ابن حيان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق وضعفه هو والدارقطني.

فأما المحمود فأربعة أقسام (الأوّل) أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم وقد قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به.

(الثاني) أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله ﷺ: «ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة[1] فيكون الأوّل فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفات إلى المستقبل.

(الثالث) أن يظن رغبة المطلعين على الإقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً السر بما قصده أولاً، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة.

(الرابع) أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة، إذا من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله. وعلامه الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمده غيره مثل فرحه بحمدهم إياه

وأما المذموم وهو الخامس: فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بغد فراغه من العمل أو قبل الفراغ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء فما يطرأ بعده فيرجو أن لا ينعطف عليه أثر، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يتمن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره وبإظهار الله، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه. نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف.

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل قال له: صمت الدهر يا رسول الله. فقال له: «ما صمت ولا أفطرت[2]» فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ ومن ابن مسعود استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل

---

(١) حديث «ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث قال لرجل قال: صمت الدهر «ما صمت ولا أفطرت» أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة: قال عمر يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر؟ قال: «لا صام ولا أفطر» وللطبراني من حديث أسماه بنت زيد في أثناء حديث، فيه: فقال رجل إني صائم، قال بعض القوم إنه لا يفطر إنه يصوم كل يوم قال النبي ﷺ «لا صام ولا أفطر من صام الأبد» ولم أجده بلفظ الخطاب.

مبطلاً لثواب العمل بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل. وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياءً باعثاً على العمل، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره. ومثاله: أن يكون في تطوّع فتجددت له نظارة، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفاً من مذمة الناس، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة وقد قال ﷺ: «العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله[1]» أي النظر إلى خاتمته. وروي: «أنه من راءى بعمل ساعة حبط عمله الذي كان قبله[2]» وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فإن كان جزء من ذلك مفرد، فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي، والصوم والحج من قبيل الصلاة. وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً، فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض باعثاً على الحركات، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها، ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا وقال: إذا لم يرد إلا مجرد السرور بإطلاع الناس - يعني سروراً هو كحب المنزلة والجاه - قال؛ قد اختلف الناس في هذا؛ فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأوّل وركن إلى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته، ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم علمه بالرياء ثم قال: فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى؛ إنهما حالتان، فإذا كانت الأولى لم تضره الثانية. وقد روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ يا رسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني قال: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية[3]» ثم تكلم على الخبر والأثر فقال: أما الحسن فإنه أراد بقوله: لا يضره، أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه (أحدها) أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ. (الثاني) أنه أراد أن يسر به للإقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سروراً بسبب حب المحمدة والمنزلة، بدليل أنه جعل له به أجراً، ولا ذاهب من الأمه إلى أن للسرور بالمحمدة أجراً وغايته أن يعفى عنه، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائي أجران؟ (والثالث) أنه قال: أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح، ومنهم من يرفعه، فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء أولى. هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلاً إلى الإحباط.

---

(١) حديث «العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله» أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ «إذا طاب أسفله طاب أعلاه» وقد تقدم.

(٢) حديث «من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله» لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب «من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به» ورواه مسلم من حديث ابن عباس.

(٣) حديث: إن رجلاً قال أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني فقال «لك أجران... الحديث» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود وزواه الترمذي وابن حيان من رواية ذكوان عن أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال «له أجر السر والعلانية» قال الترمذي غريب وقال إنه روى عن أبي صالح وهو ذكر أنه مرسل.

والأقيس عندنا: أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً عن باعث الدين وإنما إنضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام.

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة، ولا يبعد أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ـ والخالص ما لا يشوبه شيء ـ فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه. وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاماً أو في مما أوردناه الآن فليرجع إليه، فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ.

القسم الثالث: الذي يقارن حال العقد بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء، فإن استمر عليه سلم فلا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه (قالت فرقة) لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف (وقالت فرقة) تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لأن التحريم عقد، والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقداً (وقالت فرقة) لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله.

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل، فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافراً، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته. ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جداً خصوصاً من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة. وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظراً إلى الآخر فهو أيضاً ضعيف، لأن الرياء يقدح في النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الإفتتاح، فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد إفتتاحه ولم يصح ما بعده، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجساً أيضاً كان يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين، وههنا لا باعث ولا إجابة. فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلي إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر. وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضاً أو نفلاً. فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه، إذ اجتمع في قلبه الباعثان، ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والإقتداء به باطل حتى إن من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله أن يصده الرياء بإظهار حسن القراءة، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الإقتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جداً، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الإقتداء به، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص، فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الإنبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه، لأن الإيجاب ينتهض باعثاً في حقه بمجرده واستقلاله، وإن كان كل باعث مستقلاً حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى

الفرائض، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعاً لأجل الرياء فهذا محل النظر، وهو محتمل جداً، فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص، ويحتمل أن يقال الواجب إمتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه، كما لو صلى في دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه، وتعارض الإحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة، أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة في أوّل الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت، فهذا أبعد من القدح في النية، هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه، وأما مجرد السرور بإطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة. فهذا ما نراه لائقاً بقانون الفقة، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقة، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عند الله عزّ وجلّ فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشعة، وهذه مجاهدة يضطر أليها العباد كلهم، إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتدّ العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم؛ فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه، وإنما يشعر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديده ومكابدة لقوة الشهوات. فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً وفي علاجه مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه (والثاني) دفع ما يخطر منه في الحال.

(المقام الأول) في قلع عروقه واستئصال أصوله: وأصله حب المنزلة والجاه. وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى أن إعرابياً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل[1] حمية - ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب - وقال: «والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب - والرجل يقاتل للذكر - وهذا هو الحمد باللسان - فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم؛ فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك، والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقال عمر رضي الله عنه: يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ﷺ: «من غزا لا يبغى إلا عقالاً فله ما نوى[2]» فهذا إشارة إلى الطمع. وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل، وهو ليس يطمع في الحمد وقد

---

(١) حديث أبي موسى: إن أعرابياً قال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية... الحديث» متفق عليه.

(٢) حديث «من غزا لا يبغي إلا عقالاً فله ما نوى» أخرجه النسائي وقد تقدم.

سبقه غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفرّ من الزحف خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال. ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد. وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل، ويفتي بغير علم ويدّعي العلم بالحديث وهو به جاهل، كل ذلك حذراً من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة.

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفي أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم إنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سمًّا أعرض عنه؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة. ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر. حيث ينادى على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله، وتزينت لهم بالشين عند الله، وتقرّبت إليهم بالبعد من الله، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله، أما كان أحد أهون عليك من الله! فمهما تفكر العبد في هذا الخزى وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط من ثواب الأعمال، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوى إلى النار، فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصدّيقين، وقد حط عنهم بسبب الرياء رد إلى صف النعال من مراتب الأولياء، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فكلٌ ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله عليه سخط الله عليه وأسخطهم أيضاً عليه، ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم؟ ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله، ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطىء وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئاً ما لم يكتبه عليه الله، ولا يعجل أجله ولا يؤجر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين! فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت؛ ذاك الله الذي لا أله إلا هو[1]» إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه، فأي خير لك في مدح الناس. وأنت عند الله مذموم

(١) حديث: قال شاعر من بني تميم إن مدحي زين وإن ذمي شين. فقال: «كذبت ذاك الله» أخرجه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو =

ومن أهل النار؟ وأي شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقرّبين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذله الرياء ومقاساة قلوب الخلق، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص. فهذا وما قدّمنا في الشطر الأوّل هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو إطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها، فلا دواء الرياء مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدّة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمدّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ﴿ والله لا يضيع أجر المحسنين؛ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيًما ﴾.

(المقام الثاني) في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية، فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة ـ قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج ـ فالأول: العلم بإطلاع الخلق ورجاء إطلاعهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه. فالأول: معرفة. والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة. والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد. وإنما كمال القدوة في دفع الخاطر الأوّل وردّه قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة إطلاع الخلق أو رجاء إطلاعهم دفع ذلك بأن قال: مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجب الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرّضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله، فكما أنّ معرفة إطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة، إذ يتفكر في تعرّضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة تدعوه إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما.

فإذن لا بدّ في ردّ الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة والإباء. وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص، ثم يردّ خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطوياً عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خالٍ عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدّث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الأسباب ما يشتدّ به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلىء قلبه غيظاً يمنع من تذكر آفة

= قائل «ذلك» دون قوله «كذبت» ورجاله ثقات إلا أني لا أعرف لأبي سلمة بن عبد الرحمن سماعاً من الأقرع ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل «إن حمدي».

لغضب ويشغل قلبه عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب. وإليه أشار جابر بقوله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين[1] حتى نودي: يا أصحاب الشجرة فرجعوا. وذلك لأنّ القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون، إذ ينسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان. ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة. وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرّضه لسخط الله، ولكن يستمرّ عليه لشدّة شهوته، فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر وفي ذلك لشدّة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك، ولكنه يستمرّ عليه فتكون الحجة عليه أوكد؟ إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموماً عند الله، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة. وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوّة الشهوة، وهذا أيضاً لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذن لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث: وهي المعرفة، والكراهة، والإباء. فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضاً ويثمره، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والإستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم.

فإن قلت: فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خالٍ عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محبب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاعة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة إستثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في آداء ما كلف به. ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن تخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها، فقال عليه السلام: «أو قد وجدتموه» قالوا: نعم قال: «ذلك صريح الإيمان[2]» ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له، ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة، والرياء وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أنه قال: «الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة[3]» وقال أبو حازم: ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذن وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة الرياء هي من الشيطان، والرغبة والميل بعد

---

(١) حديث جابر: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفر. . . الحديث. أخرجه مسلم مختصراً دون ذكر «يوم حنين» فرواه مسلم من حديث العباس.

(٢) حديث: شكوى الصحابة ما يعرض في قلوبهم وقوله «ذلك صريح الإيمان» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال «ذلك محض الإيمان» والنسائي في اليوم والليلة وابن حيان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة.

(٣) حديث ابن عباس «الحمد لله الذي ردّ كيد الشيطان إلى الوسوسة» أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ «كيده».

تلك الخواطر من النفس، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلا أنّ للشيطان ههنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الإشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب، لأن الإشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته إنصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب (الأولى) أن يرده على الشيطان فيكذبه، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه، وهو على التحقيق نقصان، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك. (الثانية) أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته (الثالثة) أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلت؛ بل يكون قد قرّر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمرّ على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة. (الرابعة) أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والإشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع. يروي عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلاناً يذكرك، فقال، والله لأغيظن من أمره، قيل: ومن أمره؟ قال: الشيطان، اللهم اغفر له. أي لأغيظنه بأن أطع الله فيه. ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته. وقال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيراً، فإذا رآه كذلك تركه: وقال أيضاً: إذ رآك الشيطان متردداً طمع فيك، وإذا رآك مداوماً ملك وقلاك.

وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً، فحسدهم على ذلك ضالٍ مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدّم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاة إلى مجلس ضلال فأبى، فلما عرف أباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال ليفوّت عليه بقدر تأخره. فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتعل بالقتال واستعجل، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه. ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمرّ على ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية. فمرّ الرابع فلم يتوقف له، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله.

فإن قلت: فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له، أو يجب الإشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه: فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم ـ كما أيس من ضعفاء العباد فيالدعوة إلى الخمر والزنا ـ فصارت ملاذ الدنيا عندهم ـ وإن كانت مباحة ـ كالخمر والخنزير، فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر. وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر. وقالت فرقة من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية

فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غروراً، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا، بل في صفات الله تعالى وأسمائه، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) وقال النبي ﷺ: «إنه ليغان على قلبي[1]» مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير[2] فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما ﴿إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فيكف يجوز لغيره أن يأمن في دار والدنيا وهي منبع المحن والفتن معدن الملاذ والشهوات المنهى عنها؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى ﴿هذا من عمل الشيطان﴾ ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال الله تعالى ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ والقرآن من أوّله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الإشتغال بحب الله، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدوّ كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ وقال تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل﴾ فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدوّ الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك ولا تراه أولى. ولذلك قال ابن محيريز: صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك. فأشار إلى الشيطان، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم؟ فليس من الإشتغال بالله الإعراض عما حذر الله. وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) لا يناقض إمتثال التوكل، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحي والمميت هو الله تعالى، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله، ويرى الأسباب وسائط مسخرة ـ كما ذكرناه في التوكل.

وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الإستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد.

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم: إذا حذرنا الله تعالى العدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب في قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا. وقال قوم: إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين، فإنا إن نسينا ربما عرض من حيث لا نحتسب، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله، فالجمع أولى. وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا يخفي غلطه، وإنما

---

(١) حديث «إنه ليغان على قلبي» تقدم.
(٢) حديث: إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير. تقدم أيضاً.

أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدّنا عن الذكر فيكف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدوّ؟ ثم يؤدي ذلك ألى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الإشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكره الله، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ـ إبليس وغيره ـ فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له، وعند التنبه يشتغل بدفعه والإشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزعة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح، فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر، مع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدوّ إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكره الله، ودفعوا بالذكر شر العدو، واستضاؤوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو. فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جارياً إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سداً رملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الإقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء. قال الحسن: قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾.

والإظهار قسمان (أحدهما) في نفس العمل (والآخر) التحدث بما عمل.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالبصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبي ﷺ: «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه[1]» وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الإقتداء في الصدقة على الطباع أغلب. نعم الغازي إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدي به. فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام. فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في

(١) حديث «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه» وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي.

الأفضل فقال قوم: السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة، وقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر. ويدل على ذلك أن الله عزّ وجلّ أمر الأنبياء بإظهار العمل للإقتداء وخصهم بمنصب النبوة، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين. ويدل عليه قوله عليه السلام؛ «له أجرها وأجر من عمل بها» وقد روي في الحديث: «إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عم العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفاً[1]» وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدي به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فلا خلاف في أن السر أفضل منه.

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان (إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدي به أو يظن ذلك ظناً، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة. فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يتقدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الإقتداء به (والثانية) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه الإظهار بعذر الإقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدي به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم مدّة مديدة، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدي به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير، فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم؟ فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن بعدل بالسلامة شيئاً والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

القسم الثاني: أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشدّ لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوي عظيمة، إلا أنه لو تطرّق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أنّ من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الإقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. قال سعد بن معاذ: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة فحدثت

---

(١) حديث «إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا اسن به على عمل السر سبعين ضعفاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الإقتداء» وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة «يفضل ـ أو يضاعف ـ الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفاً» وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها، وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأني لا أدري أيهما خير لي؟ وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها. وقال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ[1] وقال شدّاد بن أوس. ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها، غير هذه! وكان قد قال لغلامه: أئتنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداء. وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا علي فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله.

فهذا كله اظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة اذا صدرت ممن يرائي بها، وفيها غاية الترغيب اذا صدرت ممن يقتدي به. فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسدّ باب اظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والإقتداء، بل إظهار المرائي للعبادة إذ لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي. فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الإقتداء بمن هو مراء عند الله؟ وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرمان من البيوت، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف! فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم[2] كما ورد في الأخبار وبعض المرائين ممن يقتدي به منهم والله تعالى أعلم.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له

إعلم أن الأصل في الإخلاص إستواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية، قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟ قال. ما إذا اطلع عليك لم تستحِ منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد. ولا يخلوالإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي.

وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه، ويصح اغتمامه بإطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه:

(الأوّل) أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة، إذ ورد في الخبر: «أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة[3]» وهذا غم ينشأ من قوّة الإيمان.

---

(١) حديث عثمان قوله: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ. . . الحديث» أخرجه أبو يعلى الموصلي في معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث وإن عثمان قال: يا رسول الله، فذكره بلفظ منذ بايعتك، قال «هو ذاك يا عثمان».

(٢) حديث «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم» هما حديثان ةالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضاً.

(٣) حديث «إن من ستر عليه في الدنيا ستر عليه في الآخرة» تقدم قبل هذا بورقة.

(الثاني) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال ﷺ: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله[1]» فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله. وهذا ينشأ من قوّة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتم بسببه.

(الثالث) أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر. وهذا أيضاً من قوّة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان.

(الرابع) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاصٍ وإنما يعصي إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذراً من ذمهم، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به. نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضارّ والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون؛ وذلك قليل جداً، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان، ورب تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء الله، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يغتم به؟ نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله، فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد.

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك، ويتصوّر أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم. وإنما مراده أن يتركه الناس حمداً وذماً، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم؟ إذ الحمد بطلب اللذة، وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه بإطلاع الناس على ذنبه عن إطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان في الدين، بل ينبغي أن يكون غمه بإطلاع الله وذمه له أكثر.

(الخامس) أن يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضاً فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع.

(السادس) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذراً منه.

(السابع) مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء الذم والقصد بالشر، وهو خلق كريم يحدث في أوّل الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت وهو منه وصف محمود إذ قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله[2]» وقال ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان[3]» وقال ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير[4]» وقال ﷺ: «إن الله

---

(١) حديث «من ارتكب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله» أخرجه الحاكم في المستدرك وقد تقدم.

(٢) حديث «الحياء خير كله» أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم.

(٣) حديث «الحياء شعبة من الإيمان» متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٤) حديث «الحياء لا يأتي إلا بخير» متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم.

يحب الحي الحليم[1]» فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق والتهتك والوقاحة فقد الحياء، فهو أشدّ حالاً ممن يستتر ويستحي، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباهاً عظيمًا قل من يتفطن له، ويدعي كل مراء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس، وذلك كذب، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص، ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائي معه.

وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضاً ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحي من رده، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب، فله عند ذلك أحوال؛ أحدها: أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء، وهذا فعل من لا حياء له. فإن المستحي إما أن يتعلل أو يقرض.

فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال:

أحدها. أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول: ينبغي أن تعطي حتى يثنى عليك ويحمدك وينشر إسمك بالسخاء، أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرّك للرياء هو هيجان الحياء.

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء، فيهيج داعي الإخلاص ويقول له: إنّ الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه.

الثالث: أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب. والمرائي يستحي من المباحات أيضاً، حتى إنه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوء، أو ضاحكاً فيرجع إلى الإنقباض، ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء. وقد قيل إنّ بعض الحياء ضعف وهو صحيح، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة، وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود. وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب.

(الثامن) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به، وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة، ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدي به، وبهذه العلة ينبغي أيضاً أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب: هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، ومهما قصده بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائياً كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة.

فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه وقد قال رجل للنبي ﷺ:

---

(١) حديث «إن الله يحب الحيي الحليم» أخرجه الطبراني من حديث فاطمة، وللبزار من حديث أبي هريرة «إن الله يحب الغني الحليم المتعفف» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك[1]»؟ فنقول: حبك لحب الناس لك قد يكون مباحاً وقد يكون محموداً وقد يكون مذموماً. فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه تعالى إذا أحب عبداً حببه في قلوب عباده. والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله. والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

إعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به وذلك غلط وموافقة للشيطان، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره، وهو أن الطاعات تنقسم إلى: ما لا لذة في عينه؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند إطلاع الناس عليه، وإلى: ما هو لذيذ؛ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة.

القسم الأوّل: الطاعات اللازمة للبدن - التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها - كالصوم والصلاة والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث (إحداها) ما يدخل قبل العمل فيبعث على الإبتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه، فإنه تدرّع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها: ألا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل. (الثانية) أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأوّلها، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثاً دينياً، فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول (الثالثة) أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتمم العمل، لأن الشيطان يدعوك أوّلاً إلى ترك العمل، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء، فإذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا تركته فقد حصلت غرضه. ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائياً كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال: خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً. فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنى له. ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا إنه مراء فيعصون الله به. فهذا من مكايد الشيطان لأنه أوّلاً أساء الظن بالمسلمين، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة، وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مراء هو عين الرياء، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فماله ولقولهم قالوا إنه مراء أو قالوا إنه مخلص؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه غافل

---

(١) حديث: قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال «إزهد في الدنيا يحبك الله... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ «وازهد فيما في أيدي الناس» وقد تقدم.

مقصر؟ بل ترك العمل أشدّ من ذلك. فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له: الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لايشتهي الشهرة. فيضطرك بذلك إلى أن تهرب، فإن هربت ودخلت سرباً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ليلزم الكراهة والإباء قلبك، وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي، وإن نزغ العدوّ نازغ الطبع فإنّ ذلك لا ينقطع، وترك العمل لأجل ذلك يجرّ إلى البطالة وترك الخيرات. فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل. فإن قال لك الشيطان: أنت مراء، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرّد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد، فمن شرع في العمل لله فلا بدّ أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة. روي أنّ إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة. وقال إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم. وقال الحسن: إن كان أحدهم ليمرّ بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة. وقد ورد في ذلك آثار كثيرة؟ قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه.

وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل. والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء، فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدّة الخوف، فالإقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء. وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للإشتغال بمكالمته، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للإشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك. وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا بمجرّد خوف الرياء. وأما قول التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه، على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً من طلبها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال.

أما الخلافة والإمارة: فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، وقد قال النبي

ﷺ: «ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً[1]» فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة، وقال ﷺ: «أول من يدخل الجنة ثلاثة: الإمام المقسط[2]» أحدهم. وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل[3]» أحدهم. وقال ﷺ: «أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل[4]» رواه سعيد الخدري. فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظم الخطر، إذ تتحرّك بها الصفات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولذة الإستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا؛ فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه. ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول: من يأخذها بما فيها، وكيف لا وقد قال النبي ﷺ: «ما من والي عشرة الا جاء يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره[5]» رواه معقل بن يسار، وولاه عمر ولاية فقال: يا أمير المؤمنين أشر علي، قال: إجلس واكتم علي. وروى الحسن: «أن رجلا ولاه النبي ﷺ فقال للنبي: خير لي قال: إجلس[6]» وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها[7]» وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر: لا تأمر على اثنين، ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع: ألم تقل لي لا تأمر علس اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد ﷺ؟ فقال: بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله، يعني لعنة الله. ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة مع ما ورد من النهى عنها متناقضاً وليس كذلك، بل الحق فيه أنّ الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات، وأنّ الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، وأعني بالقوى الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات، ومن جرّب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل، فيداهن خيفة من العزل؛ فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل

---

(١) حديث «ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً... الحديث» أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم.

(٢) حديث «أول من يدخل الجنة ثلاثة: الإمام المقسط... الحديث» أخرجه مسلم من حديث عياض بن حماد «أهل الجنة ثلاث: ذو سلطان مقسط... الحديث» ولم أر فيه ذكر الأولية.

(٣) حديث أبي هريرة «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل» تقدم.

(٤) حديث أبي سعيد الخدري «أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل» أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه وفيه أيضاً إسحق بن إبراهيم الديباجي ضعيف أيضاً.

(٥) حديث «ما من والي عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلولةإلى عنقه لا يفكها إلا عدله» أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار وأبو يعلي والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البزار والطبراني من حديث أبي هريرة ورواه البزار والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء «ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه... الحديث» وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار «ما من عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة» متفق عليه.

(٦) حديث الحسن: إن رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال للنبي ﷺ: خر لي قال «اجلس» أخرجه الطبراني موصولاً من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكره يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ «إلزم بيتك» وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدي وقال أبو حاتم صدوق.

(٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة «لا تسل الإمارة... الحديث» متفق عليه.

يلزمه الهرب من تقلد الولاية؟ فقال قائلون: لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح أنّ عليه الإحتراز لأنّ النفس خدّاعة مدعية للحق واعدة بالخير، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد؟ والإمتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العز طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو إمارة الشر، ولذلك قال ﷺ: «إنا لا نولي أمرنا من سألنا(١)» فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أنّ نهى أبي بكر رافعاً عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض.

وأما القضاء: فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناهما، فإن كل ذي ولاية أمير ـ أي له أمر نافذ ـ والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع إتباع الحق، والعقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة(٢)» وقال عليه السلام: «من استقضى فقد ذبح بغير سكين(٣)» فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم. ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم، إذ يعلم أنه لوحكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذراً مرخصاً له في الإهمال أصلاً، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضي لإتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثواباً؟ وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية ـ وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر: فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً، وكانوا يقولون: حدّثنا، باب من أبواب الدنيا، ومن قال: حدّثنا، فقد قال أوسعوا لي. ودفن بشر كذا وكذا قمطراً من الحديث وقال: يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدّث، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت. والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلاً، ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقاً، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم، فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولاً، ثم يقول: إذا أنعم الله علي بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون. فهذا أيضاً مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه، إلى أن ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه.

فإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؟ فنقول

(١) حديث «إنا لا نولي أمرنا من سألنا» متفق عليه من حديث أبي موسى.
(٢) حديث «القضاة ثلاثة... الحديث» أخرجه أصحاب السنن من حديث تريدة وتقدم في العلم وإسناده صحيح.
(٣) حديث «من استقضى فقد ذبح بغير سكين» أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ «من جعل قاضياً» وفي رواية «من ولي القضاء» وإسناده صحيح.

قد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعد عليها[1] حتى قال: «إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها[2]» وقال: «نعمت المرضعة وبئست الفاطمة[3]» ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعاً وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب ـ رأى قوماً يتبعونه ـ وهو في ذلك يقول: أبي سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه وقال ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ فقال: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق. والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى، وفي كل واحد منها فتنة ولذة فلا فرق بينها، فأما قول القائل: نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط، إذ نهى رسول الله ﷺ عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء[4] بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها. وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإنّ الله لا يضيعهم وانظر لنفسك، ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهى عنه إلا امتناع بعضهم، وإلا فليعلم أنّ كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمعته في الظاهر وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه أنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له إشتغل وجاهد نفسك، فإن قال: لست أقدر على نفسي فنقول: إشتغل وجاهد، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده، فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم[5]» ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته. فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف المسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله. ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدّقون ولا تفعلون ما تأمرون، وتدرسون ما لا تعملون، فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم، بحق أقول لكم: أفسدتم

---

(١) حديث: النهي عن طلب الإمارة هو حديث عبد الرحمن بن سمرة «لا تسل الإمارة» وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث.

(٢) حديث «إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا من أخذها بحقها» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله «إلا من أخذها بحقها» وزاد في آخره «فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» ودون قوله «حسرة» وهي في صحيح ابن حبان.

(٣) حديث «نعمت المرضعة وبئست الفاطمة» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله ورواه ابن حيان بلفظ «فبئست المرضعة وبئست الفاطمة».

(٤) حديث: النهي عن القضاء. . . أخرجه مسلم من حديث أبي ذر «لا تؤمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم».

(٥) حديث «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم» أخرجه النسائي وقد تقدم قريباً.

آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأي ناس أخس منكم لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وتقيمون في محلة المتجبرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة! يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم. وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون.

فإن قلت: فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها[١]» وقال ﷺ: «أيما داعٍ دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه[٢]» إلى غير ذلك من فضائل العلم، فينبغي أن يقال للعالم إشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك؟ فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة، ولا نقول لأحد من عباد الله إترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما الآفة في إظهاره بالتصدّي للوعظ والتدريس ورواية الحديث، ولا نقول له أيضاً أتركه ما دام يجد في نفسه باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء، أما أذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم. وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها، أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم.

وبالجملة فالمراتب ثلاث (الأولى) الولايات؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة (الثانية) الصوم والصلاة والحج والغزو؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة. وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة (الثالثة) وهي متوسطة بين الرتبتين؛ وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء، ومناصب العلم بينهما، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم.

وهنا رتبة رابعة وهي: جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين، فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلاباً للثناء، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس، والآفات فيها أيضاً كثيرة.

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال: القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى. وقال أبو الدرداء: ما يسرني أنني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها، أما إني لا

---

(١) حديث «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها» متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ «خير لك من حمر النعم» وقد تقدم في العلم.

(٢) حديث «أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه» أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة في أوله ولمسلم من حديث أبي هريرة «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه. . . الحديث».

أحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وقد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو افضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل، وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله أفضل، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام: يا طالب الدنيا ليبر بها، تركك لها أبرّ؛ وقال. أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل. وهذا فيمن سلم من الآفات، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والإشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل.

وبالجملة: ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه، وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع.

وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه، لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه، وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الأفة وهو عين البخل. ولا خلاف في أن فرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب: أن الأفضل الكسب والإنفاق، أو التجرد للذكر؟ وذلك لما في الكسب من الآفات، فأما المال الحاصل من ا لحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال.

فإن قلت فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس؟ فاعلم أن لذلك علامات (إحداها) أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً أو أغزر منه علمًا والناس له أشدّ قبولاً فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه (والأخرى) أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعين واحدة (والأخرى) أن لا يحب إتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق. ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها.

وقد روي عن سعيد بن أبي مروان قال: كنت جالساً إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر، فدخل المسجد على برذونه، فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن، فلما رآه الحسن متوجهاً إليه تجافى له عن ناحية مجلسه، قال سعيد: وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له - يتكلم به في كل يوم - فما قطع الحسن كلامه قال سعيد: فقلت في نفسي؛ لأبلون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرّب إليه، أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى. إلى آخر كلامه، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقاً وعادة فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ: «أن مجالس الذكر رياض الجنة[1]» ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتموها على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها، قال. ثم افتر الحجاج فتلكم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته، فلما فرغ طفق فقام، فجاء

---

(١) حديث: إن مجالس الذكر رياض الجنة. تقدم في الأذكار والدعوات.

رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن ـ حين قام فسطاطاً، وأن لي ثلثمائة درهم من العطاء وأنّ لي سبع بنات من العيال؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له ولأصحابه، والحسن مكب، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم قاتلهم الله إتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً وقتلوا الناس على الدينار والدرهم، فإذا غزا عدوّ الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة، وإذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً راجلاً؟ فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه، فقام رجل من أهل الشام كان جالساً إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجب الأمير، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدّة كلامه الذي تكلـم به، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم، وقلما رأيته فاغراً فآه يضحك إنما كان يتبسم، فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال: إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم، إن الخيانة أشدّ الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار! إني أتيت هذا الرجل فقال: أقصر عليك من لسانك وقولك: إذا غزا عدوّ الله غزا كذا وكذا، وإذا أغزى أخاه: أغزاه كذا! لا أبالك! تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك، قال: فدفعه الله عني. وركب الحسن حماراً يريد المنزل فبينما هو يسير إذا التفت فرأى قوماً يتبعونه فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد؟ فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن. ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسـدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون. اللهم أرحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أنّ الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم إنبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الإشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير، أو تمكنه من التمتع بزوجته، أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الإشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزل غريب إندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرّك داعيته للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام، والنفس لا تسمح بالهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع إندفاع سائر العوائق، وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلم منها قوي الباعث. فهذا وأمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول: لا تعمل فإنك تكون مرائياً إذا كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في

الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته، وعند ذلك قد يقول الشيطان: صلِ فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لإطلاعهم. وهذا أمر مشتبه إلّا على ذوي البصائر، فإذا عرف أنّ المحرّك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله، وإن كان إنبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق. وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسه فليصلِ فإن باعثه الحق، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء. وكذلك قد يَحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى، وقد يتحرّك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد، فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يردّ ذلك على نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة. وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى - تارة رياء وتارة مع الصدق - إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً، وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الإختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي. قال لقمان عليه السلام لإبنه: لا ترى الناس أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر. وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال، تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك، فإن تجرّدت هذه الداعية فهي الرياء، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرّض لسخط الله تعالى به، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن، ولكن يمدّه ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء، وهو محظور لأنها في حكم الإبتداء لمجرد الرياء، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء. وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط، ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة، فيزعق ويتواجد تكلفاً ليرى أنه سقط لكونه مغشياً عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة، وإنما هي كبرق خاطف، فيستديم الزعقه والرقص ليرى دوام حاله، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكىء على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر أن ضعيف عن سرعة المشي. فهذه كلها مكايد الشيطان ونزعات النفس. فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميرة لمقتوه، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشدّ مقتاً، كما روى عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال يا شيخ! الذي يراك حين تقوم؟ فجلس الشيخ. وكل ذلك من أعمال المنافقين.

وقد جاء في الخبر «تعوذوا بالله من خشوع النفاق[1]» وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاضع، ومن ذلك الإستغفار والإستعاذة بالله من عذابه وغضبه، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة. فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة، وهي مع تقاربها متشابهة، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو؟ فإن كان لله فإمضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدّد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً، فإذا خطر لك فتفكر في إطلاع الله عليك ومقته لك. وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال: يا أيوب أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته. وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت. وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما: اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظاً على رياء الناس من نفسي مضيعاً لما أنت مطلع عليه مني، أبدى للناس أحسن أمري وأفضي إليك بأسوأ عملي، تقرباً إلى الناس بحسناتي وفراراً منهم إليك بسيآتي، فيحل بي مقتك ويجب علي غضبك، أعذني من ذلك يا رب العالمين. وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام: يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم فهذه جمل آفات الرياء. فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففي الخبر «إن للرياء سبعين باباً[2]» وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض، حتى إن بعضه مثل دبيب النمل، وبعضه أخفى من دبيب النمل، وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه.

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى إطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء وتقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك! فما في الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الإقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله: عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده، ويعلم أنّ إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول: وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق ولا أجل؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر على الإخلاص

---

(١) حديث «تعوذوا بالله من خشوع النفاق» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الأبادي ضعفه أحمد وابن معين.

(٢) حديث «الرياء سبعون باباً» هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه إنه «الرياء» بالمثناة وإنما هو «الربا» بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو، والحديث روان ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه» وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال «الربا ثلاث وسبعون باباً» وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ «الربا بضع وسبعون باباً والشرك مثل ذلك» وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه «الرياء» بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم.

الأقوياء فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم، فيترك المجاهدة في الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي، لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة، والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض، وهلك به، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج. وقد روى تميم الداري عن النبي ﷺ أنه قال: «يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل أنظروا هل له من تطوّع؟ فإن كان له تطوّع أكمل به فرضه وإن لم يكن له تطوّع أخذ بطرفيه فألقى في النار[1]» فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل، وأما المتقي فجهده في زيادة الدرجات فإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة.

فإذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف إطلاع غير الله عليه لتصح نوافله، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدّث به، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكاً في قبوله ورده مجوزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقناً في الإبتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به، ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك في أنه هل أفسده برياء؟ فيكون رجاء القبول أغلب، وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات. فالإخلاص: يقين، والرياء: شك. وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه. والذي يتقرّب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه، فإن ذلك يحبط الأجر. فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة، أو مرافقه في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره. نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذ كان لا ينتظره ولا يريده منه، ولا يستبعده منه لو قطعه. ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا، حتى إن بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فأدلوا حبلاً ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً، خيفة أن يحبط أجره. وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوباً فرده علي، فقلت له: يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده علي قال: علمت ذاك ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره. وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقاً لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيراً، فقال له: يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك ـ كان وكان وأثنى عليه ـ فقال: يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال إلي، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك (قال) فقبل سفيان ذلك (قال) فلما خرج قال لولده: يا مبارك إلحقه فرده عليه، فرجع فقال: أحب أن تأخذ مالك، فلم يزل به حتى رده عليه. وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك. قال ولده: فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويلك أي شيء قلبك هذا! حجارة؟ عد أنه ليس لك عيال! أما ترحمني؟ أما ترحم إخوتك؟ أما ترحم عيالنا؟ فأكثرت عليه فقال لي: يا مبارك تأكلها أنت هنيئاً مريئاً وأسأل عنها أنا.

---

(١) حديث تميم الداري: في إكمال فريضة الصلاة بالتطوع أخرجه أبو داود وابن ماجه وتقدم في الصلاة.

فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزل عنده، لا عند المعلم وعند الخلق. وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبته، فيتعلم منه، وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال، والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد؟ فيكف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهم علم! وذلك غير جائز، بل ينبغي أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله، لا ليكون له في قلبه منزلة، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة، فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره. وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمها لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً. وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله، فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به، وإنما سكوته لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحب أن أعلم، قال: في كل ليلة حمصة قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عزّ تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعزّ ساعة! فأحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعزّ الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك؟ قلت: بلى، قال: أنزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي: أدخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير اجتمع علي النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته قالوا: فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا: ساوم! قلت: عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً قال: أخطأت! لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عزّ من لا تعبده فانظر كيف يكون عزّ من تعبده؟ يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة.

والمقصود أن استشعار النفس عزّ العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعاً إلا كراهة ضعيفة، إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه، فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً ولم يداخله سرور بسبب إطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه؛ إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والإنقباض كي لا ينبسطوا أليه، فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور، إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الإنقباض فيطالبها في دعواها قصد الإنقباض بموثق من الله غليظ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمح نفسه بذلك؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزله عندهم، ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق. ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه، لا كرامة إلا إذا كان في الغني زيادة علم

أو زيادة ورع فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغني، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة، والنظر إلى الأغنياء بخلافه، فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير؟ وقد حكي أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري، كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه. نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير ألبته، فإن الفقير أكرم على الله من الغني، فإيثارك لا يكون إلا طمعاً في غناه ورياء له، ثم إذا سوّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي، كما قال ابن السماك لجارية له مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت! فإن اللسان ينطق عند الغني بما لا ينطق به عند الفقير، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير.

ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات، وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصاناً لشدّة احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الأعداء به ومهما اشتدّ عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء وبدن صحيح وقلب رخي وأمر نافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابر المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة إحتمى عن كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف، وترك المؤانسة بالخلق خوفاً من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك، ورجاء أن ينجو من عذابه، فخف ذلك كله عليه عند شدّة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعدّ له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عوناً وبهم رؤوفاً وعليهم عطوفاً ولو شاء لأغناهم عن التعب، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلاً، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر، وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته، فإن الكريم لا يضيع سعي الراجي ولا يخيب أمل المحب وهو الذي يقول: «من تقرّب إلي شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» ويقول تعالى: (لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم أشدّ شوقاً) فليظهر العبد في البداية جدّه وصدقه وأخلاصه فلا يعـوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارىء المصوّر العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه، وارتفع عن حدّ قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جل جلاله وتقدست أسماؤه، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته»[(١)] وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»[(٢)] فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان. وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات. ونحن نستقضي بيانهما من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر، وشطر في العجب.

الشطر الأول من الكتاب: في الكبر؛ وفيه؛ بيان ذم الكبر، وبيان ذم الإختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبر، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر، وبيان امتحان النفس في خلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه.

بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذي يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ وقال عز وجل: ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ وقال تعالى: ﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ وقال تعالى: ﴿ إنه لا يحب المستكبرين﴾ وقال تعالى: ﴿ لقد استكبروا في أنفسم وعتوا عتوّا كبيرا﴾ وقال تعالى: ﴿ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ وذم الكبر في القرآن كثير وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل وإيمان»[(٣)] وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة

---

(١) حديث «قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته» أخرجه الحاكم في المستدرك دون ذكر «العظمة» وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم، وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر.

(٢) حديث «ثلاث مهلكات... الحديث» أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضاً.

(٣) حديث «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردك من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال جبة من خردل ، ان» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»[1] وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: إلتقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتوافقا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا ـ يعني عبد الله بن عمرو ـ زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول؛ من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه»[2] وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب»[3] وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما ـ للطير والإنس والجن والبهائم: أخرجوا، فخرجوا من مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر، فسمع صوتاً: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرّة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته. وقال ﷺ: «يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: وكانت بثلاثة، بكل جبار عنيد بكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصوّرين»[4] وقال ﷺ «لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيء الملكة»[5] وقال ﷺ «تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها»[6] وقال ﷺ: «بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى» بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى»[7] وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان! فقال: «أليس بعده الموت»[8] وقال عبد الله بن عمرو: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنها كما عن الشرك والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله. فإن السمٰوات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما، ولو أنّ السمٰوات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء»[9] قال المسيح عليه السلام؛ طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا. وقال ﷺ: «أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع، وأهل الجنة الضعفاء المقلون[10] » وقال ﷺ «إن أحبكم الينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا، وان أبغضكم الينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيقهون» قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون

---

(١) حديث أبي هريرة «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في جهنم» أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له، وقال أبو داود «قذفته في النار» وقال مسلم «عذبته» وقال «رداؤه» و «إزاره» بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضاً.

(٢) حديث عبد الله بن عمرو «من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه» أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح.

(٣) حديث «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين... الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دو « قوله «من العذاب».

(٤) حديث «يخرج من النار عنق له أذنان... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب.

(٥) حديث «لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة» تقدم في أسباب الكسب والمعاش المعروف «خائن» مكان «جبار».

(٦) حديث «تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث «بئس العبد عبد تجبر واعتدى... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقدمي وتأخير وقال غريب وليس إسناده بالقوى ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه.

(٨) حديث ثابت: بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان؟ فقال «أليس بعده الموت» أخرجه البيهقي في الشعب هكذا مرسلاً بلفظ «تجبر».

(٩) حديث عبد الله بن عمرو «إن نوحاً لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنها كما عن اثنتين، أنها كما عن الشرك والكبر... الحديث» أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال صحيح الإسناد.

(١٠) حديث «أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع» وهذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعي «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»

والمتشدقون فما المتفيهقون؟ المتكبرون»[1] وقال ﷺ «يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطؤهم الناس، ذراً مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الأنيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار»[2] وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى»[3] وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال إن أباك حدّثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار، فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه»[4] وقال ﷺ: «إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم»[5] وقال ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[6] وقال: «من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدين والغلول»[7].

الآثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يوماً ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات. وقد قيل في: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ هو سبيل الغائط والبول. وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبر وقال النعمان بن بشير - على المنبر - إن للشيطان مصالي وفخوخاً، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله وأتباع الهوى في غير ذات الله. نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه.

بيان ذم الإختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب

قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً»[8] وقال ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[9] وقال ﷺ: «من جر ثوبه خيلاء لا

---

(1) حديث «إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً... الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني بلفظ «إلى» و «مني» وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث.

(2) حديث «يحشر المتكبرون يوم القيامة ذراً في صور الرجال... الحديث» أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال غريب.

(3) حديث أبي هريرة «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر.... الحديث» أخرجه البزار هكذا مختصراً دون قوله «الجبارون» وإسناده حسن.

(4) حديث أبي موسى «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار» أخرجه أبو يعلي والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد، قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث.

(5) حديث «إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال «توابيت» مكان «قصراً» وقال «فيقفل» مكان «يطبق» وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف.

(6) حديث «اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء» لم أره بهذا اللفظ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ في أثناء حديث «أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه» قال: نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه المونة، ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه، تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب.

(7) حديث «من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاثة دخل الجنة: «الكبر والدين والغلول» أخرجه الترمذي والنسائي وبان ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور في الرواية أنه الكبر (بالموحدة والراء) لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال إنما هو الكنز (بالنون والزاي) وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير (والذين يكنزون الذهب والفضة).

(8) حديث «لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(9) حديث «بينما رجل يتبختر في برديه قد أعجبته نفسه... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ينظر الله إليه يوم القيامة» وقال زيد بن أسلم: دخلت على ابن عمر فمرّ به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: لأي بني أرفع إزارك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره خيلاء»[1] وروي: «أن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق! وأنى أوان الصدقة»[2] وقال ﷺ: «إذا مشيت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض»[3] قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال. وقال ﷺ: «من تعظيم واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان»[4].

الآثار: عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف... أف... شامخ بأنفه ثاني عطفه مصعّر خده ينظر في عطفيه، أي حميق أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها، والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفتة، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال: لا تعتذر إلا وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم. وروي أن عمر ابن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف، فنظر إليه طاووس هو يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من في بطنه خراء؟ فقال عمر كالمعتذر: يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريها بمائتي درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله! ورأى ابن عمر رجلاً يجرّ إزاره فقال: إنّ للشيطان إخواناً ـ كررها مرتين أو ثلاثاً ـ ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله» فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال بلى أعرفك أوّلك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة! فمضى المهلب وترك مشيته تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ أي يتبختر وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والإختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم.

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله ﷺ: «ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[5] وقال ﷺ: «وما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فإن هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه وإن

---

(١) حديث ابن عمر «لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء» رواه مسلم مقتصراً على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله ابن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن المار رجل من بني ليث غير مسمى.

(٢) حديث: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليها وقال: «يقول الله: ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه... الحديث» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث بشر بن جحاش.

(٣) حديث «إذا مشتأمتي المطيطاء... الحديث» أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حدث ابن عمر: المطبطاء (بضم الميم وفتح الطاء بين المهملتين بينهما مثناة من تحت) مصغراً ولم يستعمل مكبراً.

(٤) حديث «من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله وهو عليه غضبان» أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر.

(٥) حديث «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا... الحديث» أخرجه مسلم من حدبث أبي هريرة وقد تقدم.

وضع نفسه قالا اللهم ارفعه»[1] وقال ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالاً جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة»[2] وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: «كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال: «ما هذا؟» قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال: «أما إني لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله»[3] وروي أن النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكرّه منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله على فخذه ثم قال له: «أطعم فكان رجلاً من قريش اشمأز منه وتكرّه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها»[4] وقال ﷺ: «خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً فلم أدر أيهما أختار وكان صفي من الملائكة جبريل فرفعت رأسي إليه فقال: تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً»[5] وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي وقال ﷺ: «الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغني»[6] وقال المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الدنيا الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة. وقال بعضهم: بلغني أن النبي ﷺ قال: «إذا هدى الله عبداً للإسْلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله»[7] وقال ﷺ: «أربع لا يعطيهم الله إلا من أحب: الصمت وهو أوّل العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا»[8] وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة»[9] وقال ﷺ: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله»[10] ويروى أن رسول الله ﷺ كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه

---

(١) حديث «ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها... الحديث» أخرجه العقيلي في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف.

(٢) حديث «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة... الحديث» أخرجه البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري والبزار من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان.

(٣) حديث أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً... الحديث» وفيه «من تواضع رفعه الله... الحديث» رواه البزار من رواية طلحة بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله، ولم يقل «بقباء» وقال الذهبي في الميزان إنه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله ﷺ بقدح فيه لبن وعسل... الحديث» وفيه «أما إني لا أزعم أنه حرام... الحديث» وفيه «من أكثر ذكر الموت أحبه الله» وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى مِن حديث أبي سعيد دون قوله «ومن بذر أفقره الله» وذكرا فيه قوله «ومن أكثر ذكر الله أحبه الله» وتقدم في ذم الدنيا.

(٤) حديث السائل الذي كان به زمانه منكرة وأنه ﷺ أجلسه على فخذه ثم قال «اطعم» الحديث. لم أجد له أصلاً والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي غريب.

(٥) حديث «خيرني ربي بين أمرين عبداً رسولاً وملكاً نبياً... الحديث» أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف.

(٦) حديث «الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلاً وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الإسناد.

(٧) حديث «إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته... الحديث» أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودي مختلف فيه.

(٨) حديث «أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب: الصمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله والتواضع، والزهد في الدنيا» أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس «أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء» قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حياة يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث.

(٩) حديث ابن عباس «اذا تواضع العبد رفع الله رأسه الى السماء السابعة» أخرجه البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور.

(١٠) حديث «إن التواضع لا يزيد العبد الا رفعة.. الحديث» أخرجه في الترغيب والترهيب من حديث انس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدي حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياصي وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف.

فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه»[1]وقال ﷺ: إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه»[2] وقال النبي ﷺ لأصحابه يوماً: «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة» قالوا: «وما حلاوة العبادة؟ قال: «التواضع»[3] وقال ﷺ :«إذا رأيتم المتواضعين من أمتي لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار»[4].

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: «إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال أخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير. وقال جرير بن عبد الله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسوّيته عليه. ثم أنّ الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع الله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات، التواضع. وقال يوسف بن أسباط: يجزى قليل الورع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد. وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال ابن المبارك: أن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فرقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل. وقال قتادة: من أعطى مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علمًا ثم لم يتواضع فيه كما عليه وبالا يوم القيامة. وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالإستكانة أتممها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة. وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقاً من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوّة. ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين إنّ تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين إنّ أمرىء أتاه الله جمالاً في خلقته وموضعاً في حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسى من ماله وتوضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص اولياء الله، فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده. وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذ أصبح تصفح وجوه الأغنياء والإشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين. وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدوّن فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة. روي أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقي مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلاً. وقال مجاهد إنّ الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودى فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه. وقال أبو سليمان: إنّ الله عز وجل أطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلباً أشدّ تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام. وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم إني أخشى أنهم بسببي. ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند

---

(١) حديث: كان بطعم فجاءه رجل أسود به جدري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه. لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر. كما تقدم.

(٢) حديث «إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه» غريب.

(٣) حديث «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة» قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال «التواضع» غريب أيضاً.

(٤) حديث «إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار» غريب أيضاً.

الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال زياد النمري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رحلاً والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوّة أو سعي قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكاً. وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يفلح أبداً. وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت الى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا. فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: إنّ الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل، وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعاً. وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل اليهود ويقال: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب. وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له يا أبا الحسن عظني، فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله! وأحسن من تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل، وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه. وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعاً؟؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه. وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم. وقال يحيى بن معاذ. التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع، ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل. وقال أبو علي الجوزجان النفس معجونة بالكبر والحرص والحد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها، التواضع من نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركته القناعة مع عون الله عز وجل. وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم»(١) ما تكلمت عليكم. وقال الجنيد أيضاً: التواضع عند أهل التوحيد تكبر؛ ولعل مراده أنّ التواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها. وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقالي لي: مالك تنظر إلي؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال إني وقعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس. وقال المغيرة كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء. وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ما خض، وقال هذا من أجلي يصيبكم، لومات عطاء لاستراح الناس. وكان بشر الحافي يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم. ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله وما ترجوه، فقال إنّ الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوماً فقال سلمان لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي

---

(١) حديث «يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة «إذا اتخذ الفيء دولا . . . الحديث» وفيه «كان زعيم القوم أرذلهم . . . الحديث» وقال غريب وله من حديث علي بن أبي طالب «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء» فذكر منها «وكان زعيم القوم أرذلهم» ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة «من اقتراب الساعة إثنان وسبعون خصلة» فذكرها منها وفيهما فرج بن فضالة ضعيف.

الميزان فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيان حقيقة الكبر وآفته

أعلم الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر على العجب - كما سيأتي - فإنّ العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده تصوّر أن يكون الانسان متكبراً، ولا يكفي أن يستعظم نفسه. ليكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لأن هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه، فيحصل في قلبه اعتدادا وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر. ولذلك قال النبي ﷺ: «أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[1] وكذلك قال عمر أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكأن الانسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتعزز. فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضا عزة وتعظما، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿إنْ في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ قال عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بتلك العظمة. ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا، فإنه مهما عظم عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتدّ كبره فإن كان أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته وتقدّم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأ بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عنف في النصح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهزهم وأمتن عليهم واستخدمهم، وينظر الى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً. والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة الى تعدادها فإنها مشهورة. فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2] وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر عزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب المؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر

---

(١) حديث «أعوذ بك من نفخة الكبرياء» تقدم فيه.

(٢) حديث «لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر» تقدم فيه.

على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز: ولا معنى لتطويل فما من خلق ذميم لا وصاحب العز والكبر مضطر اليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع الى البعض لا محالة. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى: ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ إلى قوله: ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ ثم قال: ﴿ أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ ثم أخبر أن أشدّ أهل النار عذاباً أشدّهم عتياً على الله تعالى فقال: ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ وقال تعالى: ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾ وقال عز وجل: ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ وقال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت. وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. ولذلك قال المسيح عليه السلام: إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن طأ طأ أظله وأكنه. فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال: «من سفه الحق وغمص الناس»[1].

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

أعلم أنّ المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق، فإذن التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فإنه كان يحدّث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكي عن جماعة من الجهلة. بل ما يحكي عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى، إذا استنكف أن يكون عبداً لله، ولذلك قال تعالى: ﴿إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ وقال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً ولا الملائكة المقرّبون﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾.

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والإستبصار فيبقي في ظلمة الجهل يكبره فيمتنع عن الإنقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للإنقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكي الله قولهم: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ وقولهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا. ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً. وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ وقال الله تعالى: ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً. قال وهب: قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك، قال حتى أثاروا هامان، فشاور هامان فقال هامان: بينما أنت رب يعبد إذ صرت

---

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمس الناس أخرجه من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال «بطر الحق وغمط الناس» ورواه الترمذي فقال «من بطر الحق وغمض الناس» وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا.

عبد تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو اعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك﴾ وقال الله تعالى: ﴿ ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا﴾ أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدمهم. وقالت قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم، وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ إلى قوله: ﴿ما عليك من حسابهم﴾ وقال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾[1] ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذا لم يروا الذين ازدروهم فقالوا: ﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ قيل يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه ﷺ محقاً، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الإعتراف قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ وقال: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا﴾ وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

القسم الثالث: التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الإنقياد لهم وتدعوه الى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين، أحدهما: أن الكبر والعزّ والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق الا بجلاله، ومثاله: أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت ما أعظم تهدفه للخزي والنكال! وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه! وإلى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته» أي أنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه، إذ يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه. نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون، هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك.

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو الى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمّر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله تعالى فقال: (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ فكل من يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق. وكذلك يحمل ذلك

---

(١) حديث «قالت قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء... الحديث» في نزول قوله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال «فقال المشركون» وقال ابن ماجه «قالت قريش».

على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ قام رجل يأمر بالمعروف فقتل، فقام آخر فقال: يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبراً. وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثمًا إذا قيل له اتق الله قال: عليك نفسك! وقال ﷺ لرجل: «كل بيمينك» قال لا أستطيع، فقال النبي ﷺ: «لا استطعت» فما منعه إلا كبره قال فما رفعها بعد ذلك[1] اي اعتلت يده. فإذن تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضرب ابليس مثلاً لهذا، وما حكاه من أحواله الا ليعتبر به، فإنه قال: أنا خير منه، وهذا الكبر النسب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرّه، ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبداً الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله ﷺ بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله إني امرؤ قد حبب الى من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس»[2] وفي حديث آخر «من سفه الحق»[3] وقوله: «وغمص الناس» أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى «وسفه الحق» هو ردة وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الإستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبي الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيان ما به التكبر

أعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب.

الأول: العم؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء! ولذلك قال ﷺ ولذلك قال ﷺ: «آفة العلم الخيلاء[4]» فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحق الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدءوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم مالا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا. أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء

---

(١) حديث: قال لرجل «كل بيمينك» قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت» الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

(٢) حديث: قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حبب إلّي من الجمال ما ترى... الحديث» وفيه «الكبر من بطر الحق وغمص الناس» أخرجه مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بحديثين.

(٣) حديث «الكبر من سفه الحق وغمص الناس» تقدم معه.

(٤) حديث «آفة العلم الخيلاء» قلت: هكذا ذكره المصنف والمعروف «آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء» هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس «آفة الجمال الخيلاء» وفيه الحسن بن الحميد الكوفي لا يدري من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان.

وعظم خطر العلم فيه ـ كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم ـ وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً، ويقتضي أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليه بالعمل، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم. ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علماً ازداد وجعاً وهو كما قال.

فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً؟

فأعلم أن لذلك سببين: (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو ونصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرّد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبراً ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً.

(السبب الثاني) أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاص في العلم ـ أي علم كان ـ صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة، كذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر تكبراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً على أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً، فالعلم من أعظم ما يتكبر به؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ وقال عز وجل: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ ووصف أولياءه فقال: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وكذلك قال ﷺ فيما رواه العباس رضي الله عنه: «يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا» ثم التفت إلى أصحابه وقال: «أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار[1]» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال: إنه الذبح، وستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا. وصلى حذيفة يقوم فلما سلم من صلاة قال: لتلتمسن إماماً غيري أو لتصلن وحداناً فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟ فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلاً عن الإستفادة من أنفاسه وأحواله؛ لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم، بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضاً إما

---

(١) حديث العباس «يكون قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا. . . الحديث» أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق.

معدوم وإما عزيز. ولولا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا[1]» لكان جديراً بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشرة. فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

(أما في الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ ـ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء ـ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

(وأما في الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً ـ مهما رأى ذلك ـ قال ﷺ «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم[2]» وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شر احتقاره لغيره. قال ﷺ: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم[3]» وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل! وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال! كما روى أن رجلاً في بني إسرائيل كان قال له: خليع بني إسرائيل ـ لكثرة فساده ـ مر برجل آخر يقال له عابد بني إسرائيل، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليج به فقال الخليج في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله يرحمني! فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إلي؟ فأنف منه وقال له: قم عني! فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العلم فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع.

وهذا يعرّفك أنّ الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب. وكذلك روي أن رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطىء على رقبته وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك[4] فأوحى الله إليه أيها المتألي بل أنت لا يغفر الله لك وكذلك قال الحسن: وحتى أن صاحب الصوف أشدّ كبراً من صاحب المطرّز الخز، أي أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد، وعو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الإستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جعل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدّى ويقول: سترون ما يجري عليه؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والإنتقام له منه، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله، وعرف جماعة آذوا الأنبياء

(١) حديث «سيأتي على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا» أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر.
(٢) حديث «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٣) حديث «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «امرؤ من الشر».
(٤) حديث «الرجل من بني إسرائيل الذي وطىء على رقبة عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك الحديث» أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي «والله لا يغفر الله لك أبداً» وهو بغير هذا السياق وإسناده حسن.

صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به. ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين.

(وأما الأكياس من العباد) فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا. وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً؛ وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه، وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على الله بعمله. ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك، فقال: «إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان» فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «أسألك بالله حدّثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك» قال: اللهم نعم[1] فرأى رسول الله ﷺ بنور النبؤة ماستكن في قلبه سفعة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله.

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

(الدرجة الأولى) أن يكون الكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل ما يرى غيره خيراً من نفسه، وهذا قد رسخ بي قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

(الثانية) أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار على من يقر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خدّه للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم؛ إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره [2] فقد كان رسول الله ﷺ: أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً وتبسماً وانبساطاً[3] ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: يعجبني من القرّاء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه يبشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالاً ممن هو في (الرتبة الثالثة) وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل.

أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد. من هو وما عمله ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثني على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أمام الليل وأختم القرآن في

---

(١) حديث: إن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فاقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال: «إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان» الحديث أخرجه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس.

(٢) حديث «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٣) حديث «كان أكرم الخلق وأتقاهم . . . الحديث» تقدم في كتاب أخلاق النبوة.

كل يوم، وفلان ينام سحراً ولا يكثر القراءة، وما يجري مجراه، وقد يزكى نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض، أو ما يجري مجراه، يدعى الكرامة لنفسه. وأما مباهاته: فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوته وعجزهم، وكذلك يشتدّ في العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته: فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه.

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر[1]» كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله ﷺ يقول إنه من أهل النار؟ وإنما العظيم من خلاعين هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له: إن لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأست لها قدراً فلا يدر لك عندنا. ومن لم يعلم هذا من الدين قاسم العالم عليه كذب، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً. فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره: يا نبطي ويا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي؟ ومع مثلي تتكلم؟ وما يجري مجراه. وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحاً وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبي ذر أنه قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل[2]» فقال أبو ذر رحمه الله: فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي. فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وأهل؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل؟ ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي فتخربل التسعة من اهل النار وأنت عاشرهم[3]» وقال رسول الله ﷺ «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد

---

(١) حديث «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر» تقدم.

(٢) حديث أبي ذر: قابلت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له يا ابن السوداء... الحديث» أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي ﷺ قال له: «أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى».

(٣) حديث «إن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك؟... الحديث» أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد موقوفاً على معاذ بقصة موسى فقط.

صاروا فحمًا في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تذرف بآنافها القذر[1]».

الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة فقال النبي ﷺ: «قد اغتبتها[2]» وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت.

الخامس الكبر بالمال؛ وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له: أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك، ومن أنت؟ وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك؟ وأنا أنفق في اليوم مالاً تأكله في سنة؟ وكل ذلك لاستعظامه للغني واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغني، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً﴾ حتى أجابه فقال ﴿إن ترني أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾ وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ .

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالإتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين، لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به، أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده. وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن تسمى تكبراً ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر ـ كما سيأتي معناه ـ فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه إستعظم وتكبر.

---

(١) حديث «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحمًا في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان... الحديث» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث عائشة: دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا، أي أنها قصيرة... الحديث. تقدم في آفات اللسان.

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر وسبب في المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبر فهو: العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد، والحسد. والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الإعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء. (أما العجب) فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال. (وأما الحقد) فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له؟ ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه، ولا يسأله عما هو جاهل به.

(وأما الحسد) فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكنه الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

(وأما الرياء) فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الإستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الإحتقار، وهو إن سمي متكبراً فلأجل التشبه بأفعال الكبر. نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

إعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال علي كرّم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام. وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك[1].

---

(١) حديث أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له. الحديث تقدم في آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة.

ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد، وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم[1]» إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين[2].

ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه؟.

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي روّاد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني؟ وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء[3]

ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر: دخل رجل ـ وعليه جدري قد تقشر ـ على رسول الله ﷺ وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه.[4] وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلي إلا أقعدهم على مائدته.

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه: روي أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أوّل نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء! وخير الناس من كان عند الله متواضعاً.

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك[5] وقال علي كرّم الله وجهه: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله وكان أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير يحمل سطلاً له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذٍ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك! وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت علياً رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

---

(١) حديث: كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أخرجه منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً: أنه خرج يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال «إني سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر» وهو منكر فيه جماعة ضعفاء.

(٢) حديث: إخراجه الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخليع قلت: المعروف نوع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة وليس الأنبجانية، وكلاهما تقدم في الصلاة.

حديث أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ الحديث تقدم في آداب المعيشة.

(٤) حديث: الرجل الذي به جدري وإجلاسه إلى جنبه تقدم قريباً.

(٥) حديث حمله متاعه إلى بيته. أخرجه أبو يعلي من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله وتقدم.

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي ﷺ: «البذاذة من الإيمان[1]» فقال هارون: سألت معناً عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم وعوتب علي كرّم الله و جهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب وقال طاووس: إني لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين. ويروي أنّ عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل ن يستخف تشتري له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها: فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه! فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال إن لي نفساً ذوّاقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عزّ وجلّ. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدّة وإن أفضل العفو عند القدرة وقال ﷺ: «من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخر له عبقري الجنة[2]»

فإن قلت: فقد قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب. وقد سئل نبينا ﷺ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال: «لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس[3]» فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أنّ الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ وهو الذي عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال: إني امرؤ حبب إلى من الجمال ما ترى[4] فعرف أنّ ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع. وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان. وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنور داره، فذلك ليس من التكبر. فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أنّ قوله: خيلاء القلب؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا ﷺ: إنه ليس من الكبر» يعني أنّ الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر. وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداء. وقد قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير سرف ولا مخيلة[5]». «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده[6]» وقال بكر بن عبد الله المزني: ألبسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية، وإنما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح. وقد قال عيسى عليه السلام: مالكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري؟ ألبسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية.

ومنها أن يتواضع بالإحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن

---

(١) حديث «البذاذة من الإيمان» أخرجه أبو داود وابن ماجه حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم.

(٢) حديث «من ترك زينة الدنيا ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله... الحديث» أخرجه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس «من ترك زينة لله... الحديث» وفي إسناده نظر.

(٣) حديث: سئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر؟ فقال «لا» الحديث تقدم غير مرة.

(٤) حديث: إن ثابت بن قيس قال للنبي ﷺ: إني امرؤ حبب إليّ الجمال... الحديث. هو الذي قبله سمي فيه السائل وقد تقدم.

(٥) حديث «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة» أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٦) حديث «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضاً وقد جعلهما المصنف حديثاً واحداً.

السلف من إحتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فيه فينبغي أن يقتدي به ومنه ينبغي أن يتعلم. وقد قال أبو سلمة. قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ في بيته، كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي كـان ان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا جشف الدقل، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدّثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلىء قط شبعاً ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظل جائعاً يلتوي ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمة له مما أوتى من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفدا لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: «يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم فأصبر أياماً يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي» قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عزّ وجلّ[1].

فما نقل من أحواله ﷺ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله ﷺ ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشدّ جهله! فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عزّ ولا رفعة إلا في الإقتداء به ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العزّ في غيـره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: أعلم أنّ لله عباداً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد ﷺ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم إبتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون صدّيقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكة وأسخاهم نفساً، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مدامين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل

---

(١) حديث أبي سعيد الجدري وعائشة: قال الخدري لأبي سلمة عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته كان يعلف الناضح... الحديث. وفيه: قال أبو سلمة فدخلت عليّ عائشة فحدثتها بذلك عن أبي سعيد فقالت: ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلىء قط شبعاً... الحديث بطوله لم أقف له على إسناد.

المجراة، قلوبهم تصعد إرتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ قال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشدّ علي من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة، واعلم يا ابن أخي أنّ ذلك في كتاب الله تعالى المنزل ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ قال يحيى بن كثير: فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته. اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارْتضيته. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان (أحدهما) استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب. (الثاني) دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

(المقام الأوّل) في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى ﴿قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره﴾ فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حيز العدم دهوراً بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كسا العظم لحمًا، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوّته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله ﴿من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره﴾ ومعنى قوله ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ كذلك خلقه أولاً ثم أمتن عليه فقال ﴿ثم السبيل يسره﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدّة حياته إلى الموت. وكذلك قال ﴿من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً تراباً أولاً ونطفة ثانياً، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقوّاه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العرى، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره

وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ بعد العدم وحياً بعد الموت وناطقاً بعد البكم وبصيراً بعد العمى وقوياً بعد الضعف وعالماً بعد الجهل ومهدياً بعد الضلال وقادراً بعد العجز وغنياً بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئاً. وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا ولذلك أمتن عليه فقال ﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين﴾ وعرف خسته أولاً فقال ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة﴾ ثم ذكر عليه فقال: ﴿فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولاً بالإختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوّض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة، من المرّة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى رضي أم سخط، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يرصف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالإضطرار، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليلة أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطرّ ذليل إن ترك بقي وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ﴿ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جماداً كما كان أوّل مرة، لا يبقى إلا شكل أعضاءه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنه قذرة كما كان في الأوّل نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاؤه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما وبخدّيه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثاً أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدّة الإنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمل منه البليان، فيصير مفقوداً بعد ما كان موجوداً. وصار كأن لم يغنَ بالأمس حصيداً كما كان في أوّل أمره أمداً مديداً، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً. لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة فيقال له ﴿إقرأ كتابك﴾ فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعلمه من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والأشر؟ فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقي عذاباً، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق. ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحارالدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو - كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً إستحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظنّ به ولا قوة إلا بالله. أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا؟ كيف يكون ذله في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً. فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى إنه: «كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد[1]» وقيل لسلمان. لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً أشار به إلى العتق في الآخرة. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً، وقيل الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها ن التواضع بالمثول قائمًا وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الإنحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام: بايعت النبي ﷺ على أن أخر الا قائما فبايعه النبي ﷺ ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك[2] فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائمًا هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر الإرتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت (المقام الثاني) فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة.

الأوّل: النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أمرين (أحدهما) أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

---

(١) حديث: كان يأكل على الأرض ويقول «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد» تقدم في آداب المعيشة.
(٢) حديث حكيم بن حزام: بايعت رسول الله ﷺ على أن لا أخر إلا قائمًا. الحديث رواه أحمد مقتصراً على هذا وفيه إرسال خفي.

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول: الفضل لي: ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي؟ أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات! بل هما متساويان والشرف للإنسان للدودة. (الثاني) أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنوناً كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: إفتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعه لولده؟ فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل. وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدوله لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم، أفترى أن ذلك يبقى شيئاً من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزى لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في أمعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبزاق في فيه والوسخ في أذنيه والدم في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه.

وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور، من النطفة ودم الحيض، وأخرج من مجرى الأقذار. إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال أنس رحمه الله: كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين: وكذلك قال طاووس لعمر بن عبد العزيز. ما هذه مشية من في بطنه خراء؟ إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوّله ووسطه.

ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط. فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن في أقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي. فبينما هو كذلك إذ صار هشيمًا تذروه الرياح، كيف ولو كان جماله باقياً وعن هذه القبائح خالياً لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له بل

هو في كل حين يتصوّر أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوّة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه وأن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلل من قوّته ما لا ينجبر في مدّة. فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أنّ يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوّته! ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟

السبب الرابع والخامس: الغني وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوّة والعلم. وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولاية لا بصفة في نفسه بني أمره على قلب هو أشدّ غلياناً من القدر، فإن تغير عليه كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودي! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟ فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاجر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء. ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوّته وجماله وماله وحرّيته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأنّ أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكاً، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص البتة، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوّته وكماله أم يذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك، فمن هذا حاله لا يتكبر بقوّته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوّه. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما، ولكن التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدّة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الناس، وهو اعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل. ولذلك قال كعب الأحبار: إنّ للعلم طغياناً كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين: (أحدهما) أن يعلم أنّ حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشرة من العالم،

فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال ﷺ: «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتيه[1]» وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عزّ وجلّ ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم بن باعوراء ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ حتى بلغ ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوتي بلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فمثله بالكلب ﴿إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر إشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه. فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول: يل ليتني لم تلدني أمي! ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة! ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أوكل! ويقول الآخر: يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً! كل ذلك خوفاً من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من الطير ومن التراب. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها، فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أنّ سيده أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلاً ويلقيه على بابه في الحرّ والشمس زماناً طويلاً، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك إنكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

(الأمر الثاني) أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عزّ وجلّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي، فلا بدّ وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقين أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام أذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد،

---

(١) حديث «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقي في النار فتندلق أقتابه... الحديث» متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ «يؤتى بالرجل» وتقدم في العلم.

وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه، أذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكبر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين؟ إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة. فإذن مِّن حق العبد أن لا يتكبر على أحد. بل إن نظر إلى جاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني. وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إلى، كما لم يكن ابتداؤها إلي؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه! ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقه كل إنسان على نفسه. فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرّغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر، إذ شغل كل واحد نفسه عن الإلتفات إلى هم غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شراً والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون.

والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور: (أحدّهما) التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في علينك. (والثاني) أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر. (والثالث) ملاحظة إبهام عاقبتك، وعاقبتك أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرّة عينه، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضر به مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه. فإن كان الغلام محباً مطيعاً لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه

أمره به، ولأنه يريد التقرّب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قـدر نفسه، لأن الولد أعز لا محلة من الغلام. فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظنّ أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع بل عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدّم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفـما كان: «لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابي[1]» إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

فإن قال العابد: ذلك العالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر، فيقال له: أما عرفت أنّ الحسنات يذهبن السيئات، وكما أنّ العلم يمكن أن يكون حجة على العلم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفاره لذنوبه، وكل واحد منها ممكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» فاعلم أن ذلك كان ممكناً لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفاً على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستوريـن وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل عنه ذنوباً وأكثر منه عبادة وأشد منه حباً لله. وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك. فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنباً، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أنّ ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خالٍ عنه، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

---

(١) حديث «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وتقدم في العلم.

وقد قال وهب بن منبه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعدّ تسعة حتى بلغ العاشر فقال: العاشرة! وما العاشرة! بها شاد مجده وبها علا ذكره؛ أن يرى الناس كلهم خيراً منه. وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ويقوم لعل بر هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، ويرى ظاهر فذلك شر لي. فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثم قال: فحينئذٍ كمل عقله وساد أهل زمانه. فهذا كلامه. وبالجملة فمن جوّز أن يكون عند الله شقياً وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال.

نعم إذا غلب الخوف رأى كل أحد خيراً من نفسه وذلك هو الفضيلة، كما روى أن عابداً آوى إلى جبل فقيل له في النوم: أئت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانياً فقيل له: أئت فلاناً الإسكاف فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي: أنه سينجو وأهلك أنا. فقال العابد: بهذه.

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى ﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ وقال تعالى ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤوب بالإشفاق فقال تعالى مخبراً عنهم ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم من خشيته مشفقون﴾ فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل - وينكشف عند خاتمة الأجل - غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك. والتواضع دليل الخوف وهو مسعد؛ فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الإستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس إمتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الإمتحانات كثيرة.

الإمتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه: «فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والإنقياد له والإعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الإعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الإستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس، ويذكر القلب أن بمنفعته في كماله في

ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني. فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان.

الإمتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل وقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على صدور المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالإستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الإمتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا الخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الإمتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلق الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ويروي عن عبد الله بن سُلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنتك ما يكفيك! قال: أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جرّبها أهي صادقة أم كاذبة؟ وفي الخبر: «من حمل الفاكهة أو الشيء فقد بريء من الكبر[1]».

الإمتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل، وقد قال ﷺ: «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد بريء من الكبر[2]» وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعقل البعير وألعق أصابعي وأجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنتي فليس مني[3]». وروي أنّ أبا موسى الأشعري قيل له إنّ أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس. وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر؛ فأعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

إعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن فير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله

(١) حديث «من حمل الشيء والفاكهة فقد بريء من الكبر» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ «من حمل بضاعته».

(٢) حديث «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد بريء من الكبر» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم اليعمري ضعيف جداً.

(٣) حديث «إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف... الحديث» تقدم بعضه ولم أجد بقيته.

فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع: أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه اسكافي فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل؛ وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره. فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير رؤية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

الشطر الثاني: من الكتاب في العجب، وفيه بيان ذم العجب وآفاته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيان ذم العجب وآفاته

إعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. قال الله تعالى ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عزّ وجلّ ﴿وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل. وقد يعجب الإنسان بالعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه. وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه[1]» وقال لأبي ثعلبة ـ ذكر آخر هذه الأمة فقال ـ إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك[2]». وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين القنوط والعجب. وإنما جُمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى. فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما. وقد قال تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ قال ابن جريج: معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت. وقال زيد بن أسلم. لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله ﷺ يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه، فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه

---

(١) حديث «ثلاث مهلكات . . . الحديث» تقدم غير مرة.
(٢) حديث أبي ثعلبة «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم.

حتى جرح، فتفرس ذلك عمر فيه فقال. مازال يعرف في طلحة أو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله ﷺ[1] والنأو: هو العجب ـ في اللغة ـ إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلمًا ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة؟ قال: ذلك رجل فيه نخوة. فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟ وقال مطرف: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادماً أحب إلي من أبيت قائمًا وأصبح معجباً. وقال ﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب[2]» فجعل العجب أكبر الذنوب. وكان بشر بن منصور من الذين إذا رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة، فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف عن الصلاة قال له: لا يعجبك ما رأيت مني، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدّة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه. وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً: قالت؟ إذا ظن أنه محسن، وقد قال تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب. فظهر بهذا أن العجب مذموم جدّاً.

بيان آفة العجب

إعلم أنّ آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه ـ كما ذكرناه ـ فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفي، هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغنٍ عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا عجب بها عمى عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً، فأنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان وأنّ له عند الله منة وحقاً بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الإستفادة ومن الإستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الإستجهال ويصر على خطئه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق. فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

---

(١) حديث «وقى طلحة رسول الله ﷺ بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه» أخرجه البخاري من رواية قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقي بها النبي ﷺ.

(٢) حديث «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب» أخرجه البزار وابن حيان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبي الصهباء قال البخاري منكر الحديث. وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما

اعلم أنّ العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان (إحداهما) أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكدّره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب (والأخرى) أن لا يكون خائفاً من زواله لكن يكون فرحاً به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضاً ليس بمعجب (وله حالة ثالثة) هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه. فإذن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقاً وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه إستبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، وكذلك قد يعطى غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً، فإن استخدمه أو اقترح عليه الإقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه.

وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي لا تدل بعملك وفي الخبر: «إنّ صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك[1]» والإدلال وراء العجب، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالإستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك. فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدّمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضدّة، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوّة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه.

فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوّته؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلى بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمة، فينبغي أن يتعجب

---

(١) حديث «إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه... الحديث» لم أجد له أصلاً.

المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولا ينبغي أن يعجب بنفسه. نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول: الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب، فلولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها، فيقال: وتلك الصفة أيضاً هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك، من غير وسيلة، أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها، بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجب به، فأعطاك غلاماً فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلاماً لأني صاحب فرس فأما غيري فلا فرس له، فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معاً أو يعطيك أحدهما بعد الآخر! فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك. وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة، وهذا يتصوّر في حق الملوك ولا يتصوّر في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أعجبت بعادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له، فيقال: ومن خلق الحب في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده إبتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيله لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك! فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضاً من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي وإني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثواباً، ولولا أنها عملي لما انتظرت ثواباً، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الإختراع فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرته فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين (أحدهما) هو صريح الحق (والآخر) فيه مسامحة.

أما صريح الحق: فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي﴾ فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين، بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضاءك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك مُعه في الإختراع، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علماً بالمراد، ولم يخلق علماً ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت. وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه.

ونحن الأن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المتفاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة. أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها، ولو أعطاك المفتاح لأخذته كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد وأخذها؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح. فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل

بك فالعمل هين عليك، وتحريك البواعث وصرفي العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاء بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك! فإذن لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً فله الشكر والمنة لا لك ـ وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب ـ إذا رزقه الله عقلاً وأفقره ـ ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل؟ حتى يكاد يرى هذا ظلمًا، ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال، إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما؟ وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إنّ عقل الرجل محسوب عليه من رزقه. والعجب أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالاً من نفسه، ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضاً عن عقلك وفقرك لامتنع عنه! فإذن ذلك يدل على أنّ نعمة الله عليه أكبر؛ فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح؟ ولا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال؟ فإذن نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه: يا رب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال؟ كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول: أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس! فهب أني ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنّ العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة إبتدأه بها قبل الإستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة ومن عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنّ ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام: يا رب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم ـ وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك ـ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ومن أين لهم ذلك! إنّ ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك، قال ابن عباس: إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه، فأذنب ذنباً أورثه الحزن والندم. وقال داود: يا رب إنّ بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحق ويعقوب، فقال: إني ابتليتهم فصبروا، فقال: يا رب وأنا إن ابتليتني صبرت، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى: فإني لم أخبرهم بأي شيء أبتليهم ولا في أي شهر ولا في أي يوم، وأنا مخبرك في سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك، فوقع فيما وقع فيه. وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين على قوّتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا نغلب اليوم من قلة[1] وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم

---

(١) حديث: قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلاً: أن رجلاً قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله عزّ وجل ﴿ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم» ولابن مردوية في تفسيره من حديث أنس: لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا: اليوم نقاتل؛ ففروا. فيه الفرح بن فضالة ضعفه الجمهور.

الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾. روى ابن عيينه أن أيوب عليه السلام قال: إلهي إنك إبتليتني بهذا البلاء وما ورد علي أمر إلا آثرت هواك على هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت. يا أيوب أنى لك ذلك؛ أي من أين لك ذلك؟ قال: فأخذ رماداً ووضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى. ولهذا قال الله تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً﴾ وقال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس: «ما منكم من أحد ينجيه عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته[1]» ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً وتبناً وطيراً مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟ فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب. ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول: إنّ من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطي من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتدّ ومطيع قد فسق وختم له بسوء! وهذا لا يبقى معه عجب بحال، والله تعالى أعلم.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أنّ العجب بالأسباب التي بها يتكبر - كما ذكرناه - وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله. فما به العجب ثمانية أقسام:

(الأوّل) أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته، وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أوّل أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

(الثاني) البطش والقوّة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم (من أشدّ منا قوّة) وكما اتكل عوج على قوّته وأعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه، وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة إمرأة! ولم يقل إن شاء الله تعالى، فحرم ما أراد من الولد[2] وكذلك قول داود عليه السلام: إن ابتليتني صبرت، وكان إعجاباً منه بالقوة، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر. ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه، وهو أن يعلم أنّ حمى يوم تضعف قوته! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الإستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالإسغناء بالرأي والعقل واستحقاراً لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه،

---

(١) حديث «ما منكم من أحد ينجيه عمله... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: قال سليمان: لأطوفن الليلة بمائة امرأة... الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري. فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجباً.

(الرابع) العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإزدراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ولما قيل لرسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل: من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: «أكرمهم أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً[1]» وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال: الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة؟ فقال تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقال النبي ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية - أي كبيرها - كلكم بنو آدم وآدم من تراب[2]» وقال النبي ﷺ: «يا معشر قريش لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا - أي أعرض عنكم -[3]» فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش. ولما نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) ناداهم بطناً بعد بطن، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ إعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً[4]» فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع إقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه - بلسان حاله - مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

فإن قلت: فقد قال ﷺ بعد قوله لفاطمة وصفية: «إني لا أغني عنكما من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها[5]» وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب»[6] فذلك يدل

---

(١) حديث: لما قيل له: من أكرم الناس من أكيس الناس؟ قال «أكثرهم للموت ذكراً... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله «وأكرم الناس» وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب.

(٢) حديث «إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية... الحديث» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي أيضاً من حديث ابن عمر وقال غريب.

(٣) حديث «يا معشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال بوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها رقابكم... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال: يا معشر بني هاشم وسنده ضعيف.

(٤) حديث لما نزل قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال «يا فاطمة بنت محمد يا سنية بنت عبد المطلب... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة.

(٥) حديث: قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية «ألا إن لكما رحماً سأبلها ببلالها» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

(٦) حديث «أترجو سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جداً.

على أنه سيخصص قرابته بالشفاعة؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله ﷺ، والنسيب أيضاً جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتدّ عليه غضب الملك، فمن الذنوب ما لا ترتجى منه الشفاعة وعنه العباد بقوله تعالى﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وبقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وبقوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وبقوله ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وإذا انقسمت الذنوب إلا ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة ولما نهى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها عن المعصية، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة. فالإنهماك في الذنوب وترك التقوى إتكالاً على رجاء الشفاعة يضاهي إنهماك المريض في شهواته إعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل لأن سعى الطبيب وهمته وحدقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً إعتماداً على مجرّد الطب، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج. فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعاً، وذلك لا يزيل الخوف والحذر، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم؟

(الخامس) العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وانتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الإنتساب إليهم، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً واستحقاراً لهم، ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الإنتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم وسيغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين! فأما العجب فجهل محض.

(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار ﴿نحن أكثر أموالاً وأولادا﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم من قلة، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً. ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشيرة، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئاً وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ الآية. فأي خير فيمن يفارقك في أشدّ أحوالك ويهرب منك؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك.

(السابع) العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام: «أخشيت أن يعدو إليك فقره[1]» وذلك للعجب بالغنى، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[2]» وأشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذرّ، كنت مع رسول الله ﷺ فدخل المسجد فقال لي: «يا أبا ذرّ إرفع رأسك» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال: «إرفع رأسك» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي: «يا أبا ذرّ هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا[3]» وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى، فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله؟

(الثامن) العجب بالرأي الخطأ. قال الله تعالى ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ وقال تعالى ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ: «أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة[4]» وبذلك هلكت الأمم السالفة إذا افترقت فرقاً فكل معجب برأيه ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾ وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظنّ كونه حقاً، وعلاج هذا العجب أشدّ من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً. لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجباً برأيه وجهله فإنه لا يصغى إلى العارف ويتهمه، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهمًا لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشمر في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرّع لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغي إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل، بل يقول آمنا وصدّقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر. هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم، فأما الذي عزم على التجرّد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جداً فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الإغترار بخيالات الجهال.

---

(١) حديث: رأى النبي ﷺ رجلاً غنياً جلس لجنبه فقير فانقبض منه... الحديث. رواه أحمد في الزهد.

(٢) حديث «بينما رجل في حلة قد أعجبته نفسه... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٣) حديث أبي ذر: كنت مع النبي ﷺ فدخل المسجد فقال لي: «يا أبا ذر إرفع رأسك» فرفعت رأسي... الحديث. وفيه «هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا» أخرجه ابن حيان في صحيحه.

(٤) حديث «إنه يغلب على آخر هذه الأمة الإعجاب بالرأي» هو حديث أبي ثعلبة المتقدم «فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك» وهو عند أبي داود والترمذي.

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور، ومورد أعدائه ورطات الغرور، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور، صلاة تتوالى على ممرّ الدهور ومكرّ الساعات والشهور.

أما بعد: فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة والغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم ﴿كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ والمغترون قلوبهم ﴿كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء. والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه، فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره.

ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذي اغتروا بمبادىء الأمور، الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الإستقصاء، وفرق المغترين كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف (الصنف الأول) من العلماء (الصنف الثاني) من العباد (الصنف الثالث) من المتصوفة (الصنف الرابع) من أرباب الأموال. والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المسجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر، كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة. ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده.

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

إعلم أن قوله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وقوله تعالى ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾ الآية. كافٍ في ذم الغرور، وقد قال رسول الله ﷺ: «حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين[1]» وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[2]» وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور، بل يستدعي الغرور: مغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به وهو الذي يغره. فمهما كان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سمي الجهل الحاصل به غروراً. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور.

(المثال الأول) غرور الكفار، فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور، أما الذين غرتهم الحياة الدنيا: فهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهي إذن خير فلا بد من إيثارها، وقالوا: اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان؛ أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ﴾ وفي قوله عزّ وجلّ ﴿وما عند الله خير﴾ وقوله ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ وقوله ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ وقوله ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان[3]، ومنهم من قال: نشدتك الله أبعثك الله رسولاً؟ فكان يقول: «نعم» فيصدق[4] وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور، وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنه لا يدري وجه كونه خيراً. وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان، فإن كان مغروراً فلغروره سبب، وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر

كتاب ذم الغرور

(١) حديث «حبذا نوم الأكياس وفطرهم... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفي بعض الروايات: أبي الورد، موضع أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً.

(٢) حديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت... الحديث» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.

(٣) حديث: تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله ﷺ وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور في السنن، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم وهي عند أحمد من حديث جابر وفيه: حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه... الحديث» وهي عند أحمد بإسناد جيد.

(٤) حديث: قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولاً؟ فيقول «نعم» فيصدق. متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام ابن ثعلبة وقوله للنبي ﷺ آلله أرسلك للناس كلهم؟ فقال «اللهم نعم» وفي آخره: فقال الرجل آمنت بما جئت به وللطبراني من حديث ابن عباس في ضمام قال: نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى؟ قال «نعم» الحديث.

على نظمه بألفاظ العلماء. فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان (أحدهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح (والآخرة) قوله: إن النقد خير من النسيئة، وهذا محل التلبيس فليس الأمر كذلك، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير، فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل؛ فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة. والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فأنسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة، بإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة. فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حدّ وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة، فإذن قد غلط في قوله: النقد خير من النسيئة، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص، فغفل به المغرور عن خصوص معناه. فإن من قال: النقد خير من النسيئة، أراد به خيراً من نسيئة هي مثله وإن لم يصرح به.

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو: أن اليقين خير من الشك إذاً الآخرة شك وهذا القياس أكثر فساداً من الأول لأن كلا أصلية باطل، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله، وإلا فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك والمتفقه في جهاده على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك والصياد في تردده في المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك، وكذا الحزم دأب العقلاء بالإتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك، ولكن التاجر يقول: إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضرري، وإن اتجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين، ولكن يقول: ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت، فكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذباً؛ فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم، فأحسب أني بقيت في العدم. وإن كان ما قيل صدقاً، فأبقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق. ولهذا قال علي كرّم الله وجهه لبعض الملحدين: إن كان ما قلته حقاً فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكت: وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقناً فهو مغرور.

وأما الأصل الثاني من كلامه: وهو أن الآخرة شك، فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين ليقينه مدركان.

أحدهما: الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك أيضاً يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به، ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب، فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمهم بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً، فكذلك من نظر إلى المقرّبين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم

ترك الشهوات وعظم عليهم الإعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغني الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء. وهذا القدر من الإيمان كافٍ على الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به.

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء، ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه، كما أن معرفتك تقليد للنبي ﷺ حتى تكون معرفتك مثل معرفته، وإنما يختلف المقلد فقط وهيهات! فإنّ التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد. وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذي يقابل النهي؟ لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق، ولله الخلق والأمر، فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الأمر الخلق إذا الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان، وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذي منع من إفشائه. فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم ﷺ وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فإنها في جوار الرب تعالى، وأنه أمر رباني وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه. ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم. يقال: فسقت الرطبة عن كمامها؛ إذا خرجت عن معدنها الفطري. وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فإنها تضربهم كما تضر رياح الورد بالجعل، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش. وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية، ويسمى صاحبه ولياً وعارفاً، وهي مبادىء مقامات الأنبياء. وآخر مقامات الأولياء أوّل مقامات الأنبياء ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي، وأما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن، والمؤمنين بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، نعم أمرهم أخف لأنّ أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين، ولكنهم أيضاً من المغرورين فإنهم اعترفوا بأنّ الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز قال تعالى ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ وقال تعالى ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ ثم قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه[1]» وقال تعالى ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعاً لا بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضاً مغرورون أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين

---

(١) حديث «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم.

لها. الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعاً.

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله: فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم: إنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظاً فيه وأسعد حالاً، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال ﴿وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً﴾ وجملة أمرهما كما نقل في التفسير: أن الكافر منهما بنى قصراً بألف دينار واشترى بستاناً بألف دينار وخدماً بألف دينار وتزوّج إمرأة على ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول: اشتريت قصراً يفنى ويخرب ألا اشتريت قصراً في الجنة لا يفنى! واشتريت بستاناً يخرب ويفنى ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفنى وخدماً لا يفنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول: ما هناك شيء وما قيل من ذلك فهو أكاذيب! وإن كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا. وكذلك وصف الله تعالى قول العاص ابن وائل إذ يقول ﴿لأوتين مالاً وولدا﴾ فقال الله تعالى رداً عليه ﴿أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً كلا﴾ وروي عن خباب بن الأرت أنه قال: كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت: إني آخذه في الآخرة؛ فقال لي: إذا صرت إلى الآخرة فإنَ لي هناك مالاً وولداً أقضيك منه. فأنزلَ الله تعالى قوله ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً[1] ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى ﴾ وهذا كله من الغرور بالله.

وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ فقال تعالى جواباً لقولهم ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ ومرة ينظرون إلى المؤمنين؛ وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم، فيقولون ﴿أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾ ويقولون ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضاً في المستقبل كما قال الشاعر:

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول: لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلي. والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب، لا بل تحت ظنه أنّ إنعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل على الكرامة بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان. ومثاله: أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب، ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه. والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشهي، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنعه ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله: «فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه[2]» هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر.

---

(١) حديث: خباب بن الأرت، قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه. الحديث. في نزول قوله تعالى ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآية أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) حديث «إن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه... الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة.

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقرقالوا: مرحباً بشعار الصالحين. والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظنّ أنها كرامة من الله، وإذا صرفت عنه ظن أنها هو أن، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ فأجاب الله عن ذلك (كلا) أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت، فبين أنّ ذلك غرور. قال الحسن كذبهما جميعاً بقوله (كلا) يقول ليس هذا بإكرامي ولا هذا بهواني، ولكنّ الكريم من أكرمته بطاعتي غنياً كان أو فقيراً، والمهان من أهنته بمعصيتي غنياً كان أو فقيراً.

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد (أما البصيرة) فبأن يعرف وجه كون الإلتفات إلى شهوات الدنيا مبعد عن الله ووجه كون التباعد عنها مقرّباً إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة (وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق) فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدّق رسوله وقد قال تعالى ﴿أيحسبون أن ما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ وقال تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ وقال تعالى ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون﴾ وفي تفسير قوله تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ وقال تعالى ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم إبتداء ثم دمرهم تدميراً! فقال تعالى ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ وقال تعالى ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ وقال تعالى ﴿إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكراً منه وكيداً مع أنّ السيد لم يحذره مكره نفسه، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره إستدراجه أولى، فإذن من أمن مكر الله فهو مغتر، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الإحتمال لا يوافق الهوى، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حدّ الغرور.

(المثال الثاني) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أنّ الرجاء مقام محمود في الدين وأنّ نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم، وأين معاصي العباد في بحار رحمته وإنا موحدون ومؤمنون؟ فنرجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم، كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون. وذلك نهاية الإغترار بالله تعالى. فقياس الشيطان للعلوية. أنّ من أحب إنساناً أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة، وينسى المغرور أنّ نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المغرقين ﴿فقال رب إن ابني من أهلي﴾ فقال تعالى ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه. وأن نبينا ﷺ وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في

الزيارة ولم يؤذن له في الإستغفار، فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله[١] فهذا أيضاً إغترار بالله تعالى وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع يبغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد عاصي بحبه للأب المطيع، ولو كان الحب يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضاً بل الحق أن لا تز وازرة وزر أخرى. ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروي بشرب أبيه، ويصير عالماً بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه. فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً وكذا العكس، وعند الله جزاء التقوى ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه﴾ إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتدّ غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له ـ كما سبق في كتاب الكبر والعجب.

فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة والفجار إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب؟ فأعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب، ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[٢]» وهذا هو التمني على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه. رجاء، حتى خدع به الجهال. وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿أن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ يعني أنّ الرجاء بهم أليف وهذا لأنه ذكر أنّ ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ أفترى أنّ من استؤجر على إصلاح أوان وشـرط له إجرة عليها وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أنّ المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أوراجياً؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرّة. قيل للحسن: قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيهم يترجحون فيها، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه. وقال مسلم بن يسار: لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي! فقال له رجل: إنا لنرجو الله! فقال مسلم: هيهات هيهات؟ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه. وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل! فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحاً أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور. فكما أنه إذا نكح ووطىء وأنزل بقي متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي متردداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيل ـ ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحاً فقد علمنا الآن صدقك في قولك ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ـ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾ أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه ﴿توفى كل

---

(١) حديث: أنه ﷺ استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار. الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: الكيس من دان نفسه تقدم قريباً.

نفس ما كسبت﴾ وأن ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير﴾ .

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟ فاعلم أنه محمود في موضعين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى (فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر ﴿إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ وأنّ الله كريم يقبل التوبة عن عبادة وأنّ التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم﴾ أمرهم بالإنابة وقال تعالى ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راجٍ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان: إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راجٍ، وإن استمرّ على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فالرجاء الأوّل: يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني: يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان: مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم؟ فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرّة، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد، مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنته في عباده وقد خوّفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف اغتر به؟.

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور فقد أخبر ﷺ وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة[1] وقد كان ما وعد به ﷺ فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجعون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينى فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن

---

(١) حديث «إن الغرور يغلب على آخر هذه الأمة» تقدم في آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبي ثعلبة. في إعجاب كل ذي رأي برأيه.

يسار: «يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعاً لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال: يتقبل مني، وإن أساء قال: يغفر لي[1]» فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه. وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ ومعناه أنهم (ورثوا الكتاب) أي هم علماء (ويأخذون عرض هذا الأدنى) أي شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً. وقد قال تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدِ ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهذونه هذا، يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرءون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الإلتفات إلى معانيه والعمل بما فيه وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدّق به من أموال المسلمين! وهو يتكل عليه ويظنّ أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدّق بعشرة من الحرام أو الحلال، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله. نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته إنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين، يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان. وذلك محض الغرور. ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخة! فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه! ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها، لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين! فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدّنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقي ولا يغتر به إتكالاً على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى، والله أعلم.

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول: أهل العلم والمغترون منهم فرق:

(ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها من المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا

---

(1) حديث: معقل بن يسار «يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل.

يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أنّ العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة؛ وهو العلم بالله وبصفاته، المسمى بالعادة: علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. فمثال هذا: كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكرّرها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أنّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً؟ هيهات هيهات! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرّره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً، إلا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته، ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الإحتماء وجميع شروطه، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلاً؟ فمهما ظن أنّ ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره. وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور، إذ قال تعالى (قد أفلح من زكاها) ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس! وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرنك هذا المثال فإنّ العلم بالدواء لا يزيل المرض، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب، ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم. فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل، وإن كان كيساً فيقول للشيطان: أتذكرني فضائل العالم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ وكقوله تعالى ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار؟ وقد قال ﷺ: «من ازداد علمًا ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً[١]» وقال أيضاً: «يلقى العالم في النار فتندلق أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى[٢]» وكقوله عليه الصلاة والسلام: «شر الناس علماء السوء[٣]» وقول أبي الدرداء: ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات، أي أنّ العلم حجة عليه إذ يقال له: ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله؟ وقال ﷺ: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه[٤]» فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور، فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشدّ من حال الجهال. فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور.

وأما الذي يدعي علوم المكاشفة: كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشدّ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله

(١) حديث «من ازداد علمًا ولم يزدد هدى... الحديث» تقدم في العلم.
(٢) حديث «يلقي العالم في النار فتندلق أقتابه... الحديث» تقدم غير مرة.
(٣) حديث «شر الناس علماء السوء» تقدم في العلم.
(٤) حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه» تقدم فيه.

وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه، وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك، عاطلاً عن جميع ما يحبه، متوسلاً إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته. فهذا مغرور جداً إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والإختصاص به، بل تقصيره في التقوى وإتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني، إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه. فلا يتصوّر أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع. ولذلك قال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وفاتحة الزبور «رأس الحكمة خشية الله» وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً وكفى بالإغترار بالله جهلاً. واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال: وهل رأيت فقيهاً قط؟ الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا. وقال مرة: الفقيه لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله. فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم «ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين.

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاء والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى قوله ﷺ: «أدنى الرياء شرك[1]» وإلى قوله عليه السلام: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر[2]» وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[3]» وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل[4]» إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة. فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[5]» فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب ـ والقلب هو الأصل ـ إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره، ولا يخفي أن ذلك غرور، بل أقرب مثالي إليه: رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله، فأخذ يجز رؤسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة. بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره

(١) حديث «أدنى الرياء شرك» تقدم في ذم الجاه والرياء.

(٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر. تقدم غير مرة.

(٣) حديث «الحسد يأكل الحسنات. . . الحديث» تقدم في العلم وغيره.

(٤) حديث «حب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب. . . الحديث» تقدم.

(٥) حديث «إن الله لا ينظر إلى صوركم. . . الحديث» تقدم.

والدواء ليقطع مادته من باطنه، فنقع بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في المادة، فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن.

(وفرقة أخرى) علموا أنّ هذه الأخلاقَ الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العمل، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا: ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين! وإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك، وكان ذلي ذلّاً على الإسلام ونسى المغرور أن عدوّه الذي حذره منه مولاه هو الشيطان، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به، وينسى أنّ النبي ﷺ بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين؟ ونسى ما روي عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العزّ في غيره ثم هذا المغرور يطلب عزّ الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقى والإبريسم ـ المحرّم ـ والخيول والمراكب ويزعم أنه يطلب به عزّ العلم وشرف الدين! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظنّ بنفسه أنّ ذلك حسد ولكن قال: إنما هذا غضب للحق رد على المبطل في عدوانه وظلمه، ولم يظن بنفسه الحسد، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله؟ أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ـ كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضاً ويقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي فإنما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولي! هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثنى عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمع في ما لهم فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل. وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟

فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور (أحدها) في أنه مال لا مالك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالطها فلا خلاف في أنه مال حرام، ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر (الثاني والثالث) في قوله إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين؛ ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال

السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين. إذ الإمام: هو الذي يقتدي به في الإعراض عن الدينا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف. والدجال: هو الذي يقتدي به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش، فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد اقتلعها، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري. فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايات والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أنّ باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته. ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء، والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات وإيثاره في الأغراض، والإجتماع حوله للإستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد، والمتمتع بتحريك الرؤوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدينا، لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص. ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعزّ وانقياد وتوقير وحسن ثناء، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه بتشوّش عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه. وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه، وربما يحتاج ألى أن يكذب في تغطية عيبه. وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد الورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره، وينبو قلبه عمن عرف حدّ فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع له واتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشدّ إصغاء إليه وأحرص على خدمته ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه. وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة ولإختفاء لذة القبول وعزة الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان: من زعم من بني آدم أنه بعلمه إمتنع مني فبجهله وقع في حبائلي. وعساه يصنف ويجتهد فيه ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به وإنما يريد به استطارة إسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الإستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلوا من الثناء على نفسه إما صريحاً بالدعاوي الطويلة العريضة وإما ضمناً بالطعن في غيره،

ليستبين من طعنه في غيره، أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علماً ولقد كان في غنية عن الطعن فيه، ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه فيعزيه إلى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتشجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكة ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس. وعساه غافلاً عما روي أن بعض الحكماء وضع ثلاثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقاً وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً. ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعاً أو غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بأنه مشغول بالإستفادة، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه، ولعل واحداً منهم إذا تحرّكت فيه مبادىء الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك، ويقول إنما غضبت لدين الله لا لنفسي. ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ـ يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ـ وسر قلبه راضٍ به ومريد له، والله مطلع عليه في ذلك. فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أنّ أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال، وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه الظانّ أنه من خيار خلقه، فنعوذ بالله من الغفلة والإغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال. هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاقتصارهم عليه. فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصصوا إسم الفقه بها و سموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات. فهؤلاء مغرورون من وجهين (أحدهما) من حيث العمل (الآخر) من حيث العلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكرارها وتعليمه، لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم أدواء الإستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول: ربما تقع علة الإستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك، وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا وإتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يخطفه الموت والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوي والبيانات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه واذا غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال،

وقد دهاه الشيطان وما يشعر، إذ يظنّ المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدري أن الإشتغال بفرض الكفاية قبل الفرار من فرض العين معصية. هذا لوكانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى، فأنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظنّ أنه علم الدين وترك كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، وربما طعن في المحدثين، وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى، فتراه آمناً من الله مغتراً به متكلاً على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوم دينه، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما سمع الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقة عن الله ومعرفة صفاته المخوّفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى، إذ قال تعالى ﴿فلولا نفر من كل فرقة منه طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم: حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة والبدن مركب. وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله. فمثاله في الإقتصاد على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الرواية والخف، ولا شك في انه لو لم يكن لتعطل الحج، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله ـ وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ـ ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل. وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفهم معانيها. وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام وإقامة سوق الجدل بها فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها.

ثم هم فرقتان: ضالة ومحقة؛ فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنة، والمحقة هي التي تدعو إلى السنة والغرور شامل لجميعهم. أما الضالة: فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم

بعضاً، وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ولم تحكم أوّلاً شروط الأدلة ومناهجها، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة. وأما الفرقة المحقة: فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأنّ من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرّب عند الله.

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة، وأحدهم يظن أنّ اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل، ولكنه لالتذاذه بالغبة والإفحام ولذة الرياسة وعز الإنتماء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأوّل، فإن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته، وإذا رأوه مصراً على ضلاله هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر، بل قالوا: إنّ الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة. إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم قطّ بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل[1]» وخرج رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقىء في وجهه حب الزمان[2] ـ حمرة من الغضب ـ فقال: «ألهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض أنظروا إلى ما أمرتم به فاعلموا وما نهيتم عنه فانتهوا» فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال. ثم إنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأنّ ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعصب والخصومة تشدّداً في بدعته، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة؟ فالأولى أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه.

(وفرقة) اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون: ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو أمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو المغترين المضيعين، ويرى أنه من الراضين بقضاء

---

(١) حديث «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» تقدم في العلم وفي آفات اللسان.
(٢) حديث: خرج يوماً على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون، فغضب حتى كأنه فقىء في وجهه حب الرمان... الحديث» تقدم.

الله وهو من الساخطين، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والأسباب، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين. بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائي بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوّة رغبته فيها فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن. ويذكر بالله تعالى وهو له ناس، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشدّ حرصاً ـ لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت ـ ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غمّاً وحسداً، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه. فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به. فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الإمتحان والتجربة، وهو أن يدعي مثلاً حب الله فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله؟ ويدعي الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدعي الزهد فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعي الأنس بالله فمتى طابت له الخلوة! ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلىء بالحلاوة إذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محباً يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها وذهب عليهم أنّ القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الإتصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين في الإتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف، بل ربما زاد أمنه وقل خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته، ويصف الصحة والشفاء، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به وانما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها. ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور. فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم.

(وفرقة أخرى) منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله، على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب. وطائفة شغفوا بطيّارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همهم بالأسجاع والإستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن تكثر في مجالستهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فإنّ الأوّلين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم. وأما هؤلاء فإنهم يصدّون عن سبيل الله

ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا، لا سيما إذا كان الواعظ متزيناً بالثياب والخيل والمراكب فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدّة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلاً ويضل خلقاً كثيراً ولا يخفي وجه كونه مغروراً.

(وفرقة أخرى) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر، وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض، وصار مغفوراً له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه. وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان ولقد رأيت فلاناً ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري. وغرورهم من وجوه: منها أنهم كحملة الأسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أنّ ذلك يكفيهم ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضاً ولا يعملون به. ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضاً لا يقيمون بشرط السماع فإن السماع بمجرّده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء إقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب، ثم يكتب إسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدّى ليسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه، وكل ذلك جهل وغرور. إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ فيحفظه كما سمعه، ويرويه كما حفظه، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع. فإن عجزت عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله ﷺ، وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سَمعت بحيث لا تغير منه حرفاً ولو غير غيرك منه حرفاً أو أخطأ علمت خطأه.

ولحفظك طريقان (أحدهما) أن يحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال. (والثاني) أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدّت إليه يد غيرك ربما غيره، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكراً لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف.

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوّزت أن يكون ما فيه مغيراً أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجز لك أن تقول: سمعت هذا الكتاب، فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة. فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة إستوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك؟ وقد قال الله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان إنا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح. وأقل شروط السماع أن يجري الجميع على السمع

مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ، فالصبي الذي لا يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولا يحفظ، وإن استجرأ جاهل فقال: يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن، فإن فرق بينهما بأنّ الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت، فليقتصر إذا صار شيخاً على أن يقول: سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلساً يروى فيه حديث كان يقرع سمعي صوته ولا أدري ما هو؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً غفلاً لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل. ومن أين يأخذ هذا؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله ﷺ: «نضرّ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها[1]» وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أفحش أنواع الغرور. وقد بلى بهذا أهل الزمان ولو اختلط أهل الزمان لم يجدوا شيوخاً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة، إلا أنّ للمحدّثين في ذلك جاهاً وقبولاً، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم، وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل وإفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة وسالك طريقها ربما يكفيه الحديث الواحد عمره، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أوّل حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[2]» فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره. فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور.

(وفرقة أخرى) إشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة، ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أنّ العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بدّ من تعلمها وتصحيحها، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أنّ لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغريبين في الأحاديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور، بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور، إذ المقصود من الحزوف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء وضيع أوقاته في

---

(١) حديث «نضرّ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها . . . الحديث» أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس.

(٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلاً وقد تقدم.

تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين، فذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجرّدوا لها وعرجوا عليها ـ أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين ـ فاللبُ الأقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل، وهو كالقشر للعمل وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف، والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات. فهذا فهو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد. وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع إغتر بها أربابها. فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محموداً ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى. والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن اتخذ القشر مقصوداً وعرج عليه فقد اغتر به.

(وفرقة أخرى) عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساؤوا تأويل الألفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطئوا فيها. وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتاوي مما يكثر. ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة: فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصدق برىء الزوج بينه وبين الله تعالى، وذلك خطأ بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرىء الزوج لتتخلص منه فهو إبراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وطيبة النفس غير طيبة القلب، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتى إذا رددت بين ضررين إختارت أهونها فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن. نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه، ولكن مهما تصدّى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوباً ولا مقيداً في تحصيل الإبراء، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفسه منه، فلو طلب من الإنسان مالاً على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال، وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر، وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب، وكذلك من يعطي اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام. ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال ـ بعد أن غفر له ـ يا رب كيف لي بخصمي؟ فأمر بالإستحلال منه وكان ميتاً فأمر بندائه في صخرة بيت المقدّس، فنادى: يا أوريا، فأجابه: لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد؟ فقال: إني أسأت إليك في أمر فهبه لي، قال: قد فعلت ذلك يا نبي الله، فانصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام: هل ذكرت له ما فعلت؟

قال: لا، قال: فارجع فبين له، فرجع فناداه فقال: لبيك يا نبي الله، فقال: إني أذنبت إليك ذنباً، قال: ألم أهبه لك؟ قال: ألا تسألني ما ذلك الذنب؟ قال: ما هو يا نبي الله؟ قال: كذا وكذا، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب، فقال يا أوريا ألا تجيبني؟ قال: يا نبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى و عده الله أن يستوهبه منه في الآخرة. فهكذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلى الإنسان واختياره، حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والإلزام. ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لإسقاط الزكاة، فالفقيه يقول: سقطت الزكاة، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه فقد صدق فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال، وإن ظن أنه يَسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة، فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال ﷺ: «ثلاث مهلكات شح مطاع[1]» وإنما صار شحه مطاعاً بما فعله وقبله لم يكن مطاعاً. فقد تم هلاكه بما يظن أنّ فيه خلاصه فإنّ الله مطلع على قلبه وحبه المال وحرصه عليه، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسدّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأماني والفضول والشهوات وبين الحاجات، بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة، فكل ما تناوله العبد للإستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته، ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الإستيعاب فإنّ ذلك يطول.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل والمغرورون منه فرق كثيرة فمنهم من غروره في الصلاة. ومنه من غروره في تلاوة القرآن. ومنهم في الحج. ومنهم في الغزو. ومنه في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم.

(فمنهم فرقه) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع، ويقدر الإحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الإحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الإحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة، إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منهى عنه[2]» وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، إلا أن الشيطان يصدّ الخلق عن الله بطريق سنيّ، ولا يقدر على صدّ العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك.

(وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوّش

(١) حديث «ثلاث مهلكات. . . الحديث» تقدم غير مرة.

(٢) حديث: النهي عن الإسراف في الوضوء. أخرجه الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب «إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان. . . الحديث» وتقدم في عجائب القلب.

عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الإحتياط فيه، يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم، ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أوّل الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والإحتياط فهم على خير عند ربهم.

(وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لا يهمه غيره ولا يتفكر فيها سواء ذاهلاً عن معنى القرآن والإتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره. وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام.

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل.

(وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذا وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الإعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة ـ فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

ومثاله: مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه، إلا انه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور. نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والإنتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرأه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هي لذته في صوته، ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الإلتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته.

(وفرقة أخرى) إغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور.

(وفرقة أخرى) إغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصي الله تعالى في كسب الحرام أوّلاً وفي إنفاقه بالرياء ثانياً فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدّم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور.

(وفرقة أخرى) أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة وإذا باشر منكراً ورد عليه غضب وقال: أنا

المحتسب فكيف تنكر علي؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال: لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلو تقدّم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه.

(وفرقة أخرى) جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أنّ فلاناً مجاور بذلك، وتراه يتحدّى ويقول: قد جاورت بمكة كذا كذا سنة، وإذا سمع أنّ ذلك قبيح ترك صريح التحدّي وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد يجاور ويمدّ عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئاً شح به وأمسكه لم تسمح نفسه بلقمة يتصدّق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة، ولكن حب المحمدة وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين، فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، وفي الحج من كتاب الحج، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب.

(وفرقة أخرى) زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرّد الزهد، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين، فإنّ الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا؛ ولم يدر أنّ منتهى لذاتها لرياسة وأنّ الراغب فيها لا بدّ وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبراً ومرائياً ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق. نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الإستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدري، وربما يعطي المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده، ولو قيل له إنه حلال فخذه في الظاهر ورده في الخفية لم تسمح به نفسه خوفاً من ذم الناس، فهو راغب في حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل إلى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه. وفي العباد من يشدّد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويختم القرآن وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدري أنّ ذلك مهلك، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات! وذرة من ذي تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح، ثم لا يخلو هذا المغرور ـ مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه ـ عن الرياء وحب الثناء، فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غروراً، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه.

(وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة لا يشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت، وينسى

قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «ما تقرّب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم[1]» وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور. بل قد يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته. فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك» قال: ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك[2]» فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع. وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور بل ينبغي أن يقدّم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه. وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والإشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه. وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيـذاء أهم من الحذر من النجاسة. وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر. ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور. وهذا غرور في غاية الغموض لأنّ المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها. ومن جملته الإشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه. فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدّم عليهم يعمى عليه حتى يغترّ به مع نفسه ويظنّ أنه مشغول بهم دينه.

الصنف الثالث: المتصوّفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة.

(ففرقة منهم) وهم متصوّفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والهيئة والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضاً صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جازلهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية؟ كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه. وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان وكيف تحريكهم الأيدي وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، ثم توجهت إلى المعسكر

---

(١) حديث «ما تقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ «ما تقرب إلي عبدي».

(٢) حديث: من أبر؟ قال «أمك... الحديث» أخرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم في آداب الصحبة.

ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة، فلما جرّدت عن المغفر والدرع فإذا هيَ عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر؟ فقيل لها أجئت للإستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل. فكهذا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزي والمرقع بل إلى القلب.

(وفرقة أخرى زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليها الإقتداء بهم في بذاذة الثياب والرضا بالدون، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدّا من التزين بزيهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوّف بمجرّد لون الثوب وكونه مرقعاً، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم.

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقب من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والأخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العباد إنهم أجراء متعبون، ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون؛ ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علماً ولم يهذب خلقاً ولم يترب عملاً ولم يراقب قلباً سوى أتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه.

(وفرقة أخرى) وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغنٍ عن عملي فلم أتعب نفسي؟ وبعضهم يقول: قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن، وإنما يغتر به من لم يجرب، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال. ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كلفوا قلع مادتها بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع. وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون إنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية، وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك بناء

على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للإقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول.

(وفرقة أخرى): جاوزت حدّ هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا و الحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته، ثم إنه لا عن مقارفة ما يكره الله عزّ وجلّ وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى. وليس يدري أكل ذلك يناقض الحب وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها.

(وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يرضيه إلا فقد جميع الطاعات والمعاصي. فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور.

(وفرقة أخرى) إدعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدّوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوماً وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك للرياسة وجمع المال، وإنما غرضهم التكبر، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الإرتفاع وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الإستتباع، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعوا من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة، وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهراً وباطناً ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه. ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علمًا وحرفة، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها، فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيباً عيب، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه.

(وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة، فكلما تشمموا من مبادىء المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالإلتفات إليها والتفكر فيها، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد

ملكاً فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

(وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والإلتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حدّ القربة إلى الله تعالى، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا فإن لله تعالى سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل. وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى إخباراً عنه ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي﴾ وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحداً، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغرّه الكوكب الذي لا يغرّ السوادية. ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عزّ وجلّ وهي على طريق السالكين، ولا يتصوّر الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض﴾ يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أوّل ما كان يلقاه أنه قد وصل، ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيترقى إليه ويقول: قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده، فقال ﴿هذا أكبر﴾ فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خالٍ عن الهوى في حضيض النقص والإنحطاط عن ذروة الكمال ﴿قال لا أحب الآفلين - إلى أن قال - إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض﴾ وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الأول، وأوّل الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضاً أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى؛ أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيًا إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أوّل الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول: أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك إغتر به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الإلتباس، إذا المتجلي يلتبس بالمتجلي فيه كما يلتبس لون ما يتراىء في المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل:

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمدّ يده إليه ليأخذه وهو مغرور، وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة، وذلك مما لا رخصة في ذكره، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره، والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم، ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذي هو فيه بل ربما يصدّق بأنّ الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدّق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله، ومن عظم غروره ربما أصر مكذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل.

الصنف الرابع: أرباب الأموال؛ والمغترون منهم فرق: (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك. وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة، فهم قد تعرّضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الإمتناع عن كسبها، فإذن قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقةعلى المساكين، وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير.

والوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب إسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه كتب إسمه أو لم يكتب، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك.

(وفرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضاً مغرورة من وجهين:

أحدهما. الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهى عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم[1] والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعدّ ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرّض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره، وقد شوّش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوّقهم به إلى زخارف الدنيا، فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته؛ إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى. قال مالك بن دينار: أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله، فكتبه الملكان عند الله صديقاً. فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى. وقال الحواريون للمسيح عليه السلام: أنظر إلى هذا المسجد ما أحسنه! فقال: أمتي أمتي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائمًا على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله» إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يخرّب إذا كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم[2]» وقال الحسن: «إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه[3]» فغرور هذا من حيث أنه رأى المنكر واتكل عليه.

---

(١) حديث: النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش. اخرجه البخاري من قول عمر بن الخطاب: أكل الناس ولا تحمر لا تصفر.

(٢) حديث «إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم» أخرجه ابن المبارك في الزهد وأبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفاً على أبي الدرداء.

(٣) حديث الحسن مرسلاً: لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه لم أجده.

(وفرقة أخرى) ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ويكرهون التصدّق في السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفراناً، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب، يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه. وقال أبو نصر التمار: إن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث وقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم. قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال: نعم،. قال: اذهب وأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوى قلبك تعطيها واحداً فافعل فإدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات إقتضت النفس أن تقضي به وطراً فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

(وفرقة أخرى) من أرباب الأموال إشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمة بإخراج المال، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغنٍ عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين؟ ولذلك قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه من جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

(وفرقة أخرى) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بإداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم، ومن يحتاجون إليه في المستقبل للإستسخار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض، أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته. وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضاً من غيره، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضاً لا يحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

(وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء إغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أنّ لهم على مجرّد سماع الوعظ دون العمل ودون الإتعاظ أجراً، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها، وما يراد لغيره فإذا قصر عن الإداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم! أو نعوذ بالله أو سبحان الله! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا

يغني من الله شيئاً. فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً.

فإن قلت: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الإحتراز منه، وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات؟ فأقول: الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صح منه الهوى إهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه إستنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال إستخرجه، وإذا أراد أن يقنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري إقتنصها، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات إستسخرها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت إتخذه، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها إستخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي. كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه، فلو همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل، وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا لهم الواحد بل هو كما يقال: (لو صح منك الهوى أرشده للحيل) فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان. فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها.

فإن قلت: قد قرّبت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالفعل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بد منها. أما العقل: فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بدّ منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن. نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة، قال رسول الله ﷺ: «تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً[(١)] إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد، وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين. وعن أبي الدرداء أنه قيل: يا رسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدّق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله ﷺ: «إنما يجزى على قدر عقله[(٢)]» وقال أنس: أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا خيراً فقال رسول الله ﷺ: «كيف عقله؟» قالوا: يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال: «كيف عقله فإن الأحمق يصيب بحمقة أعظم من فجور الفاجر. وإنما يقرّب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم[(٣)]» وقال أبو الدرداء: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدّة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن

---

(١) حديث «تبارك الذي قسم العقل بين عباده... الحديث» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلاً وفي أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضاً.

(٢) حديث أبي الدرداء «أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل... الحديث» وفيه «إنما يجزى على قدر عقله» أخرجه الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء.

(٣) حديث أنس: أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال «كيف عقله؟... الحديث» أخرجه داود بن المجبر في كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم في العلم.

قال: «أرجوه» وإن قالوا غير ذلك قال: «لن يبلغ[1]» وذكر له شدّة عبادة رجل فقال: «كيف عقله» قالوا ليس بشيء قال: «لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون» فالذكاء صحيح وغريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها.

الثاني. المعرفة؛ وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة: فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر وكتاب الشكر، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله، ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة. وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الإستعانة على سلوك طريق الآخرة. وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية. وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم: أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقرّبه من الله وما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله (وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغنٍ عنه فيعرض عنه، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها) فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فإن قلت: فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق ونشر العلم ودعوته الناس إلى ما عرفه من دين الله، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفّاه من جميع المكدّرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه، وقد عجز الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صمّاً عمياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب، فغلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما

---

(١) حديث أبي الدرداء: كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة، سأل عن عقله... الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه.

يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرىء وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان، فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الإشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفي من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم وإشفاؤهم، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الإشتغال بنصحهم وحرّضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالاً للفتنة، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعا- إلى الرياسة دعاءً خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد، فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافياً لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولاً كالعبيد والخدم فخدموه وقدّموه في المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدّت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة. وأمارة إنتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أنّ ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن إعتقاد المريدين فيه إنقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور، فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع، ووقع في الكبر الذي هو تمرّد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن يحذر من طوارق الخطرات، وكذلك إذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالإستغفار وتنفس الصعداء، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة، ولذلك لا تجزع نفسه من إطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتنم ذلك، إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى. رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقي من البئر بسببه، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه، أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن إعوجاج النفس بعد الإستواء.

فإن قلت: فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يودّ لو وجد من يعينه، أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم، فاستوى

عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات: فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيراً منه لجهله بالخاتمة. وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع! بل راعي الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الإشتغال بإصلاحهم. نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه.

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا من الوعظ وخربت القلوب؟ فأقول قد قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة[1]» ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والأبدان جميعاً، إلا أنه ﷺ علم أنّ حب الدنيا مهلك وأنّ ذكر كونه مهلكاً لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدين من الخطر ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقاً لقوله تعالى ﴿ ولكن حق القول مني لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول: إنّ الوعظ لحب الرياسة حرام، كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله إنّ ذلك حرام، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس، فإنّ الله تعالى يصلح خلقاً كثيراً بإفساد شخص واحد وأشخاص ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ وإنّ الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، فإنما يخشى أن يفسد طريق الإتعاظ، فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبداً.

فإن قلت: فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الإغترار؟ فاعلم أنه بقي عليه أعظمه وهو أنّ الشيطان يقول له: قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهري ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري! فيصغي إليه ويصدّقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر، فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان: يا بن آدم إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي.

فإن قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من الله تعالى لا منه وإنّ مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب؟ فأقول: يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والإنقلاب، فيكون حاله الإتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدّاً، بل سبيله أن يكون مشاهداً جملة ذلك من فضل الله ثم خائفاً على نفسه أن يكون قد سدّت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عزّ وهو غافل عنه، ويكون

---

(١) حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا.

خائفاً أن يسلب حاله في كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط. ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال: أفلت مني يا فلان؟ فقال: لا، بعد. ولذلك قيل: الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فإذن المغرور هالك والمخلص الفارّ من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً.

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة، فإنّ الأمور بخواتيمها.

تم كتاب ذم الغرور، وبه تم ربع المهلكات، ويتلوه في أوّل ربع المنجيات: «كتاب التوبة» والحمد لله أوّلاً وآخراً وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة